@ketab_n
Follow Me
6.9.2015

ميكائيل برزان

عشيقة شارل بودلير

رواية

ترجمة: د. قاسم المقداد

نينوى

ميكائيل برازان

عشيقة شارل بودلير

رواية

ترجمة

د. قاسم المقـــداد

Twitter: @ketab_n

عشيقة شارل بودلير

« Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de Culturesfrance / Ministère français des Affaires étrangères et européennes. »

«حصل هذا الكتاب على دعم من برنامج المساعدة على النشر التابع لـ «كولتور فرانس / وزارة فرنسا للشؤون الخارجية والأوروبية.»

Twitter: @ketab_n

اسم الكتاب: عشيقة شارل بودلير

المؤلف: ميكائيل برازان

ترجمة: د. قاسم المقداد

عدد الصفحات: 220

القياس: 14.5 ❖ 21.5

1000/2011م -1430هـ

طُبع هذا الكتاب بموجب عقد حقوق مع الناشر الفرنسي للطبعة العربية

© جميع الحقوق محفوظة PLON , 2007 ©

Copyright ninawa

سورية - دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتف: 2326985 11 963+

E-mail: ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني - دار نينوى

لوحة الغلاف:

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة،

أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت

دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Twitter: @ketab_n

العنوان الأصلي للرواية :

Titre : La Maîtresse de Charles Baudelaire

Auteur : Michael Prazan

المؤلف :

ميكائيل برازان

(أستاذ في اللغة الفرنسية وصحفي وكاتب،

نشر عدة أبحاث، منها:

روجيه غارودي، مسيرة نفي، وهذه هي روايته الأولى)

دار النشر :

PLON

(باريس فرنسا، 2007)

المترجم :

د. قاسم المقداد

(أستاذ في جامعة دمشق، رئيس قسم تعليم اللغة الفرنسية في المعهد

العالي للغات، وعضو اتحاد الكتاب العرب

ترجم أكثر من عشرين كتاباً

عن اللغة الفرنسية في مجالات مختلفة)

Twitter: @ketab_n

إهداء الرواية

أهديكِ هذي القوافي
علَّ اسمي يرهقُ، كآلة السنطور،
قارئاً مر، عفوا،
بذكراكِ الشبيهة بالخرافاتِ المُريبة،
لتبقى معلقة بقوافيٍّ المتعالية

من قصيدة «الشرفة»

تسكنُ في صوتي، تلك الصارخةُ!
إنها دمي كلَّه، هذا السم الأسود.

من قصيدة «جلاّد الذات»

Twitter: @ketab_n

توضيح

حياة الإنسان رواية، بشكل من الأشكال، لاسيما حينما يقوم آخر بسردها. فتبدو الحوادث التي مرت بهذا الإنسان أو ذاك، ضرباً من الخيال، مع أنها واقعية تماماً، وحدثت في أزمنة وأمكنة محددة، ومعروفة.

بودلير، عملاق الشعر الفرنسي، والذي يؤرخ بعضهم له بما قبل، وما بعد بودلير، عاش حياة أشبه ما تكون بالخيال.

نحن لا نقرأ سوى شعر هذا أو ذاك، ولا نستمتع إلا بما ترويه هذه الرواية أو تلك، دون البحث عن حقيقة أبطالها أو أحداثها، لأننا، بكل بساطة، أمام تخييل. المؤلف وحده، مسؤول عن هذه العملية الإبداعية التي لا ينبغي، في كل الأحوال، أن ننظر إليها على أنها واقعية، حتى وإن أوهمنا المؤلف بغير ذلك.

ورواية، عشيقة بودلير، لا تخرج عن هذا الإطار. فهي رواية، أولاً وأخيراً. لكنها، بزعمي، رواية مختلفة. لأن من سمحت الفرصة بالاطلاع على تاريخ الأدب الفرنسي عموماً، وعلى تاريخ حياة بودلير، على نحو خاص، سيرى أن المؤلف قد استند إلى وثائق مبثوثة في كتب التاريخ وسير الرجال العظام، وربما في أعمالهم الإبداعية.

شخصياً، كدت أن أبتعد للحظة، عن هذه الحقيقة، وهي حقيقة أن الرواية أو القصة عبارة عن تخييل، وعلى هذا فقد قرأتها على أنها تأريخ

Twitter: @ketab_n

حقيقي لحياة بودلير، لاسيما في سياقها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي (من هنا إضافتي لبعض الصور واللوحات المعروفة، والمنشورة في كتب تاريخ الأدب والفن لشخصيات عاشت مع بودلير وربطته بها صداقات وكان بينه وبين بعضها الآخر خصومات، بهدف توضيح هذا اللبس الذي انتابني، ومن شأنه أن أن يصيب بعض القراء).

في هذه الرواية، يجد القارئ نفسه أمام أحداث سردها التاريخ، وأمام شخصيات معروفة، تركت بصماتها على مختلف جوانب الحياة الفرنسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، والأهم من هذا وذاك، أنها تعيد ترتيب قطع الحياة الفرنسية، بعد أن تناثرت هذه القطع هنا وهناك.

ما أسلفت، لايعني أبداً أن الرواية التي بين أيدينا، هي رواية تاريخية، أبداً. لكنها تبدو كذلك، وهو أمر يحسب للمؤلف.

هي، في نهاية المطاف رواية، بل ورواية كلاسيكية في كثير من جوانبها، لكنها: رواية بودلير.

د. قاسم المقداد

Twitter: @ketab_n

عزيزي القارئ

ترددت كثيراً قبل أن أعقد العزم على نسج قصتي هذه التي ستنخرط في قراءتها، لأسباب تخصني، ولآن المقام هنا، لا يسمح لناثر كلماتٍ متواضعٍ مثلي، كَبُر في ظلِّ الشاعر، أن يزجي لنفسه فائضَ قيمةٍ لا يستحقها، فآثرت أن أبقى مجهولاً. من أتيحت لهم فرصة العيش في تلك الفترة التي أصفها هنا، والاختلاط بشخصيات طاولت شهرتهم ناراً تلتهب فوق سارية علم، ممن سآتي على ذكرهم، لن يجدوا كبير عناء في التعرف عليّ، هذا إذا كان بعضهم ما يزال على قيد الحياة.

أما وقد بلغت اليوم من العمر عتيّا، وغيّب الموت معاصريَّ، كلهم أو بعضهم، وطبّقت شهرة اسم بودلير الآفاق، بينما طوى النسيان اسم عشيقته جان أو ما يزال الناس يلطخونه بالطين، فقد وجدت لزاماً عليّ أن أقدم، بمقدار ما تسعفني به الأمانة، قصة غراميات هذين الشخصين وأن أسرد وقائع حياتهما التي تراوحت بين الفظاعة والسموّ. أما لماذا لم أقدم على هذا العمل في وقت أبكر، فسببه كان بلا شك، خوفي الشديد من أن أقدّم للناس حقيقة رجل عاش قسطاً وافراً من حياته، حرص خلالهً على كتمان كل ما له علاقة بحياته الشخصية. لقد كان أحرص ما يكون على ألا يعرف الناس قصة حبه لجان العظيمة، وهو الحب الذي استهلك حياته بمقدار ما استهلكها المرض. وبالتالي فقد كتبت هذه القصة، التي

Twitter: @ketab_n

تتهيأ لقراءتها، أيها القارئ، باهتمام وبشيء (أدركه فيك) من الهلع، تخليداً لذكرى جان و عشيقها الشهير.

ختاماً، عليّ أن أقول لك بأني لم أخترع شيئاً. لم أروِ، عن علاقة هذين العاشقين الملعونين، إلا قصة ناقصة مما أعرفه عنهما، كما لم أسرد شيئاً أجهله. لقد شهدتُ بعض مضمون هذه القصة مباشرة، أو كتبته وفقاً لشهاداتٍ أكّدت صدقها الرسائل والجلسات الخاصة. لكن الأساسي من هذه القصة روته لي جان نفسها، التي أعدتُ وصلي بها بعد موت شارل، وبقيت على هذا التواصل معها حتى خبت روحها منذ زمن بعيد.

أعرف، عزيزي القارئ، ما عندك من طبيعةٍ حذرة إزاء ما سأرويه لك لأن الناس آنذاك، لاسيما الفنانين وجماعة الأدب الذين كنا نختلط بهم، كانوا ينتقصون من قيمة بعضهم بعضا، ولم يكن بالأمر السهل أن تميز الغث من سمين المقول أو المكتوب عن جان أو عن بودلير. في نهاية المطاف، لكَ أن تعتقد كما يحلو لك. لكن اعلم فقط، أني عملت هنا بكل أمانة ووفاء ممكنين. أي ما أسعفتني قدرتي على القيام به. الآن وقد انتهى هذا القرن الفظيع، واضعاً آماله في التوجهات التقدمية والجهود المشتركة بين العلم والاشتراكية لما هو قادم، والذي ربما سيتمخض عن إنسانية أكثر تعقلاً، عليّ عزيزي القارئ، أن أدعك لأن شفق العمر (الشيخوخة) يجتاحني وقواي تخونني.

Twitter: @ketab_n

القسم الأول

المُفرَحان

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أ

التقيت شارل للمرة الثانية في غرّة آذار من عام 1842، بعد عودته من جزيرة بوربون. مر عام عليَّ دون أن أراه مذ كنا نسكن في نُزل ليفيك

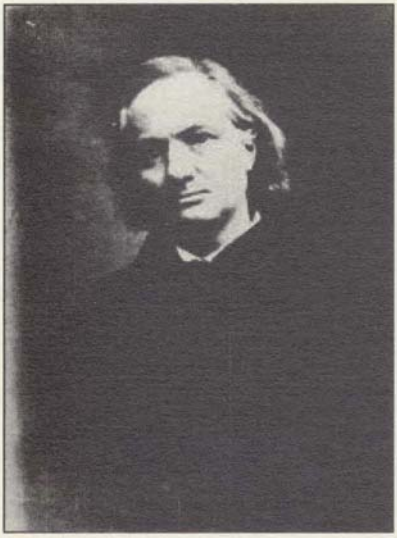

شارل بودلير

بايي، الواقع في شارع استراباند. كنا وقتها مُسَجَلين في كلية الحقوق التي لم تطأها أقدامنا، ولم نقدم فيها امتحاناً قط. كان شعره طويلاً وسحنته تحمل آثار الشمس التي تستحم بها الشواطئ الأفريقية. لقد بدا وكأن شيئاً غريباً نفذ إلى أعماقه ليستقر فيها إلى الأبد. شيء كالوشم الذي لاتمحى

Twitter: @ketab_n

آثاره. مزاجه كان ينم عن فرحه بلقائنا وعودتنا للتنزه مرة أخرى في هذه الباريس التي كانت تسلم نفسها بخجل لنعومة الربيع. حينها كان شارل قد بلغ سن الرشد. عيناه ممتلئتان مكراً، وابتسامته، على الرغم من دقة شفتيه، أكثر تفجراً ووضوحاً مما كانت عليه في سنوات دراستنا الثانوية. وعلى الرغم من نحوله نحول ساق نبات، إلا أنه كان يتمتع بجاذبية حيوية الشباب الطموح ومظهره. وسبب هيئته المغترَّة يعود إلى أنه كان يتهيأ لتسلم الميراث الذي تركه له والده، ظناً منه أنه، بعد تسلم هذه التركة الضخمة البالغة 75 ألف فرنك في الشهر القادم، سيكون بمنجاة نهائية عن العمل الذي كان يخيفه جدا، وأن صواعق السيد أوبيك، زوج أمه، (الذي رفض من الآن فصاعداً مناداته بـ«بابا») لن تبلغه بعد اليوم أبداً.

الجنرال أوبيك (زوج أم بودلير)

وضعتُه في صورة الانطباع الذي ولده في نفسي. بعد أن كَنَسَ ملاحظتي بقفا يده، أكد لي أنه ليس أكثر حكمةً مما كان عليه قبل سفره، وأن شيئاً فيه لم يتحسن. لكني كنت أظن أن ثورةً تفجرت في داخله وكانت بادية على محياه العام، بل حتى على قسمات وجهه. كان يبدو لي أن شيئا ما فيه قد ازداد قسوة، وأن ضعف إرادته الشديد في السابق، قد تحول إلى ثقة بالنفس.

رانت هنيهة من الصمت، ربما زالت فيها الحواجز التي بناها الفراق بيننا خلال سنة بكاملها، بعدها سألته أن يحدثني عن رحلته إلى الهند، مع يقيني التام بأن قدميه لم تطأ أرضها، فروى لي بعض الحكايات العجيبة التي لابد وأنها من نسج خياله أو قام بتجميلها إن

Twitter: @ketab_n

وجدت، ثم أسمعني قصيدة رائعة كان قد وجهها إلى زوجة مضيفه في إحدى المستعمرات، حينما كان في جزيرة موريس التي توجب على قبطان السفينة، التي كان على متنها أن يتوقف فيها حتى لايبتلعه موج عاصفة مخيفة. ثم امتدح لي جمال النسوة ذوات الأجساد المنحوتة من مرمرٍ أسود، القادمات من سيكست[1]. نسوة ذوات جمال مهيب قاتل؛ نسوة حرائر على الرغم من رزوحهن تحت نير العبودية. حدثني عن إعجابه بهن في كل مكان كان يصل إليه، بل عن وقوعه في غرامهن كلما أوتي إلى ذلك سبيلاً.

في هذا السياق، ذكرت له اسم آنسةٍ تُدعى بيرت، سبق وأن حدثني عنها صديقي تورناشون، الذي سيعرفه الملأ لاحقاً باسم نادار. كانت ممثلة شابة اسمها الحقيقي جان لومير. تباهى تورناشون بأنه أقام معها خلال العام الفائت، واحدة من أكثر العلاقات إثارةصارت حديث باريس كلها، ليس إلا لأنها تعود في أصولها إلى جزيرة بعيدة، ولأنها ثمرة مزيج عرقي لم تكن قادرة على إخفاء طبيعته ولونه الأسود الغامق المائل إلى الاحمرار، مضافاً إلى سواد عينيها وغرتها الجعداء. أعرب بودلير عن اهتمامه الشديد بجان لومير هذه، وهو أمر لم ألحظه أبداً. طرح علي عدة أسئلة حولها، لاسيما عن المكان الذي يمكن رؤيتها فيه. في المساء نفسه، كانت الآنسة بيرت تمثل دوراً متواضعاً في ملهاة خفيفة سيئة، أشبعها النقاد قدحاً. بودلير، الذي كان محباً للمسرح ولا يتورع عن الترويح عن نفسه في رؤية ملهاة حتى لو كانت سيئة، سألني ما إذا كنت أقبل بمرافقته، فوافقت بطيبة خاطر، لاسيما وأني لم أكن قد خططت لأي مشروع في تلك الليلة.

---

[1] منطقة في جنوب شرق فرنسا.

Twitter: @ketab_n

بعد أن تناولنا وجبة خفيفة واحتسينا من النبيذ بعضاً من أقداحه، توجهنا إلى مسرح بورت سانت أنطوان حيث كانت تُمَثَّلُ مسرحيةٌ عنوانها **منظومة عمّي**. على واجهة مبنى المسرح، تحققنا أن في آخر قائمة الشخصيات، كان هناك دور خادمة تلعبه المدعوة الآنسة بيرت.

جان ديفال

كان العرض يبعث على الملل والحوار سيئاً، لاسيما وأنه عرضٌ جمع كل الشخصيات المعروفة في الملهاة، أي: الزوجة و الزوج المخدوع و العشيق وبعض الخبثاء الذين كانوا يضفون الغموض الفاضح، من خلال حالات سوء التفاهم على هذا كله.

جميع من في القاعة كانوا يضحكون، أما شارل وأنا فلم تندّ عن شفتينا أي ابتسامة. في نهاية الفصل الأول، دخلت خادمة لها سحنة عنبرية، وشعر كثيف فاحم مربوط إلى أعلى رأسها، تخرج منه خصلات مجعدة على الطريقة الانكليزية، لكن الناظر إليها كان يعرف أنها تتماوج بشكل طبيعي. كانت فتاة بالغة الطول، تتهادى بشكل غير عادي كما

Twitter: @ketab_n

الزورق، وتتلفظ بكلمات قليلة، و كان دورها يتطلب منها القيام بحركات بطيئة تنطوي على شيء من الشهوانية النادرة. ما أن ظهرت على خشبة المسرح حتى انتاب الجمهور ضحك ساخر، بعد أن فوجيء بلون جلدها وبمشيتها الغريبة. ساعد الضوء الضعيف، الذي كان يلف الصالة، هذا الجمهور على إخفاء دهشته تلك، وترك العنان لهذه القسوة لكي تنفلت من عقالها، لاسيما إذا كان هذا الجمهور واثقاً من أن أحدا لن يعاقبه على سخريته هذه. أدركتُ أيضاً أن هذا الضحك لم يكن سوى تعبير عن الهلع الذي ينتاب الإنسان الضعيف إزاء معبودة تبعث في نفسه الإحساس بتفاهة حياته.

خاطرت بإلقاء نظرة على جاري في المقعد. كان شارل مذهولاً بظهورها، وبدا كما لو أنه كان مشلولا. عيناه مشدوهتان وفمه منفرج، وكأن صاعقة نزلت عليه من عين ميدوزا. هذه الخادمة، على الرغم من زيها المضحك ودورها المحدود، وحركاتها الغريبة، وصوتها الخشن الذي فاجأ الصالة حينما ردت على الممثل الرئيسي، كانت هذه الخادمة فعلاً إلهة فاقت ببهائها وقامتها الطويلة، وتميزها الطبيعي ونظرتها الناضحة بالرغبة، أجمل نبيلات شارع سانت أنطوان. عندما خرجنا من المسرح، كان شارل ما يزال تحت تأثير السحر، فلم ينبس ببنت شفة. سرنا والصمت يلفنا تحت جنح الليل المُزَيّن بأضواء شارع بومارشيه الاحتفالية. وضعته بصورة استيائي، ودخلت معه في حديث مطنب يعبر عن قناعتي بضرورة إلغاء العبودية الذي، في سبيله، كان أغلب معارفنا يناضلون دون أن يكترث بهم أحد. لم تكن العبودية ما تزال تخيّم على الجزيرة التي قدمت منها جان فحسب، وإنما أيضاً على أولئك الذين أُعتقوا أو انحدروا من بعض الزيجات المختلطة التي تجعل منهم أحراراً منذ الولادة. كانوا ممنوعين من الإقامة في فرنسا، أو لم يكن يُسمح بذلك إلا للقليلين منهم بشكل

Twitter: @ketab_n

استثنائي. إن مجرد وجود جان في باريس، بنظر مجتمعنا الطيب، كان يشكل جريمة أو فعلاً غير مقبول على الإطلاق. بقي شارل صامتاً، ولا يعيرمماحكاتي النارية سوى أذن شاردة. بعد لحظة، توقف عن السير وقاطعني بينما كنت في منتصف مونولوجي الطويل، وصرفني بجفاء، ثم عاد أدراجه في اتجاه المسرح الذي غادرناه لتونا.

صبيحة اليوم التالي، بعث إلي برسالة يستعجلني فيها إلى ملاقاته في أحد المقاهي الواقع عند زاوية شارع فولتير وساحة الأوديون. وجدته في حالة من النشوة التي كان يصعب عليه احتواؤها.

حينما جلست قبالته بانتظار أن يؤتى إلي بقدح من النبيذ، قال لي: «صديقي، لابد من أن التقي هذه الآنسة بيرت، لأني عرفت أن حياتي تتعلق بها، بعد أن جافاني النوم طيلة ليلة أمس.»

كان شارل يومها في حالة من الجَذل العجيب، ومزاجه مهتزاً كما لو أنه تناول مخدراً.

- ألهذه الدرجة؟

لم يجبني إلا بابتسامة رائعة. فنبهته بقولي:

- إنها جميلة، لكن أنت يامن تسعى لأن تكون ذا شأن مثل فيكتور هيجو أو شكسبير، وعلى وشك أن ترث ثروة، ويلمع نجمك في المجتمع، هل يُعقل أن تسحرك امرأة تعرف باريس كلها أنها عاشت...

- حتى لو كانت اسوأ نساء الحانات، فلن يقلل من جمالها ومن إمكانية أن تستحق أن نحبها. لا آبه بـ «المجتمع» ولا بآراء الناس أو برأي أهلي. فأجبته:

- في هذه الحالة، سأطلب من تورناشون الذي يلتقي بها من وقت لآخر..

- إلا هذا! لاتحدث أحدا بهذا الأمر، سأجد طريقة للتعرف إليها

Twitter: @ketab_n

تجبرها على ألا تتمنع علي، وأن يكون لقاؤنا جميلاً ورومانسياً شبيهاً بالأسطورة.

- كيف ستتصرف؟

- ها هنا أحتاج إلى خدماتك. لقد قضيت الليل كله في وضع مخطط لن يفشل إذا قبلتَ مساعدتي على تنفيذه. وسأحتاج أيضاً إلى شخصين سكّيرين أقدم لهما بضعة قروش مقابل خدمة يقدمانها لي، إضافة إلى شاهد يقوم برواية المغامرة لمن حوله.

أخبرني شارل أنه، بعد مغادرتي له في الليلة الفائتة، قد عاد أدراجه إلى المسرح، ولم يجد عناء كبيراً في العثور على الباب الخفي المخصص لخروج الفنانين، وأنه لطى في الظلمة وانتظر طويلاً ظهور الجميلة جان. بعد فترة، رآها تدفع الباب بصحبة أحد الممثلين الذي سرعان ما افترقت عنه بعد محادثة قصيرة. وقال لي أن جمالها قد ازداد عما كان عليه وهي فوق خشبة المسرح حيث أبدينا إعجابنا بها، وبلباسها الذي ينم عن الذوق، وبإطلالتها المثيرة. ومما أثار دهشته أنها عادت لوحدها وسارت إلى أن بلغت مبنى أنيقاً في حي مونمارتر. لحق بها طيلة الطريق وراقبها عن بعد وهي تشق عتمة الأزقّة المريبة وكأنها الملكة لا تلوي على شيء.

صبيحة اليوم التالي، غافلها بودلير وسار في إثرها حتى بيتها، لكي يتأكد من سلوكها الطريق نفسه. أما أنا، فقد كنت أرتب له موعداً ليلياً مع صديقنا فافاسور، دون أن نخبره شيئاً عن مشروعنا. وقع خيارنا على فافاسور، لأنه، على الرغم من كونه ألطف الرفاق، فقد كان ثرثاراً لايستطيع الامساك بلسانه. لكن عيبه هذا كان مناسباً لخدمة مشروع بودلير بشكل رائع. أما بريفا Privat الذي كان على معرفة جيدة بعالم الفنانين والارستقراطيين، إضافة إلى معرفته بعالم قاع المدينة، فقد

Twitter: @ketab_n

أشركناه في الخطة ليشتري اثنين من السكّيرين. في اليوم التالي، أو الثالث على وجه الدقة، (لم أعد أتذكر تماماً، إذ كان لا بد من تهيئة المناخ المناسب)، احتسى كل من بودلير ولوفافاسور بضعة أقداح في ساعة متأخرة، في أحد المقاهي الواقعة على طريق عودة الفتاة. كان الطقس جيداً، على الرغم من بعض البرودة، فخرجا من المقهى في الساعة التي اتفقنا عليها، وبيد كل منهما قدحه وهما يهذران حول مشاريع أدبية شاركتهما الحديث فيها. كان الاثنان بانتظاري للتداول حول الموضوع. وصلت سريعاً بعد أن تبعتُ الجميلة منذ بداية شارع بومارشيه. حرص بودلير على أن يكون في غاية الأناقة. كان يرتدي سترة سوداء طويلة تصل إلى ما فوق الركبتين، طرفاها رفيعان يتدرجان في الاتساع ليصبحا على شكل القمع، ويضع ربطة عنق حريرية بنية اللون مشدودة فوق ياقة قميص أبيض فاقع، ويعتمر قبعة عالية ذات حواف مُبتَكَرة، وبيده اليمنى عصا طويلة مغزلية، مغطاة بجلد أسود. كان أشبه بأمير أجنبي حط رحاله للتوّ قادماً من صقعٍ بعيد نجهل أزياء الناس فيه. حينما حاذيتهما تقريباً، والعرق يبللني، أعربت عن كراهيتي لهذا المكان، كما أملى علي بودلير، واقترحت عليهما الانتقال لتدخين السيجار في مكان آخر، يفترض أني أعرفه، ليس بعيداً عن المكان الذي كانوا فيه. استحسن بودلير فكرته ووافقه عليها لوفافاسور. سرنا مسافة مائتي متر، حينما ارتسم أمامنا شبح جان، فعرفتها أنا وبودلير من مشيتها التي كانت غاية في التميّز. عندئذٍ انبثق رجلان يتفوهان ببعض البذاءات، وأحاطا بالآنسة. أحدهما أمسك بكتفها وهو ما يزال يثرثر بحدة، وألصقها بالجدار، بينما كان الآخر يحاول رفع تنورتها. توقفت أنا ولوفافاسور دون أن نفعل شيئاً، بينما تقدم بودلير بخطى هادئة نحو السكّيرين وقال لهما، كمن لا يخشى شيئاً، وبطريقة انكليزية british كعادته قال لهما:

Twitter: @ketab_n

- حسناً أيها السيدان، هل انتهيتما من الشرب في حانات الحي؟ ما يزال الوقت مبكّراً للتصرف بشكل غير حضاري، وفضلاً عن هذا فهي تصرفات الزعران.

استدار أحد السكيرين نحوه وهو يشتمه ويحثه على المضي في طريقه فوراً.

رد عليه بودلير بهدوء:

- لا يمكنني متابعة طريقي، أيها السيد العزيز، وأنا أرى سيدة جميلة مع هذه الصحبة الحقيرة.

تقدم الرجلان نحو بودلير بخطى مترددة. الرجل الذي لم يقم بأي شيء، كسر زجاجة الخمر الرديء التي كان يمسكها بيده اليمنى وهدده بوقاحة بإحدى قطعها. فما كان من بودلير إلا وأن رفع عصاه وكشف عن خنجر كان مخبأ فيها. لاذ السكيران بالفرار لا يلويان على شئ تحت جنح الليل. هدّأت جان من روعها، ورتبت تسريحتها بشكل آلي.

- شكراً أيها السيد، قالت بعد أن التقطت أنفاسها، لولاك لكنت عاجزة عن التخلص من هذين!

- المكان غير آمن في مثل هذا الوقت، أجاب بودلير. أتسمحين لي بمرافقتك وبأن أكون خفيراً لك؟

قبلت جان العرض واعتذر منا تحت أنظار لوفافاسور المشدوهة. الإخراج الذي وضعه بودلير، بتواطؤ سري من قبل بريفا وأنا، تم تنفيذه بشكل رائع لدرجة أن المركيز داروتي دوغرانبريه Daruty de Grandpré قد تحدث عنه لاحقاً في مجلة La plume مؤكداً أنه سمع هذه القصة من ليون ديشان[2] Léon Deschamps الذي سمعها بدوره من فم كلاديل نفسه.

---

[2] كاتب وروائي فرنسي (1864-1899).

Twitter: @ketab_n

ليون ديشام

خلال ما تبقى من الطريق الذي ينبغي قطعه للوصول إلى حيث سكن جان، غامر بودلير بالإمساك بيدها. عندها اجتاحه شعور ساخن ومضطرب. كان يود لو يقول لها أشياء كثيرة، لكن الكلام خانه. في اللحظة الحاسمة، انحبس الكلام في فمه، كما لو أن الانفعال قد ابتلعه. فقامت هي بالمبادرة:

- لم تعرفني على نفسك..

- بودلير. لكن يمكنك أن تنادي شارل. أو حتى كارلو، إذا رغبت في هذا.

- اسمي جان. أجابت، بكل بساطة.

تكاثفت عتمة الليل وران الصمت حولهما بغتة، ولم يعد يُسمع سوى أصوات عجلات العربات التي تجرها الخيول، وتحولت ضوضاء باريس إلى رجع ماض بعيد.

Twitter: @ketab_n

- ترى ماهي طبيعة عملك، يا شارل، التي تؤمن لك لباس الأغنياء هذا، وبمثل هذا الشكل المبتكر؟ يبدو أنك فنان.

- ليس لدي أي عمل. أنا عائد لتوي من رحلة طويلة، ولا أفكر بغير الاستمتاع بالحياة، وربما أقوم بالكتابة من وقت لآخر. لكني أعاني من كسل رهيب يضطرني إلى عدم إنجاز ما أبدأ فيه. لحسن الحظ سأتسلم ميراثاً من شأنه أن يقيني الحاجة طيلة حياتي.

بينما كان بودلير يسير إلى جانب جان ممسكاً بذراعها، لاحظ أنها غيرت طريقها المعتاد، لتطيل المسافة بالتأكيد. أخبرته عن عمرها الذي يكاد يبلغ الثامنة عشرة. وأنها كانت تريد أن تصبح ممثلة كبيرة، وأكدت أنها راقصة أيضاً. كانت تحلم بأن تصبح **لولا مونتيس** جديدة، رافضة أن ترى في الدم الأفريقي الذي يلون جسمها، حجر عثرة أمام قدرها. هنا، وبهذا الجمال الذي يحسدها الناس عليه ولا يفهمونه، لن تحقق الشهرة إلا في المعارض التي تعرض فيها الأجساد الغريبة، أو في بعض المواخير ذات السمعة الجيدة. لم يثنها بودلير عن عزمها، بل أخذ طموحاتها على محمل الجد، وأجاب بأنه طالما اهتم بالمسرح بشكل كبيروأنه قد أنهى كتابة قصة قصيرة، تشاء المصادفة الغريبة، أن تكون بطلتها ممثلة تعود في أصولها البعيدة إلى حيث المكان الذي جاءت منه جان. لكن جان لم تقل شيئاً. كانت لها سذاجة الأطفال وجدية تنطوي على الألم. لأن تجربة الحياة تركت فيها شحوب عجوز لم تعش شيئاً من حياتها.

- أخبرني، قالت فجأة، هذان السيدان اللذان أرادا الإساءة إلي، ألم يكونا من معارفك؟

- مالذي يدفعك إلى هذا القول؟

انطلقت حنجرتها بضحكة خفيفة وعبرت عن متعة متهكمة أشبه ما تكون بطيران عصفور الدوري المفاجئ.

Twitter: @ketab_n

– الحقيقة أني لم أكن أعرفهما، أجاب بودلير. لكن أحد أصدقائي دفع لهما لكي أتمكن من اللقاء بك. لذا لم أسألك عن اسمك ولا عن مهنتك، لأني كنت على معرفة بهذا كله.

توقفت جان فجأة عن السير. تجهم وجهها بشكل مرعب. نظرت إلى أعماق عيني شارل بعينيها السوداوين الواسعتين، حيث بدا وكأن جماراً صغيرة لا حصر لها تشتعل فيهما. أطلت عليه من فوق كعبي حذائها العاليين، وتوجهت إليه بقول الواثق:

– هنا سكني، ولن آوي إلى فراشي بدونك.

Twitter: @ketab_n

II

قضيا ليلة عفيفة، لم تشهد سوى مداعبات ملتهبة وأحاديث عن حياتيهما استمرت حتى بزوغ الفجر. بودلير، الذي تعرف على الحب في المواخير، لم يكن يتورع عن اصطحاب أي فتاة يلتقطها من فوق أحد الأرصفة ويصطحبها إلى سكنه، غير عابئ باستنكار الجيران، أضفى على جان حناناً صادقاً، أملاً بالنقاء الذي لم يشأ تعكيره في أمسية اللقاء تلك. كانت رغبته فيها مشتعلة، لكنه قرر أن يحتويها لكي تزداد اتقاداً وتوهجاً. قصَّ عليها هيامه بسارة، الملقبة بـ«لوشيت» [العرّافة]، وهي بغي يهودية

ساره لالوشيت

صغيرة أثار تدلهه العابر بها، صواعق غضب زوج أمه القاسي عليه، فأرسله، هذا العسكري، في رحلة نفي إلى أقاصي العالم عقاباً له على سلوكه الداعر. كما تحدث إليها عن أخيه ألفونس الذي يكن له الكراهية لأنه تخلى عنه؛ وعن والده الرائع الذي توفي وهو في عامه السادس، وكان

Twitter: @ketab_n

رساماً متواضعاً يصحبه إلى المتاحف ويبعث فيه تذوق الجمال وأفضل اللوحات. أما جان، فقد ترعرعت في جزر الأنتيل، وبقيت في كنف عائلتها حتى سن الثانية عشرة. وهي ثمرة زواج غير شرعي بين أحد مستثمري المزارع الأغنياء المدعو هيكتور ديفال ومن أم خلاسية، اسمها تيريز بروسبير، وحظيت بحنان والديها اللذان ربياها تربية متينة. فقد خصصا لها، خلال طفولتها الأولى، دروساً في الرقص والصولفيج. لكن الأمور ساءت بعد أن أودى السل الرئوي بحياة والدها، الذي كان يكبر والدتها سناً. لم تعد جان ووالدتها تملكان شروى نقير بعد أن حرمتا من ميراث الأب. في السنة التالية، تعرفت الأم على أحد متعهدي تجهيز السفن من مدينة نانت الفرنسية واتفقت معه على أن يقلهما إلى فرنسا. وهناك، وضعت الأم ابنتها جان في مدرسة داخلية مخصصة للفتيات. لكن الأم، التي لم تحتمل طقس منطقة بروتانيا، سقطت صريعة المرض ووافتها المنية بينما كانت جان تقترب من الرابعة عشرة من عمرها. وهنا توقف الرجل النانتي عن دفع أجرة المدرسة الداخلية، فوجدت جان نفسها في الشارع وحيدة بلا أهل ولا سكن. مضى على وجودها في نانت سنة وهي على هذا الحال، فعافت نفسها المدينة، فيممت شطر باريس علها تجرب حظها في مهنة التمثيل. وهناك انخرطت في أوساط الممثلين فأصبحت مألوفة لديها. لكن القدر شاء لها أن تلتقي رجلاً طيباً وغنياً، سبق له وأن عاش فترة طويلة في جزيرة موريس، فربط بينهما حب عفيف. كان جان سيباستيان أرملاً، فتزوج منها رغماً عن اعتراض أبنائه، موفراً لها بهذا حياة تقيها شر الفاقة. بعد الزواج، استأجر السيد لومير الشقة التي كانت تقطنها، ودفع لها مبلغاً من المال يغطي نفقاتها، كما دفع أجور الخادمة. لكن الموت عاجله بدوره أيضاً. تاركاً جان، للمرة الثانية لاتملك شروى نقير. إذ استولى ورثة السيد لومير على تركة أبيهم، وصمّوا آذانهم عن أي كلام يتعلق بتلك الخلاسية

Twitter: @ketab_n

التي كان يقال بأنها تعيش حياة سيئة. لكن جان عثرت على راعٍ لها، رفضت التصريح باسمه، وقعت معه عقوداً تقوم بموجبها بالرقص والتمثيل، أملاً منها في أن تتمكن ذات يوم من سد حاجاتها بنفسها. كانت جان تكره هذا الراعي، الذي قبلت مبادلته لطفاً بمالٍ، إذ لم تكن رخيصة ولا فاسقة، لكن جلَّ ما كانت تتمناه هو أن تعيش في ظل هذا المناخ المعادي الذي كانت تشعر بأنه يرفضها. وعد بودلير أن يساعدها للتخلص من راعيها، وأقسم بأن يرعاها ويبدد قلقها بعد أن يتسلم ثروته. وهنا التفا في عناق لطيف. حينما ضمها شارل إلى صدره، أحسّ بوطأة نهديها الكبيرين الصلبين وهما يضغطان على صدره، وبضجيج القلب الذي كان يختلج خلفهما. انتشر النهدُ أريجاً دافئاً في جسده كله، مخلخلاً عروقه وعضلاته ودماغه بشكل عجيب.

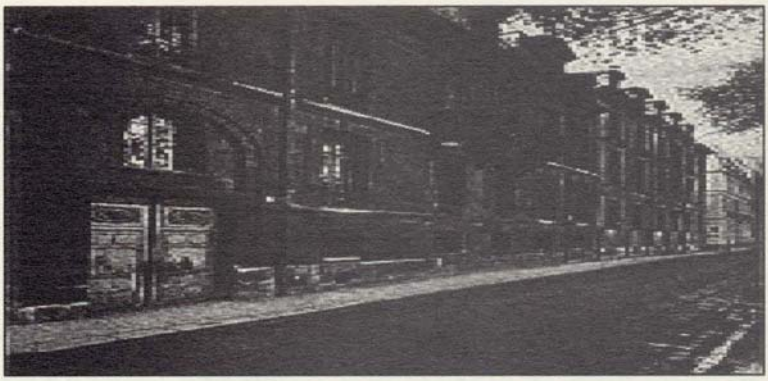

فندق بيمودان

السنة التالية كانت سنة حبهما بامتياز. لم يعيشا قط سعادة كتلك التي عاشاها خلال تلك الشهور بين البهرجة والجنون. تسلم شارل ميراثه بعد لقائه جان بفترة وجيزة، وسكن في جزيرة سان لوي، في إحدى روائع شقق فندق بيمودان في الرقم 17 من رصيف أنجو المطاول لنهر

Twitter: @ketab_n

السين. في الطابق السادس الأخير، كانت الشقة مكونة من غرفتين ومكتب للعمل، إضافة إلى استخدامها كغرفة نوم. قام بودلير بتجميل الشقة بفخفخة ودون حساب. فرشها بالسجاد العجمي وغطى جدرانها بقماش أحمر صارخ، واقتنى عدة لوحات لرسامين كان يحبهم: اثنتان لمونيه، وواحدة لدولاكروا، وستة رسوم لغيس Guys ومحفورتان لميريون، وأنفق غالياً لتجليد كتبه، وثبت عليها خاتمه وحفر فوقها الحرفين الأولين من اسمه وكنيته. أما دكان القبو فقد كان يشغله بائع تحف قديمة مما رتب ديوناً باهظة على بودلير، الذي كان يمر به تقريباً بشكل يومي ليشتري منه قطعة أثاث بسعر لم يكن يعجبه دائماً، فيتخلص منها فور اقتنائها. هذا كله كان يمثل تكلفة باهظة، ما عدا أجرة الشقة، إضافة إلى أنه أسكن جان في مسكن جميل على بعد خطوتين من فندقه في شارع فام صان تيت Femme-sans tête ووضع بتصرفها خادمة ومصاريف. كانت جان تأتي إلى فندق بيمودان كل يوم، وتترك مؤشرات على وجودها بطرق شتى. فكل من كان يزور بودلير في تلك الفترة، يلاحظ وجود باقة من نبات الهيليوتروب (رقيب الشمس) أو المسك الرومي، أو شال الكشمير المشبع بعطر البتشولي مرمياً بإهمال فوق الديوان، كعلامة على أنها كانت موجودة عنده قبل لحظات. انتشرت الأحاديث عن علاقتهما في باريس وكانت سبباً في شهرة بودلير، مع أنه لم ينشر أي شئ من كتاباته.

تيودور دو بانفيّ Banville، الذي أصدر قصائده في الديوان المسمى Cariatides[4] سمع للمرة الأولى باسمه من فم جان حينما كانت مدعوة ذات يوم بعد الظهر، مع بريفا وممثلون آخرون

---

[4] تمثال امرأة يتخذ بدلاً من العمود في مبنى.

Twitter: @ketab_n

تيودور دو بانفيّ

مشهورون في الوسط البوهيمي الفني، عند صديقة مشتركة. يومها، كانت جان ترتدي ثوباً فضفاضاً ذا زرقة غامقة، يزينه شريط مُذهّب، وتعتمر قبعة مخملية تبرز عينيها الفاحمتين. وقع بانفيّ في سحر المرأة بعد أن قدمها له بريفا على أنها صديقة بودلير الجديدة، زاعماً أنه أكبر شاعر في تلك الفترة. ألكساندر بريفا دانغليمون A. Privat D'angelmont، كان في تلك الفترة، أحد أقرب أصدقاء شارل. هذا الرجل ذي الدم المختلط، لأصله الذي يعود إلى الغوادلوب، كان فاتناً، يتزاحم كل من يلتقيه على كسب احترامه. كان طويلاً ونحيفاً، قده ميّاس، وشعره أجعد بطبيعته، عيناه عسليتان لامعتان، ولحيته سوداء اعتنى بقصها. كان من حيث سحنته، يمكن أن يحسبه المرء بوهيمياً، غير أنه كان أنيقاً متميزاً كالبريطانيين. ومن جانب آخر، كان معروفاً عنه أنه من أفضل فرسان فرنسا. كان بريفا محط إعجاب النساء، وكان الكتاب يثمنون صحبته. كان هو نفسه مؤلفاً، لكن للآخرين. وأقول، دون أن أكون متأكداً، أنه كان «زنجياً» (ليس بمعنى أنه كان أسود اللون، بل هي استعارة لكونه كان قلماً لكل من ألكساندر ديما وأوجين سو). تحدث بريفا دانغلمون عن بودلير، الذي تعرف إليه في السنة التي سبقت سفره إلى الهند، ممتدحاً عبقريته وذوقه الواثق في ما يتعلق بالرسم وبالأدب. الصديقة التي كنا مدعوين عندها، (أقصد جوزيفين ساباتييه، التي كانت تسمي نفسها أبولوني، والتي سيطلق عليها لاحقاً اسم «الرئيسة»)، أبدت اهتماماً قوياً ببودلير. استدارت نحو جان وسألتها:

– أنت، بما أنك عشيقته، أي نوع من الرجال هو؟

جان التي كانت ذات طبيعة متحفظة، وتفضل أن تقوم في الحياة

Twitter: @ketab_n

بأدوار المشاهدات وليس الممثلات، والتي كانت تبتعد دائماً عن المناقشات، احمرت وتلعثمت.

- إنه رجل... يتمتع حتماً بعبقرية كبيرة.

- لكن، خلال الحياة اليومية، كيف يتصرف؟ ألحت مضيفتنا.

- إنه.. يحب النظام.. يريد أن يكون كل شيء مرتباً. يقضي ساعات في الاهتمام بأمور مختلفة، كملابسه وشخصه.. السيد بودلير يحب الأشياء الجميلة. الأثاث الجميل، واللوحات الجميلة والكتب المجلدة بشكل جيد.. لكنه أيضاً يملك الكثير من أمارات اللطف من خلال تقديمه لي أغلى أدوات الزينة... السيد بودلير لايلتزم بالزمن، فقد يقضي عدة ليالي ساهراً ثم ينام اليوم التالي كله. يكتب طيلة أيام، قصائد يتلوها عليّ مرات ومرات. السيد بودلير يكتبها من أجلي، كما يقول لي في أغلب الأحيان. إنه يقرأ كثيراً. يقرأ كتباً باللغة الانكليزية يوصي عليها، بشكل خاص، مكتبة قريبة من نوتردام...

طرحت عليها أسئلة أخرى حول هذا «السيد بودلير». تجاسرت جان قليلاً وتحدثت عن عاداتها، وروت وقائع فيها بعض التفاصيل الشخصية. كان الجميع مصغياً إلى حديثها، ظناً منهم أنها حمقاء، لكنها كانت، بسذاجتها، ترسم سمات كاتب. لم تكن جان حمقاء، إنما خجولة وغير مهيأة للإجابة على هذا العدد من الأسئلة الصريحة والفضولية. ومع أنها كانت تحب الاختلاط بالفنانين (الحقيقة أنهم كانوا الوحيدين الذين يقبلونها كما هي)، إلا أنها كانت محقة في شدة حذرها منهم.. إذ كان معروفاً عن بريفا أنه أفّاق شهير، ينشر كل أنواع الإشاعات. وفي الوقت الذي كانت جان تصوغ عباراتها، كانت تندم على ما بدر منها، ظناً منها أنها تزعج شارل فيما لو نقلت إليه. اعتذر كل من بانفيّ وبريفا وغادرا معاً الشقة التي كانت تقع غير بعيدة عن حديقة لوكسمبور.. قررا أن يؤماها في

Twitter: @ketab_n

نزهة قصيرة. مازلت أرى الشاب تيودور دو بانفيّ بسترته السوداء الفضفاضة التي تصل حتى كعبيه، وطاقيته ذات الواقية المثبتة فوق رأسه وسيجارته الدائمة بين شفتيه. كان تجسيداً حقيقياً للبوهيمية الباريسية.

- بودلير هذا، قال بعد صمت، تمكن من قلب هذه الجميلة جان. لكن لوكان شاعراً كبيراً، كما تقول، ، كيف لم ينشر أي شيئ وهو في هذا العمر المتقدم؟ هل سببه الخجل أم الجبن؟

- قلت «العمر المتقدم»؟. قال بريفا وابتسامة ساخرة ترتسم على زاوية فمه. انظر أمامك، بشكل مستقيم.

- ماذا تعني؟

- ما ذا ترى أنت؟

- تقصد هذا الشاب الذي يتقدم نحونا مبتسماً؟ يبدو أنه يعرفك أهو أحد أصدقائك؟

- حسناً! هذا الشاب، صرخ بريفا، هو «السيد بودلير» الذي كانت جان تتحدث عنه قبل قليل.

تفاجأ بانفيّ الذي كان يتوقع أن يرى عجوزاً لا يقل عمره عن السبعين عاماً، كريها عنيفاً انقضى عهده، لكنه يكتشف شاباً دانديا أنيقاً، غير عادي الملبس والهيئة، يرتدي رداء أسوداً على مقاسه، وياقة فوقها ربطة عنق حمراء قانية، بالكاد في سن البلوغ، كما وجده يتمتع بجمال الآلهة. هكذا تعرف بانفيّ على بودلير من خلال جان، ومن خلالها أيضاً، وقف على عاداته العديدة الواعدة. عليك أن تتصور، أيها القارئ، أنه في تلك الفترة التي أتحدث عنها، هذا العالم الجميل، وأنا معه، كنا في عز الشباب. كنا جميعاً بين العشرين والخامسة والعشرين من عمرنا. بريفا Privat، الذي كان أكبرنا، كان له من العمر ثمانية وعشرين عاماً، أما بانفيّ فكان في التاسعة عشرة من عمره تقريباً. بعد فترة قليلة على هذا اللقاء،

Twitter: @ketab_n

عرّفنا بودلير على مذاق الحشيش الساحر، ومخدر الحشاشين الذي اكتشفناه عند مينار Ménard الذي كان في السابق زميل دراسة في ثانوية لوي لوغران Louis-le-grand. في الوقت الذي كان البورجوازيزن يتناولون طعام العشاء مع عائلاتهم، كان شارل يستقبل أصدقاءه في فندق بيمودان، في كنف هذا النادي غير الرسمي الذي عمدناه باسم «نادي الحشاشين». كنا نتناوب، ستة أشخاص، لنجتمع مرة واحدة في الشهر في الشقة الصغيرة حول هذا المرملاد العجيب، و في جو لا يقل غرابة عن بودلير الذي جعل غوتييه Gautier أحد ضيوفنا ذات مرة. هنا تعرف غوتييه على بودلير، ثم التقاه بعد عدة سنوات وظل صديقاً وفياً له.

لكن تيو [تيوفيل غوتييه] لم يكن الكاتب الوحيد المشهور الذي يتردد على نادي الحشاشين. فبالإضافة إلى المؤسسين، أي أنا ومينار وبواسار Boissard والكتور مورو، وديكام Ducamp بطبيعة الحال، وشامفلوري Champfleury، كان هناك جيرار دو نيرفال Gérad de Nerval، والرسام شينافار Chenavar d، والموسيق باربيرو Barbereau. أحياناً كانت تنضم إلينا آنسة أو اثنتين، منهن ماريكس الرائعة ذات الملابس الباذخة، والرئيسة أبولوني ساباتييه، ، وطبعاً جان التي كانت تتمدد صامتة وبشكل مثير للشهوة فوق ديوان، ضائعة خلف دخان سيجارتها . جاء بلزاك ذات مرة بدافع الفضول، لكنه في اللحظة الأخيرة، رفض أن يشترك في تناول قطعة الجيليه الخضراء الثمينة.. كان كل واحد منا يدفع سلفاً بين ثلاثة إلى خمسة فرنكات، وكان عليه ألا يأكل قبل أو حتى بعد، أو يمكنه تناول الطعام لاحقاً، حتى لايصاب بالصداع أو بحروق معدية. كان لكل واحد منا، بعد أن نجتمع حول طاولة الطعام، ملعقته مع فنجان من القهوة السوداء. كانت القواعد غير قابلة للنقاش، وتشكل كلها جزءاً لا يتجزأ من لحظات هذه العبادة. كانت لحظات من اللامبالاة والهجران والضحك الذي لا ينتهي

Twitter: @ketab_n

و«الاستعراضات» الهلوساتية، إلى أن يقوم بودلير بوضع الأفيون. وهو مخدر أكثر تخريباً للعقل والذي كان سبباً في انسحاب بعض الأعضاء الأوائل في الحلقة، حيث خافوا من أن يصيبهم خبل دائم، وينتهي بهم المطاف إلى أحد المصحات، لذلك توقفوا عن الانتماء إلى النادي. أما بودلير الذي كان لا يتورع عن ممارسة كل المبالغات الممكنة، و لايكترث بشيء أو بأحد، ولا حتى بأيامه التالية الصعبة، فقد قرر ألا يقوم بأي عمل على الإطلاق. ومع هذا فقد كان يكتب كثيراً. كان يحتقر الشهرة ولا يهتم بالتكريم أوبالغطرسة، لذا كان يوزع القصائد التي يكتبها، وهي قصائد رائعة، على أصدقائه ويشجعهم على أن يدّعوا تأليفها. نشر بريفا بعضاً منها باسمه، وكذلك أنا ولوفافاسور. و كنت أعمل مع بودلير على مشروع مسرحية لم نتمكن أبداً من إنهائها. في المحصلة، كتب عشرين قصيدة ستتحول لاحقاً، دون أن تحتاج إلى أي تعديل حتى الفاصلة، إلى عشرين زهرة من أزهار الشر.

كان بودلير يقضي وقت فراغه متسكعاً مع جان، أو متردداً على أصدقائه الرسامين حيث لا يبخل بملاحظاته على كل من يهتم بالإصغاء إليه فيستلهمها في فنه. وكان واسع المعرفة بحالات أصحابه النفسية، فيكيّف رأيه وفقاً لذكاء كل منهم.. بينما كان في طريقه إلى استلام لوحة له رسمها إميل دوروا المقيم في **البرج الفضي** (الذي توفي فور انتهائه منها)، التقيته ذات صباح، صحبة فيليكس تورناشون الملقب بـ نادار Nadar، عشيق جان السابق، فعرفت أحدهما على الآخر، فأصبحا صديقين، ورافقنا شارل إلى جلسة الرسم. لكنه، في المساء تشاجر مع عشيقته بسبب نادار هذا نفسه، فنعتها بالعاهرة وظل يوبخها ويلومها إلى أن انهارت بكاءً. لكن سرعان ما استولى عليه الندم، فراح يضمها بقوة إلى صدره ويمطرها بالقبلات مداعباً جُمّتها السوداء، كأب لهذه الطفلة، كما كان يدعوها

Twitter: @ketab_n

حينما تفيض عليه مثل هذه اللحظات من التحنان. هذا الشجار الأول، والذي لن يكون الآخير، انتهى إلى السرير ضمّاً شهوانياً دام الليل بطوله وقسطاً كبيراً من صبيحة اليوم التالي. أدركت جان مدى شدةالغيرة التي يمكن أن تتملك صاحبها على شكل نوبة لاترحم، كما أدرك العاشق ميل معشوقته إلى الإغراق في الصمت. كان، أحياناً يتظاهر بالعمل فيكرر قراءة قصيدة أعاد كتابتها ألف مرة قبل أن يتخلى عنها، بينما كان يراقبها سادرة في أحلام غامضة، فينهض من مكتبه ليسألها:

- فيمَ تفكر حبيبتي يا ترى؟

- لاشيء، سيد بودلير.

فيلحّ في السؤال:

- بوحي لي بسرك

- لقد عاد بي الفكر إلى طفولتي، إلى الرمل الناعم الذي كان يحتضن قدميّ العاريتين، إلى الأشجار الكثيرة و النباتات الكثيفة وإلى تلك الأشياء التي أفتقدها وأحن إليها أحياناً.

فيعلق بودلير:

- هذا ما أراه، حينما أضيع في عينيك السوداوين: أرى فيك مناخ جزيرتك، والنخيل والرمل، وصياح الغاق.

أحياناً، كان يطلب إليها أن تتعرّى فوق الكنبة أو في فوضى السرير، فيطيل التأمل فيها كرسام يدرس شبكة عضلاتها، واتساق نهديها الجميلين، وبطنها الذي يبدو وكأنه مرسوم من قبل أحد المتخصصين بالطبيعة، أو نحته أحد نحاتي مدرسة الكوانتروسنتو من مادة بركانية. وفي المساء كانا يعيشا حياة باذخة، فيرتادا المسارح أو المطاعم، ، ويتسليا بنظرات الاستنكار والفضول التي كان الآخرون يرمقونهما بها في كل مكان يذهبان إليه. كانا ثنائياً مثيرا للأخلاق الحميدة، ولا يقوى أي منهما على

Twitter: @ketab_n

العيش دون الآخر وإلا قتله الإحساس بالغربة، إن لم يكن صحبة الآخرين الناس. وهو شعور لم تكن جان تدركه، أما هو فكان يعرفه ويستمتع به.

هذا ما عرفته عن غرامياتهما في تلك السنة التي انقضت مع خريف 1844 دون أن يعكر صفوها أي شيء. لكن بودلير غرق في الديون وبدأت المشاكل التي ستكر سبحتها بلا توقف، وستحمل معها العاشقين إلى أشد أنواع الهاويات كتامة، إلى أحشاء الجحيم الأرضي، لأنهما لم يكونا يؤمنان بالجحيم الآخر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

iii

في صيف 1844، تناهى صدى مغامرات شارل إلى آذان الزوجين أوبيك. جن جنون الجنرال بعد معرفته بأن ابن زوجته قد استهلك نسبة كبيرة من ميراثه خلال أقل من عامين تقريباً. وحينما علمت الأم بعلاقة ابنها مع زنجية أو خلاسية تكلفه نفقات ضخمة، والأنكى أنها كانت ممثلة، أي واحدة من بنات الهوى، أو على الأقل، أنها تعيش حياة سيئة، وقعت السيدة أوبيك طريحة الفراش فلازمته عدة أيام. بلغ الحزن أشده لدى أفراد العائلة فاجتمعت، بحضور ألفونس أيضاً، أخ شارل. تمخض الاجتماع عن فرض الوصاية القانونية على شارل، بعد أن بلغت ديونه رقماً مذهلاً يقرب من خمسة عشر ألف فرنك. كتبت السيدة أوبيك إلى ابنها، تطلب منه فيها وضع حد لتجاوزاته وقطع هذه العلاقة غير الطبيعية والمهينة. وكلف نرسيس ديزيريه أنسيل، القاطن في ضاحية نويي، بإدارة شؤون ميراث هذا الشاب الفاسد. كان الرجل شهماً، ذا تفكير ديكارتي لا علاقة له بالفن أو بالأدب. أحس بودلير بإهانة كبيرة جراء هذا التصرف. فأرسل إلى والدته رسائل تنضح سماً وغضباً، بل شتمها وخاطبها كما يخاطب الغرباء. لكنه راجع نفسه وحاول التودد إليها، لدرجة التوسل، مثيراً فيها عاطفة الأمومة، راجياً إياها التراجع عن مسألة الوصاية المخجلة هذه. الأمر الذي نجم عنه إفراط في السوداوية،

Twitter: @ketab_n

وانبجاس عقدة الذنب التي كانت تلازمه منذ الطفولة، والخجل المفرط مما كان عليه، وانتابته نوبات رهيبة من الغضب الذي دفعت جان ومن حولها ثمنه عدة مرات. بعدها كتب إلى أمه، متبجحاً بأنه يجمع في عبقريته كلاً من فيكتور هيجو وألفرد دوفينيي مجتمعين. ولم يتورع عن إلقاء اللوم عليها لأنها لم تؤمن بقدراته، لكن بلا نتيجة. وأبلغه السيد أوبيك، الذي لم يعد بودليريتحدث إليه، أبلغه ببرود، أنه من الأفضل له أن يعمل ويكسب نقوده بنفسه، داعياً إياه إلى مقابلة أنسيل للاتفاق معه على طبيعة الوصاية، بعد أن يتم تحديد مقدار الدفعة التي سيوافق الوكيل القانوني على تسليمها له بشكل منتظم .

سيق بودلير أمام المحكمة المدنية من قبل أهله، وأودع السجن طيلة ثلاث ليال، بسبب تهربه من الدعوة إلى الخدمة العسكرية، وبما أن الإفراج عنه كان منوطاً بإرادة الزوجين أوبيك، فلم يجد أمامه سوى الرضوخ. ذرف الدموع، وحدد موعداً لمقابلة الوكيل القانوني. لكنه على الرغم من كل شيئ وكل الظروف لم يقبل الافتراق عن جان، فلم تجد معه كل النصائح ولم يستمع إلى أي قول يزعزع موقفه الثابت من جان التي لم تعد قادرة على تحمل رؤيته على هذا الحال، فاستولى عليها الضنى وذرفت دموع الغضب، ثم نصحته بأن يتركها ويغير سلوكه إزاء عائلته. لكنه صرخ قائلاً:

أبداً! سأقبل كل شيء منهم باستثناء التخلي عنك، هل تسمعي! أبداً!

ذهب بودلير إلى نويي، حيث استقبله نرسيس أنسيل، وهو رب عائلة في الأربعين من العمر، ووضع أمامه قائمة مفصلة بمصاريفه، مدعياً أن الضرورة الأولى تقتضي، في الوقت الحاضر، تسديد ديونه دون أن يمس شيئاً من رأس المال، وحدد له راتباً مقداره مائتي فرنك شهرياً، وأضاف:

Twitter: @ketab_n

- هذا كل ما يمكنني القبول به في الوقت الحاضر. وأذكرك بأنك ابتلعت، خلال عامين، أربعة وأربعين ألف فرنكاً. ومع هذا، إذا استقامت الحسابات، وبدأت بتسديد الديون... فقاطعه بودلير قائلاً:

ضاحية نويّي (ق 19)

- إذا فهمت ما تقول جيداً، فلن أقبض النقود اللازمة لدفع إيجار سكني.

- يبدو أنك تدفع إيجارين. يمكنك الاستغناء عن أحدهما.

- ليكن، ماذا أفعل إذا لم يكن لدي ما يمكنني من دفع هذا الإيجار الذي تتحدث عنه!

- ماالذي يمكنك القيام به؟ سأله الوكيل القانوني بلطف.

- ماذا تقصد؟

- جد لنفسك عملاً فوراً. ما الذي يمكنك القيام به؟

- لاشيء! وهنا المشكلة! فليس عندي أي ميل إلى العمل. أزعم أنني أكتب، لكنه عمل بطئ، لايمكنه أن يؤمن لي دخلاً منتظماً..

Twitter: @ketab_n

- هذه هي المشكلة دائماً، قال الوكيل القانوني. زوج أمك قال لي بأنك تتمتع بموهبة أكيدة في هذا المجال، وأنك تفهم شؤون الرسم. اجعل من نفسك صحافياً!

- أكره هذا العمل.

- كما تحب، لكن لابد من تسديد هذه الديون، وإلا الإفلاس المحتم، وعندها لن أتمكن من مساعدتك في أي شيء.

نهض بودلير واتجه نحو الباب بخطى مترنحة.

- الحقيقة، أضاف الوكيل القانوني، رافعاً صوته وهو يهم بالخروج، لاتنس أنه عليك الانتقال من سكنك!

استقل بودلير عربة في ذلك الصباح الصيفيّ الماطر. كان الرذاذ الحاد والقذر يغطي ضواحي باريس، وغرق في حالة من القرف الكبير. كان شديد الغيظ من هذا الرجل التافه الذي يملي عليه حياته وهو جالس في مقعده بثقة بورجوازية.

- أنزلني هنا! صاح بودلير بالحوذي.

نزل في شارع مونورغوي Montorgueil، وهام على وجهه، يتنازعه عطش البحث عن شيء يروي رغبته ويغرق فيه غيظه وقرفه. شرع يبحث عن بريفا، فوجده دون عناء كبير في أحد مقاهي الحي اللاتيني حيث كان معتاداً على تناول الغداء. كان بريفا بمفرده، جالساً إلى طاولة كبيرة من الخشب فوقها صحن طعام أُتي على نصفه، وقدح من النبيذ.

- هل تريد تناول الغداء؟ سأل بودلير بعد أن جلس قبالته.

- لا، شكراً لست جائعا سأكتفي ببضعة أقداح من النبيذ.

جيء له بإبريق من النبيذ. فكرع قدحين أو ثلاثة.

- الحقيقة، يبدو أنك لست على ما يرام. مالذي دهاك؟ قال بريفا.

- لا، لا.. على العكس، كل شئ على ما يرام.

Twitter: @ketab_n

بريفا دانغيلمون

– قرأت القصيدة التي أرسلتها إلي. لكني أصدقك القول، بأني أفضل عليها، تلك التي سبق وأن قرأتها لي. فأنت تبرع في الكتابة عن الحنين إلى السفر والأوصاف الغريبة. لكن هذه، ذات أسلوب غريب.. ثم ما علاقة سمك القرش requin هذا هنا؟

– الكلمة مشتقة حتماً من اللغة اللاتينية من requiem.

– آه...

– لكني لم أكن أبحث عنك للنقاش في الشعر، قال بودلير، وهو يرمي هذا الغوادلوبي بنظرة ثاقبة تلمع رهبة السواد فيها، ونيران الألم. هل لديك ما تفعله بعد ظهر هذا اليوم؟

– والله، أجاب بريفا، لدي عمل علي أن أنجزه، لكن يمكن أن يؤجل ليوم أو يومين.

– هل تنوي محاولة استكمال يومك هذا في أحد أماكن الضياع؟

Twitter: @ketab_n

- ليس تماماً، لا...

- أسألك، أعاد بودلير سؤاله، كما لو أنه لم يسمع الجواب، بحق صداقتنا، رافقني في هذه الرحلة، وألح عليك في هذا، لأنها مسألة حياة أو موت.

- موت من هذا الذي تتحدث عنه؟

- موتي، إذا لم ترافقني! لا أستطيع توقع ما يمكن أن يصيبني..

- في هذه الحال.. لا أريد أن أُثقل ضميري بموتك.

- إذاً، هيا بنا، قال بودلير وهو ينهض من مكانه.

أحد شوارع الحي اللاتيني في القرن التاسع عشر

دخل الرجلان أزقّة موحلةً، وتجاوزا شارع سان جاك ثم شارع هارب Harpe صعوداً باتجاه شارع سانت جنفييف. توقف المطر واشتدت برودة الجو، وتصاعد بخار جهنمي من الحجارة المبلطة بها شوارع العاصمة. كانت الشوارع مكتظة بالعابرين وبكل أنواع النشاطات التي حولت الحيّ إلى سجن صاخب مزدحم. أحدثكم عن فترة لم يكن فيها بولفار سان ميشيل وبولفار سان جيرمان قد وجدا بعد. هذا المكان الواقع إلى الضفة اليسرى لنهر السين، كان ما يزال قذراً موحلاً تتجمع فيه رذائل باريس وبؤسها.

Twitter: @ketab_n

بعد أن تسكعا وتلوثت ملابسهما، دخلا ماخوراً يقع في طرف المدينة، غير بعيد عن منطقة ليغوبلان Les Goblins.

من حي ليه غوبلان في باريس

أمضيا بقية يومهما والليل بطوله في الماخور وهما يبشمان خلاصة الحشيش، يدخنان ويواقعان ما يعجبهما من بنات الهوى. بقيا في الماخور يوماً آخر أيضاً، ولم يخرجا منه إلا مساءً بصحبة اثنتين من بنات الهوى، للذهاب إلى حفل راقص. اختارهما بودلير سمراوين، إحداهما شديدة النحافة و شاحبة لكن وجهها كان رائعاً تلمع فيه عينان خضراوان. أما الأخرى فسمينة تشتهيها النفس، ويضحكها أي حديث، لاسيما حينما لايكون هناك داع للضحك. في صبيحة اليوم التالي، عادا للهيمان على وجهيهما، عيونهما زائغة تبدو عليها إمارات الانهاك والشبع. اجتازا سوقاً صغيرة تنبعث منها روائح مختلفة تبعث في نفسيهما الغثيان. كان باعة الخضار والفواكه يلقون خطبهم المبتذلة بصوت عال. رائحة المسمكة الرطبة كانت تذكرهما بتلك الروائح المنبعثة من بين أفخاذ بعض فتيات الماخور. كان في المنظر شيئ غير واقعي لم يشعرا بالارتياح إليه، وبقية نشوة كانت تدور في رأس كل منهما.

Twitter: @ketab_n

– ماذا فعلت بجان؟ سأل بريفا. هذا السؤال الذي لم يكن بودلير ينتظره، جاء كخنجر من جليد اخترق قلبه. توقف فجأة واعتلى وجهه الشحوب. ثم تمالك نفسه وتابع سيره. أفضى سير الصديقين إلى شارع مسدود، حيث فتيات يرتدين مزق الثياب، نظراتهن هامدة، يهمسن عبارات قذرة لكل عابر سبيل.

– سأتابع طريقي. هلا تبعتني؟

– لقد تعبت، قال بريفا متنهداً. وليست لي إمكانياتك المالية. هل لديك فكرة عن المبلغ الضخم الذي هدرناه؟

مرا بالقرب من إحدى بنات الشارع التي نادت على بودلير بفظاظة بصوت أجش رخيم:

– هلا أتيت أيها الناعم؟ ما رأيك لو اشتغلت هذا؟.

بينما كانت تقول كلامها رفعت ما يشبه التنورة كاشفة عن فرج رائع مقوّس، ومؤخرة مستديرة، لا هي بالضخمة ولا بالنحيفة. أما وجهها فكان مريعاً: شعرأسمر فاتح وشاحب، بلا شفتين، جلد مجدر وأنف طويل. ووجنتاها كالأخدودين، فتبدو بلا عينين، لأنهما كانتا غائرتين في ثقبين أسودين. كانت البغي فخورة بما أتته من تصرف خبيث، لاخجل فيه، ففتحت فماً واسعاً، ظهر فيه ما يشبه الابتسامة، وند عن نقصٍ في عشرات الأسنان. كان بودلير مبهوراً، وهو يتابع طريقه، دون أن تغيب البغي عن ناظريه.

– أعتقد بأني سأتركك هنا. قال بودلير لبريفا.

– آمل ألا تتركني وتبقى مع هذه الصعلوكة!

لكن بودلير عاد على عقبيه، واتجه بخطى واثقة نحو تلك المخلوقة الهتماء.

صاح بريفا، وهو في الطرف الآخر من الزقاق:

Twitter: @ketab_n

- انتبه لهذه الشوارع، وحذار من تلك البنات! فالموت يحوم حولهن!..

لم يشأ شارل أن يفهم. أمسك بذراعي البنت، وتواريا معاً عند زاوية الشارع.

كانت جان تحضر التدريبات على مسرحيتها الجديدة «روز وكولاس» (كانت تؤدي فيها دور الكونتيسة)، وهو الدور الذي لعبته قبل سنوات، وتساءلت عن سبب غياب شارل. قضت ليلها في الرعب والخدر، ترتعد فرائصها كلما سمعت وقع خطو فوق السلم، ظناً منها أنه هو. بعد غياب أسبوع انقطعت خلاله أخباره، بدأ القلق ينتابها بجدية. منذ لقائهما، لم تنم ليلة واحدة بدونه. ترددت كثيراً قبل أن تقوم بزيارتي. اختارتني لأني كنت الوحيد من بين أصدقاء بودلير الذي يمكن أن أتحملها. كانت تنتظرني عند مدخل الفندق الذي أقيم فيه، وشعرها منكوش ونظرتها كنظرة حيوان مطارد.

- هل تعرف أين مكان وجوده؟ سألتني فجأة.

- بودلير؟ لم أره منذ أسابيع.

- هل لك أن تدلني على من يعرف؟

- مينار وبانفيّ رأياه أحياناً، لكن كان هذا قبل مدة. ربما بريفا.. منذ متى انقطعت أخباره عنك؟

- منذ أسبوع. هل لك أن تستعلم وتخبرني عما يمكن أن تقع عليه؟

- سأبذل جهدي.

ودعتني وابتعدت تمشي خبباً. تبعتها بنظراتي خلال لحظة، معجباً بمؤخرتها الرائعة وهي تتهادى على إيقاع هذه المشية اللامبالية، وكان القلق يستعجلها على غير عادتها. كان ذلك يوم سبت، لم يكن لديها تدريب في ذلك اليوم. عادت جان إلى بيتها بعد أن أعيتها الحيل لا تعرف ما تفعله. ألقت نظرة على الساعة الجدارية التي كانت تشير إلى الثانية وعشر دقائق، فقررت

Twitter: @ketab_n

الذهاب إلى فندق بيمودان. كان بودلير قد سمح لها بأن تزوره في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار ما عدا – الفترة بين الساعة الثانية والرابعة بعد الظهر حصراً، وهي الفترة التي يعمل خلالها وبنفسه يخلو. وبالتالي فقد تحدت هذا المحظور وصعدت درجات سلم البناء خائفة من ألا يكون قد عاد بعد، لكنها كانت تخشى أيضاً أن يكون هناك وأن يزعجه قدومها في تلك الساعة، لأنها كانت قد لاحظت أن نوبات غضبه يمكن أن تكون رهيبة.

ترددت لحظة أمام الباب، ثم قررت أن تقرعه. سمعت وقع خطوات في الشقة، وانفتح الاب أمامها. وظهر بودلير. كانت ملابسه المتسخة بلا هندام، وكما لو أنه قضى ليلته فوق الرصيف. لكن لم يبد عليه الانزعاج، بل على العكس.

– كنت هنا؟ صرخت. كاد القلق أن يقتلني..

شدها نحوه وعانقها بشغف. ثم أغلق الباب بركلة من قدمه بعد أن دخلت. طرحت جان بعض الأسئلة بخجل، لكن شارل كان يهرب من الإجابة، غير راغب في تبرير غيابه. لم تلح عليه، وكانت شديدة السرور لرؤيته بصحة جيدة. قُرع الباب. ذهب شارل لفتحه. كان ذلك أروندیل، صاحب محل التحف القديمة في قبو الفندق، كانت عينه ذابلة وحاجبه مقطباً. التاجر كان ما يزال غاضباً بسبب قضية كتاب *mystères galans*. الذي كتبه بودلير مع مجموعة من المؤلفين

– سيد أروندیل. قال بودلير دون أن يدعوه للدخول.

– جئت لرؤيتك بخصوص الموضوع الذي تدين لي به.

– من أجل الأثاث، قلت لك...

– لا، الأمر لا يتعلق بأثاث، بل بالمبلغ الكبير الذي اقترضته مني قبل ستة أشهر، ويومها قلت لي بأنك ستسدده بعد شهر، مما يعني أنني أنتظر أن تسدد لي نقودي منذ خمسة أشهر.

Twitter: @ketab_n

- أنت محق! قال بودلير. انتظر لحظة من فضلك.

عثر على ورقة في خزانة المدخل عليها اسم وعنوان، سلمها إلى التاجر قائلاً.

- خذ، إنه عنوان المحامي آنسيل، الكاتب بالعدل في نوييّ. إذهب إليه. إنه مكلف بشؤوني المالية، وما أن تطلب منه هذا المبلغ فسيدفعه لك فوراً.

كان أروندیل مضطرباً، إذ كان ينتظر أوراقاً نقدية وليس هذه الورقة التي أخذها وتوارى دون أن يحيي مدينه.

- كيف سار أمر لقائك مع الوكيل القانوني؟ سألت جان بعد أن أصبحا وحيدين.

- بشكل جيد ياعزيزتي، أجاب وهو يعود نحوها. أنا واثق بأن كل شئ سيسير على خير ما يرام.

من الحي اللاتيني (ق19)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٧

لم تسر الأمور على ما يرام، بل ازدادت تدهوراً.

بطبيعة الحال، رفض المحامي أنسيل تسديد المال لأروندیل. فطالت لائحة الديون، إضافة إلى أن بودلير لم يدفع الإيجار منذ شهرين، مما اضطره إلى مغادرة الشقة، بعد أن باع الأثاث بربع قيمته لتاجر التحف الذي اشتراها منه، وطلب من أمه الاحتفاظ بما تبقى منها. أقام بودلير في الفندق منتظراً إمكانية أن تصله بعض العوائد المالية. كان بمقدوره أن يسكن عند جان، لكنه خشي من الحياة المشتركة وفقدان استقلاله العزيز عليه. لكن في الفندق أيضاً، انتهى به الأمر إلى مراكمة الديون. وعملاً بنصيحة الوكيل القانوني، حاول أن يبيع بعض المقالات النقدية إلى إحدى المجلات وتكوين مكانة له في هذا المجال، الذي لم يكن أكثر من عمل متواضع يؤمن له لقمة الخبز. في بداية شهر أيلول، لم يكن يملك قرشاً واحداً وبانتظار أن يقبض راتبه الشهري الذي وعده به أنسيل، غادر الفندق واضطر إلى السكن مع جان. لم تمر فترة طويلة حتى بدأت تظهر عليه أولى الأعراض على شكل خراج في أعلى عضوه التناسلي على مستوى القلفة. في البداية لم يقلقه الأمر، وكان يراقبه بفضول وهو يكبردون أن يدرك ماهيته. لكن القرحة تصلبت بعد بضعة أيام، ومع أنها لم تكن مؤلمة، إلا أن بودلير بدأ يشعر بتشكل عقدة لمفاوية حول المنطقة المصابة. أراد ثقبها، لكن ما أن لمسها حتى رأى سائلاً أبيض يسيل منها. فتملكه قلق شديد. فتوقف عن ممارسة أية علاقة مع جان بذريعة ما يعانيه

Twitter: @ketab_n

من كآبة ومن انحطاط جسدي دائم. في اليوم التالي، ذهب لاستشارة طبيب مختص بالأمراض الزهرية. كان الدكتور أورزكو، وهو رجل قصير القامة أشيب الشعر ملتح ويضع نظارة مستديرة، كان يصغي إلى بودلير وهو يحدثه عن سبب زيارته.

- أفهمك، قال الطبيب، بنبرة لم تكن مخيفة. اخلع بنطلونك وتمدد.

نفذ بودلير ما طلبه منه الطبيب و قلبه يخفق بسرعة هائلة، إلا أنه كان مطمئناً لصوت الطبيب المهدئ.

نظر الرجل إلى القرحة التي كان قطرها ثلاثة سنتيمترات، وتحسسها بحذر، دون أن يبدو على وجهه أي انفعال. غاب في الغرفة الخلفية، ثم عاد وبيده قارورة من الزئبق. دهن به القرحة بحذر شديد وصمت رهيب.

- إذا؟. سأل المريض في نهاية المطاف.

- لم يخنك حدسك ياسيد: إنها فعلاً قرحة.

- وما أدراك عن حدسي؟ قرحة، أهذا كل شئ؟

بدا على الطبيب أنه لم يحب الطريقة التي تحدث بها الشاب. وكما لو أنه أراد أن يريه وقاحته، رمقه بنظرة عميقة من خلف نظارته، وأعلن بكل جفاف:

- أسوأ أنواع القرحات ياصديقي.

- الأسوأ..؟

- إنها قرحة السيفليس.

ما أن وجد بودلير نفسه في الشارع، حتى أمسك ببطنه بكلتا يديه وانهار على ركبتيه، فتقيأ كل ما كان قد تناوله مؤخرا من وجبات متواضعة. بعض المارة كانوا ينظرون إليه بدافع الفضول أوالتسلية، لكن أغلبهم لم يكترث به. رأى شارل أنه يقترب من نهاية العالم، فتمنى لو يختطفه الموت.

Twitter: @ketab_n

نهض بصعوبة، ومشى في الشوارع أشبه بالشبح، وعيناه في العدم. بعد ساعة، على الأقل، من هذا التسكع العشوائي، فكر في أن يعود لرؤية الطبيب. كانت الأسئلة تتزاحم في رأسه، فلا يجد جواباً على أي منها. كم سيعيش، متى سيصاب بالشلل والجنون؟ أليس هناك من هدنة؟كان يمكن أن يقسم بأنه سمع بمثل هذه الظاهرة. هل كانت العدوى فورية لامحيد عنها؟ هل حكم عليه بألا يمارس الجنس أبدا؟

لكن الخجل اعتراه، فأجل زيارة الطبيب ليوم آخر. كان محتاجا إلى من يفضي إليه بسره وهو ينوء تحت هذا العبء الثقيل، إلا أنه لم يعرف إلى من يتوجه. قد يتفهم لوفافاسور الأمر. ومن المؤكد أن بانفي سينهمر بالبكاء. لكن عينيه النديتين والمفعمتين بالإعجاب الآن، كانتا تغمرانه بالهلع. نادار؟ بريفا؟ أبداً، وإلا عرفت باريس الخبر صبيحة اليوم التالي. قرر بودلير أن تكون أمه أول من يفاتحها بالموضوع، لقناعته التامة بأن ما أصابه هو نتيجة خطأها .. أرادها أن تحس بالذنب. كان الطقس جميلاً، والحرارة مثالية. على الرغم من شمس الخريف، كانت أطرافه متجمدة. وتنبه إلى أنه كان يرتجف. ماذا عن جان؟ هل من الواجب أن يخبرها بمصابه؟ عندها خطرت بباله فكرة السبب: من أين جاءه هذا السم؟ من أصابه بهذا الجرح القاتل؟ فكر أولاً بجان، وتمنى لو يقتلها. ثم، وكالحلم البعيد، بعد أن طفا على سطح الحفرة التي وضعه الحلم فيها، بدت له ابتسامة تلك البغي الهتماء.

كانت الشقة فارغة، بعد أن ذهبت جان إلى المسرح، مما جعله يحس بالارتياح. تأمل الأثاث والسرير و الأوراق المكومة فوق المكتب: قصائد المجموعة والدراسات التي لم يكملها حول الفن وبدايات الروايات المجهضة. نظر إلى هذا كله خلال لحظة. غالبه حنين اللحظة الحاضرة، ثم استولى عليه الحقد والضغينة. إذا كان لا بد من الموت، فلن يموت وحده. سيذهب

Twitter: @ketab_n

باحثاً عن تلك البغي، وأقسم بأن يعثر عليها وأن يضع حداً لوجودها البائس. قُرع الباب. كانت زوج البواب.

- لك رسالة، قيل لي أن أسلمها لك شخصياً. وبما أنني رأيتك تصعد السلم، فقد سمحت لنفسي بأن أحملهاإليك...

تناول بودلير الرسالة وأغلق الباب. فتحها مسرعاً، ظناً منه أنها تحمل علاجاً ما لألمه. كانت الرسالة من مجلة *corsaire-Satan*، التي سبق وأن أرسل إليها دراسة نقدية فنية، رأى الناشر أنها رائعة، ويقترح عليه زيارته ليناقش معه موضوع نشر المقالة وأجرها. بينما كان يضع الرسالة فوق الطاولة، انتابه شعور عجيب بأن الحياة مستمرة، على الرغم من تعاسته. بعدها خرج مرة ثانية، تجاوز نهر السين وطاف أزقة الحي اللاتيني والعرق يتصبب منه. بحث عن تلك الحقيرة التي كانت قد غرقت حالتها الدقيقة في هالة ذكرياته المشوشة. بعد عدة ساعات، شاءت المصادفة أن يقع عليها. وتعرف على بعض تلك الفتيات اللواتي كنّ موجودات في المكان نفسه. كانت كل واحدة منهن أبشع من الأخرى. لكن تلك التي كان يبحث عنها، لم تكن بينهن، فلعن نفسه لأنه لم يسألها عن اسمها في ذلك اليوم المشؤوم. لكن لو كان قد عرفه لنسيه. انتظر، ثم دار حول مجموعة البيوت وانتظر مرة أخرى، وهو يسمع شتائم البغايا الغليظة المدوية.

كان الليل قد أرخى سدوله منذ زمن طويل حينما عاد إلى بيت جان. ما أن نزع عنه ملابسه وتمدد فوق السرير، حتى ملأ رأسه بكل ما كان يختزنه من مخدرات، أملاً في أن يغرق في النوم قبل عودة جان التي لم يكن يشعر بأي قدر من الشجاعة لمواجهة نظرتها ولا أن يتقبل مزاجها. بين حلمين، أو بالأحرى، بين كابوسين، سمع صوت المفتاح وهو يدور في قفل الباب. أشعلت جان أحد أنوار الصالون الخافتة حتى لا توقظه. رآها وهي تخلع ملابسها من خلال فرجة الباب، حيث كانت حركاتها البطيئة تترافق

Twitter: @ketab_n

بشعر غير معقول. رآها شديدة الجمال، فضلاً عن أنه كان يحبها. خطرت بباله فكرة صعقته. لكن جفنيه كانا ثقيلان جداً، فعاد إلى النوم قبل أن تلحق به إلى السرير.

استيقظ في صبيحة اليوم التالي مع بزوغ الفجر. نظر إليها قبل أن يغادر الشقة؛ كان ظهرها عارياً، نصفه مغطى باللحاف، وكان وجهها غارقاً تماماً في شعرها الأسود الكثيف. أغلق الباب خلفه بهدوء، وذهب سيراً على الأقدام إلى عيادة الدكتور أوروسكو، أملاً منه في أن يتم استقباله قبل المرضى الآخرين. وهو ماكان.

بعد أن جلس مع الطبيب في غرفة المعاينة، أكد له بأن الخراج سيتوارى بشكل طبيعي، بعد عدة أسابيع أو بعد شهر، على أبعد تقدير، بعدها لا بد من مراقبة كيفية تطور المرض. بعد زوال الخراج، ستظهر بعض الأعراض، بعد عدة أشهر أو بعد عدة سنوات...

- ما هي هذه الأعراض؟

- حمى واكتئاب وتساقط الشعر والأظافر والأسنان وطفح جلدي مذهل إلى حد ما، بعدها يظهر طفح وردي سرعان ما يتلاشى. بعد هذه المرحلة الأخيرة، سيبدو أن الجسم قد انتصر، ولن تكون بعدها مُعدياً.

- وماذا بعد؟

- لا أستطيع استباق الأمور. أعراض المرض النهائية ستظهر بعد عدة سنوات، بعد عامين أو بعد عشرين عاماً، أو ربما أكثر، لا أعرف... سيتأثر كل من الجسم والعقل، لكن بأشكال مختلفة تتعلق بحالة الشخص.

- أهو الجنون؟

- ليس بالضرورة. الجنون أو الشلل أو الاثنان معاً، أو أشياء أخرى أيضاً مثل السل الرئوي. البرنامج، في هذه الحالة . لن يكون ممتعاً أبداً. لا أخفيك بأنك ستعيش أوقاتاً صعبة ومؤلمة.

Twitter: @ketab_n

كان وجه بودلير أبيضاً كياقة قميص. فسأل الطبيب:

-الخلاصة، كم بقي لي من الزمن أعيشه فعلاً، أقصد، سليم الجسم والعقل؟

- هذا الأمر لا يمكن أن يعرفه أحد ياسيد بودلير. إني أخبرك بما لاحظته بخصوص هذا المرض: من يريد العيش، ومن يناضل بشجاعة وتصميم ضد الألم، يمكن أن يعيش زمناً طويلاً، ربما كأي شخص آخر. لكن ما أن يضعف المرء، أو يهمل نفسه أو يستسلم للمرض، فسيكون مصيره الموت المحتّم.

مرت لحظة صمت، قال بودلير بعدها:

- دكتور، أود أن أعرف.. وهو سؤال يرعبني.. زوجتي التي لم أخبرها بأي شئ حتى الآن، هل يمكن أن... زوجتي...؟

- عليك أن تتوقف عن أية علاقة جنسية معها، وأن تنتظر شهرين أو ثلاثة أشهر. فإذا لم تظهر القرحة، ستكون عندها في معزل عن الخطر.

فكر الطبيب لحظة قبل أن يختم حديثه:

- مهما كلفك الأمر، عليك أن تخبرها بمرضك، وبأسرع وقت ممكن، لأن القرحة قد لاتظهر عند المرأة.

عاد بودلير يبحث عن البغي طيلة فترة العصر. بعد أسبوع من البحث غير المجدي، لمحها عند عطفة أحد الشوارع البعيدة جداً عن المكان الذي التقاها فيه في المرة السابقة. رآها أمامه، وتعرف مباشرة على مشيتها المتبخترة والوقحة. توقف الدم في عروقه. وما أن عاد إلى رشده، حتى توارت في أحد زوايا الشارع. حث خطاه، وما أن تراءت له من جديد حتى لحق بها عبر شبكة الأزقة الضيقة البائسة. تفرق المارة شيئاً فشيئاً، فوجدا نفسيهما وحيدين في نهاية أحد الأزقة المغلقة. عندها ركض نحو من استدارت نحوه، بسبب الضجة التي كان يصدرها حذاؤه، مقترباً منها بكل

Twitter: @ketab_n

استعجال، ونظر إلى وجهها المذهول وحيث كانت ابتسامة ترتسم فوق شفتيها.

- هذه أنت أيتها القحبة؟ قال بودلير وهو يمسك بكتفيها. أنت من أعطيتني السم!

حصرها إزاء الجدار، ونظر في عينيها لكي يريها البريق الذي كان يلمع فيهما.

- عفواً أيها السيد الطيب، لكن هذه المرة الأولى التي أراك فيها! قالت بلهجة بطيئة تتميز بها ضواحي باريس.

- أيتها القذرة! صاح في وجهها وصفعها. إنك تنشرين الموت حولك، لهذا ستدفعين الثمن!

فقدت البغي ابتسامتها التي لم تغادر حتى اللحظة وجهها. قست عيناها وأصبحتا فظتين. رسمت على شفتيها علامة سخرية تنم عن الاحتقار والتحدي، وتخلصت من قبضتيه دون كبير عناء وابتعدت عنه قليلاً، بعدها انفجرت في ضحك غيرمبرر، شرس يبعث على الشؤم، وقالت:

- من تحسب نفسك، أيها السيد الصغير؟ علي أن أعيش أنا أيضاً!

بصقت في وجهه ثم لاذت بالفرار. بقي بودلير للحظة وحيداً غير قادر على الحركة في وسط الزقاق. ثم رجع إلى جان لكي ينجز مقالة ويكتب رسائل لبعض الأصدقاء أملاً في أن يقبلوا إقراضه بعض النقود.

لم تكن جان قادرة على إدراك معنى التغير الذي أصاب سلوك عشيقها. قبل أن يستقر في شقتها، كان مزاجه عنيفاً في أغلب الأحيان، يزداد على نحو خاص حينما كانت تذهب إلى تدريبات المسرح. أولاً منعها من التمثيل في المسرحية، بذريعة أن مثل هذه الأدوار غير مهمة ولا تعود عليها بنفع مادي مقبول. وكان يرى أنها لاتقوم إلا بعرض جسدها بدون معنى، أو أن عليها أن تجد لنفسها معجباً آخر. كان يشتبه في أنها ما تزال

Twitter: @ketab_n

على علاقة بمجموعة من العشاق الذين تجتمع بهم خلسة. وكانت تنتابه نوبات غضب تحبطها في هذا الشأن، ويمنعها طيلة أسابيع من مغادرة الشقة. وكان يأتي ليتحقق من أنها لم تخرق النظام الذي الذي فرضه عليه جموح أفكاره. حينما سكن في شقتها هدأ مزاجه، لكن سلوكه الجديد كان يقلقها أكثر من السابق. فقد أصبح شديد العصبية، محبطاً، ويتناول الأفيون بشكل يومي. لكن الأسوأ من هذا، هو هذا الامتناع عن مواقعتها، لأنها لم تكن تفهم ما يخفيه. كانت تعرف (لأنها ترى وتشعر) أنه كان دائماً راغباً فيها، لكنه يرفض ملامستها، كابحاً شهوته وحنانه. هي أيضاً كانت تشتهيه، أكثر مما كانت تشتهيه في السابق. لكنها لم تكن تجرؤ على المبادرة، أو أن تبين له شهوتها له بصراحة، خوفاً من تعذيبه أو من توبيخه. يوماً بعد يوم، كانت تراه يزداد هزالاً، فتجرأت على سؤاله «ماذا بك»؟، لكنه لم يكن يجيبها إلا بهزة من كتفه أو بتنهيدة.

ذات مساءشتائي، من نهاية شهر تشرين الأول، أو ربما كانون الأول، كان الليل في منتصفه، وهما مستلقيان إلى جانب بعضهما بعض، تتجاذبهما رغبة مشتركة جعلت النوم عزيزاً عليهما، سألته عما إذا كان لا يمانع في أن تداعب نفسها، رغم معرفتها بمدى حساسيته إزاء مثل هذه الأفعال التي تخرج عن إطار الحياء، ظناً منها أنه لن يتأخر عن ملاقاتها في هذه المتعة. لم يجب شارل، لكنه اقترب منها لينظر إلى حركات يدها وحرارة جسدها الملتهب بالرغبة. كان يرى في رؤية نشوة المرأة شيئاً يدخل في إطار العبادة السرية. قوته المجهولة كانت ترعبه بمقدار ما كانت تغويه. في كل الأحوال، فقد كانت هذه النشوة الغامضة تدفع برجولته إلى أقصى درجاتها. توافق الفراش للحظة مع إيقاع المداعبات التي كانت تقوم بها عشيقته، فيتهادى السرير كما يتهادى الزورق أمام النسيم العليل. توقف الاهتزاز وبدا كأن ريحاً قطبية انسلت تحت الأغطية

Twitter: @ketab_n

- شارل! قالت جان بصوت خفيض.

- ماذا هناك؟

- شارل! قالت مرة أخرى. لكن نبرة صوتها قد تعالت قليلاً، ممزوجة هذه المرة بشيء من القلق.. هناك شيء ما ..

أمسكت بيده، ودستها تحت الغطاء إلى أن وضعتها فوق فخذيها، فأحس بطرف سبابته أن الانتفاخ قد أصبح قاسياً، وكان السائل يسيل فوق أصابعه. فقفز صائحاً ورمى نفسه بعيداً عن السرير كما لو أنه لمس ثعباناً:

- لا! لا، صرخ بشدة

- ثم انهار على ركبتيه ممسكاً رأسه بين يديه.

- ليس هذا! ليس هذا! طفق يردد ووجهه غارق بالدموع.

- شارل! ما هذا! إنك تخيفني!

سمعت قبل لحظات ضجة غير معقولة مصدرها الشارع فرضت نفسها على الصمت الذي كان يرين على الغرفة. كان يسمع صوت تكسر أشياء فوق الأرض، ودوي أصوات وصيحات أخرى يصعب تمييزها.

- إنه هو، جان! أنا المذنب! أنا الذي أعطيتك إياه.

تناول سكيناً لقطع الأوراق من فوق الطاولة الصغير المحاذية للسرير، وهو يصرخ:

- خذيها! اقتليني لأني حكمت عليك بالموت!

- ما الذي تتحدث عنه؟ صاحت جان، وانخرطت بدورها في البكاء.

- إنه الموت البطيء البشع! إنه السم! إنه السيفلس!

تركت جان السكين يسقط من يدها وانهارت غير واعية. بلغت ضجة الشارع أقصاها تحت نوافذ الشقة. وكان هناك صوت مدوٍ يصيح: «بودلير! سيد بودلير!». اقترب شارل من النافذة ونظر إلى الخارج بعد أن أزاح الستارة. «سيد بودلير اخرج من شقتك أو أدع أصدقاءك!». لمح تحت ضوء

Twitter: @ketab_n

الغاز مجموعة من الأفراد لم يتمكن من التعرف إلى وجوههم، إذ لم يكن نظره في أحسن حالاته، فبدوا له ثملين. لكنه تعرف تماماً على قائدهم، وأكثرهم خبثاً. كان ذلك نادار. امتعظ بودلير من هذا المزعج وأسدل الستارة بعنف. ثم استدار نحو جان التي كانت مستلقية على ظهرها، وعيناها ناشفتان ووجهها شاحباً. كانت أشبه بالميتة. انتاب الخوف بودلير، لأنه كان يرى في هذا الوجه مرآة تعكس نهايتهما المحتومة في الشقاء والألم. عادت الضجة من جديد، لكنها هذه المرة كانت فوق السلم، وكأن كتيبة تجتمع على عتبة بابهما، وقرع الباب بقوة.

- افتح أيها الوغد! فنحن نعرف أنك في الداخل! صاح نادار.

في الوقت نفسه تقريباً، سمعت أصوات أخرى مصدرها الشقق الأخرى والجيران: «أليس لهذه الضجة من نهاية، إنكم تزعجوننا!»؛ «اصمتوا! فنحن نيام»؛ «اخرسوا»؛ «استدعوا الشرطة!»

- الباب! افتح الباب يابودلير، استمر نادار في صياحه على نفس الوتيرة.

- كان الغضب يسيطر على بودلير. واعترته رغبة في تناول السكين وقتله. بعد هذا توقفت المسرحية. ما زالت تسمع بعض الأصوات والضجة البعيدة، لكن الأوغاد كانوا قد ابتعدوا. عاد بودلير نحو جان التي لم تبرح بعد مكانها ولم تنبس ببنت شفة. تمدد إلى جانبها وعيناه محمرتان من الدمع وهمس في أذنها:

- إني أقتلك ياجان، لكني في قتلك، أكون قدفعلتهامرتين. أما وقد حدث ما حدث، فقد ارتبط مصيرانا ببعضهما عبر هذا العهد الدموي، و سنبقى معاً إلى أن يستولي علينا الجنون، حتى الانهيار والموت.

ولأن شيئاً لن يقف عائقاً أمامهما بعد اليوم، فقد قضيا معاً ليلة حميمة.

Twitter: @ketab_n

٧

معرض 1845 الذي كان يقدم أفضل فناني تلك الفترة، فتح أبوابه في 15 آذار في متحف اللوفر الملكي. وكان بودلير ينوي أن ينشر فيه ملخصاً على شكل مسلسل في مجلة لوكورسير-ساتان، بعد أن وقع اتفاقاً مع هوساي Houssaye، مدير مجلة L'artiste (الفنان)، التي ستنشر له في الشهر القادم قصيدة à une créole «إلى غريبة»، وهي القصيدة التي كان قد أسمعني إياها بعد عودته من ماسكارينيا . ، تنزه بصحبة صديقه ورسامه إيميل دوروا، فترة طويلة في مقصورات المعرض المفعمة باللوحات. مرا بأعمال هوراس فيرنيه، وتحدثا عن نوعية مواضيعها وأسلوبها المتكلف وألوانها التي تفتقد إلى الرونق وزخارفها الأتفه من زخارف الاستشراقيات التي كان ينسخ عنها بشكل باهت. توقف طويلاً، بإعجاب، عند لوحات دولاكروا. استقرت ذكرى الزيارة المدرسية التي تمت في شهر تموز 1838 والتي اكتشف خلالها «معركة تايبور» La bataille de Taillebourg، في ذاكرته وضبطت ذوقه في مجال الرسم. منذ ذلك الوقت، أصبح يرى في دولاكروا سيد الفن الحديث الذي لا يعلى عليه. أعجبا بالضوء وتكوين لوحة «آخر كلمات مارك أوريل» التي ذكرت بودلير بإحدى لوحات روبنس، وانتشيا أمام التناسق الذي تميزت به لوحة «سلطان المغرب» وهو محاط بحراسه وأركانه، وفغر كلٌ فاه أمام لوحة «مادلين في الصحراء».

Twitter: @ketab_n

- دولاكروا، قال بودلير بوقار، هو أكثر الرسامين القدماء والحديثين، أصالة!

- وهو رأيي أيضاً! صدر صوت خلفهما جعلهما يقفزان من المفاجأة.

استدار بودلير ودوروا ليريا شاباً ذا شعر أشقر جيد التمشيط وهو يبتسم لهما. كان دوروا يعرفه، وعرفهما إلى بعضهما بعض:

- بودلير، أقدم لك شارل أسولينو.

- سمعت الناس يتحدثون عنك كثيراً، قال أسولينو لبودلير، بعد أن تم تقديم أحدهما للآخر.

- في المدرسة كنت مع أسولينو ونادار، أضاف دوروا.

مشى الشبان الثلاثة سوية وزاروا الأقسام الأخرى. وبقوا لحظة مشدوهين أمام طبيعة ميتة تفصل عدة أشياء بألوان سمراء، إضافة إلى بعض الطرائد غير المرتبة بشكل جيد والمنضودة كيفما اتفق فوق طاولة خشبية كبيرة.

- ما قولك بهذه اللوحة الرديئة،؟ سأل أسولينو بودلير.

- لا شيء سوى أنها تحمل توقيع أروندیل

- ومن هو هذا الشخص؟

- أزعر أدين له بمبلغ كبير من المال. على الرغم من افتقاره الكامل للموهبة، علي أن أتجنبه في مقالتي. لقد سبق وأن أضر بي كتاب ذكر اسمه بهذا الخصوص.

- أهو بائع العاديات في فندق بيمودان؟

- هو نفسه، أجاب بودلير.

- لم أكن أعرف أنه يمارس الرسم..

- سمعته يقول، أجاب بودلير، وليس لي سوى أن أرثي له.

بعد أن غادر الثلاثة: أسولينو وبودلير ودروا المعرض، توجهوا إلى أحد

Twitter: @ketab_n

باعة الخمور في شارع كاروسيل. طلب بودلير قدحاً من النبيذ الأبيض وبعض البسكويت وغلايين جديدة. كان أسولينو مثله ناقداً فنياً ينشر مقالاته في جريدة المسارح le journal des théâtres، حيث كان نادار ينشر رسومه أيضاً.

- بلغه سلامي، قال بودلير. فقد مر زمن طويل دون أن يرى أحدنا الآخر. إنهم منزعجون مني،

- لأي سبب؟ قال دوروا.

- لقد سبق لنادار وأن جاءني في منتصف الليل، ولم أكن مستعداً لاستقباله آنذاك، وتصرفت بخشونة قليلاً. لكني لست منزعجاً منه، وينبغي أن نضع حداً لسوء التفاهم هذا. إذا تمكنت من إصلاح ذات البين..

- سأبذل جهدي، وعد أسولينو.

أخبرهم هذا الناقد الفني بأنه يعدّ مقالة طويلة حول المعرض. دهش بودلير وأخبره بأنه جاء لزيارة هذا المعرض لأسباب مماثلة. ربط هذا التنافس بينهما وتبادلا وجهات نظريهما حول الفن والرسم، وكانت متفقة تقريباً حول كل شيء. بعد بضعة أيام، التقيا بغياب دوروا وقاما بجولة في أرجاء المعرض، ثم توجها إلى مقهى لوبلين لتناول النبيذ الأبيض وبعض البسكويت بدلاً من وجبة الغداء. لقد أحب بودلير رفقته، وأعطاه عنوانه وقرر الشابان أن يلتقيا مرة أخرى. ظهرت مقالة أسولينو حول المعرض قبل نشر مقالة بودلير حول المعرض نفسه. ولكم كان بودلير مسروراً حينما قرأ اسمه فيها وقد أسبغ عليه كاتبها الكثير من المديح. لقد وجد في أسولينو صديقاً، ولم يخطئ في هذا أبداً، لأن وفاءه لبودلير بقي ثابتاً حتى وفاة هذا الأخير.

الحقيقة أن هذا اللقاء لم يشكل سوى عزاء نسبي بالنسبة لبودلير. انهالت عليه الطلبات لكتابة المقالات، وراح يقضي ليالي باكملها لإنجازها،

Twitter: @ketab_n

ويكرع كميات كبيرة من القهوة ليحافظ على يقظته، لكن هذا كله لم يكن كافياً على الإطلاق لسداد ديونه، ولا حتى لتغطية نفقاته الخاصة. زد على هذا، ذلك الألم الذي يعاني منه. والذي لم يستطع نسيانه أبداً. فهو يزمجر في كيانه باستمرار، فينتظر انبثاقه بهلع شديد. لم يتحدث بهذا الأمر إلى أحد، باستثناء والدته، ، التي أنهكها هذا الخبر. حينما أنهى مقالته ونشرها، عاد القرف والمرارة والإحساس بعقدة الذنب للظهور، ليترافق بتوقف كامل عن العمل لعدة أيام.

كانت جان تقبع إلى جانبه، تدخن سيجارة إثر سيجارة وتبالغ في احتساء الكحول. لكنها منذ ليلة كانون الأول تلك، أصبحت تقسو عليه وتتصرف معه، على غير عادتها، بوقاحة في بعض الأحيان، بل بلغت بها الجرأة أن تسمعه كلمات قاسية أو جارحة. لكنها كانت ترفض الحديث عن المرض، ولا حتى ذكر اسمه، لأن بودلير أخبرها بكل ما ينبغي أن تعرفه. كانت طبيعتها ما تزال قدرية. تقاوم الألم بقدر استطاعتها، بل وتواجهه حينما تحس به. لم يكن لديها ما تضيفه على هذا، ولم تشر من قريب أو بعيد إلى خيانته لها مع تلك العاهرة بنت الشوارع، على الرغم من الجرح الذي أصاب كبرياءها كامرأة. طلبت منه فقط أن يكون مسؤولاً عن مصيرهما. لم يكن مجديا أن تشعر بعقدة الذنب، ذلك لأن السيف قد بلغ العذل. جعلته يقسم، بقلب بارد على ألا يهجرها ماديا أو معنوياً. فأقسم لها على هذا. فارتبطا بعهد لافكاك منه مهما حدث مستقبلاً.

ذات مساء من نهاية شهر آب، التقى بودلير بعض الأصدقاء في أحد المراقص القريبة من شاتيّون Chatillon. كنتُ مع لوي مينار وبريفا وآخرين، حينما رأيناه قادماً، سحنته قاتمة وملبسه أقل هنداماً من العادة. لقد مر وقت طويل دون أن ألقاه بعد مغادرتي باريس لبعض الوقت الأمر الذي أصاب علاقتنا ببعض التفكك، ووجدت صعوبة في التعرف إليه. إذ فقد

Twitter: @ketab_n

كثيراً من شعر رأسه، وظهرت على جلده بعض آثار الطفح الجدري. خلال الطعام، تكلم قليلاً زاعماً أن زكاماً أصابه منذ عدة أسابيع، قد أثر على صحته. هنأناه لما نشره مؤخراً، فشكرنا بتهذيب دون أن يبدو عليه الرضا أبداً. بعد الطعام، تفرقنا وركب عربة مع مينار، الذي ساوره القلق على صحته فاقترح عليه مرافقته إلى سكنه في جزيرة سان- لوي. نزلا من العربة، لتجنب القسم المأجور من جسر ماري، وأكملا طريقهما سيراً على الأقدام. كانا يمشيان ببطء فوق رصيف سيليستين. بدا بودلير أكثر انطلاقاً في الكلام مما كان عليه في المرقص، وكان يتحدث عن سويدنبرغ، أحد الفلاسفة السويديين الذين لم يسمع باسمه أحد في فرنسا، ربما باستثناء نيرفال وبلزاك،. مينار، الذي كان ما يزال يبحث عن طريقه، كان معجباً ببودلير منذ أيام المدرسة ويغار من عبقريته.

- قرأت في صحيفة (لارتيست) قصيدتك، قال مينار. لمَ، بحق الشيطان، توقع باسم مستعار؟

- إنه ليس اسماً مستعاراً، دوفاييس، هو اسم عائلة والدتي قبل الزواج.

- ألا يكفي أن توقع باسم بودلير؟

- أريد أن يعتقد الناس بأني لا أريد الكشف عن نفسي. هذا الاسم يتيح لي أن أخفيها قليلاً.

- طرحت عليك هذا السؤال، لأني أتهيأ لنشر بعض الأشعار تحت اسم لوي سينوفيل. ما رأيك؟

- هو اسم مستعار جيد، أجاب بودلير بنبرة غير مبالية.

كان مينار يود لو يظهر بودلير مزيداً من الفضول إزاءه، و يرغب في أن ينظر في قصائده. أما بودلير، فكان يخشى أن يفرض عليه صديقه مثل هذه القراءة، لمعرفته المسبقة بأنها ستكون رديئة. فقد كان شأنه شأن

Twitter: @ketab_n

ألسيست، غير قادر على أن يقال عنه بأنه مجامل أو كذاب حتى لو تعلق الأمر بصديق.

- على أية حال، فإن ولعي بالأدب قد تضاءل، وأصبحت مهتماً بالكيمياء. إني أحب دقة الأسماء والنتائج. أجد نفسي أكثر راحة في هذا الميدان من ميدان «غموض العواطف»...

تحدث مينار لحظة في هذا الموضوع، وأخبر صديقه عن تردده على مخابر البروفسور بيلوز، أحد أعضاء أكاديمية العلوم. كان بودلير يستمع إليه، دون أن يعبر عن أي اهتمام حقيقي بما يقول، لكنه أبطأ خطاه وقال:

- بما أنك متبحّر في هذا المجال، ما هي أكثر المواد فاعلية لإنسان يريد أن ينهي حياته؟

- هل تطلب هذا لنفسك؟

- الحقيقة، لا أعرف تماماً.. لوفافاسور وبرارون وأنت، اقدم أصدقائي. ما كان لي أن أطرح السؤال على شخص آخر غيركم.

حك مينار ذقنه ثم أجاب:

- الأفضل قد يكون حمض البروسيك.

- في هذه الحالة، قال بودلير بجدية، حضر لي منه زجاجة من فضلك.

بقي مينار حائراً للحظة، وقبل حتى لايزعجه، لكنه أقسم في نفسه بألا يقدمها له أبداً.

حينما عاد شارل إلى شقة جان، وجدها واقفة مستغرقة في تأمل صورة له رسمها دوروا، معلقة على أحد جدران الصالون. اللوحات والأشياء الثمينة التي كانت تملأ في السابق شقة فندق بيمبادون، أودعها عند السيدة أوبيك. أما لوحة دوروا هذه فقد ألحت جان على الاحتفاظ بها.

- أنت جميل في هذه الصورة.

Twitter: @ketab_n

جلس بودلير بالقرب منها، ونظر إلى اللوحة خلال لحظة. شعره طويل، ولحيته صبيانية ولباسه وهيئته الداندية، كانتا تبدوان كما لو أنهما تنتميان إلى ماض بعيد. تذكر جلسات الوضعيات الطويلة، التي بلغ عددها خمس عشرة جلسة في إحدى قاعات **البرج الفضي**، وتذكر لهفته في تلك الفترة ومحادثاته مع دوروا. هذا ما كانت اللوحة توحي به. لكنه لم يتعرف على نفسه فيها.

- خذيها هدية لك، قال بودلير. إذا مت قبلك، ستكون بمثابة تذكار مني، ذكرى تلك الفترة الرائعة التي تعارفنا فيها، سأكتب إلى أسيل (الوكيل القانوني) لكي يثبت هذا الذي أقول رسمياً.

نظرت إليه جان بوقار، مترددة بين أن تشكره أو تشتمه لما قاله.

في الشهر التالي بلغ بودلير أسوأ حال. فلم يعد يخرج من شقة جان، وغير راغب في رؤية أي شخص. قلقت جان من حالته هذه، إذ لم تعد تراه يكتب، وكان هذا بالنسبة لها من أخطر الأعراض. أحياناً، كان بانفيّ أو أسولينو أو نادار يقرعان عليه الباب، وكانت تقول لهم بأنه غير موجود بناء على تعليماته، زاعمة أنها لا تعرف مكان وجوده. اطمأنت في آخر ليلة من شهر حزيران، حينما رأته سهراناً مركزاً على كتابة شيء لا يعرفه إلا الله. عند الفجر، أخلد للنوم بالقرب منها وبقي في حضنها طيلة ساعتين لايعرف النوم إلى جفنيه سبيلا. حينما نهض، كان وجهه غارقاً بالعرق. طلب منها أن تسلم علبة مرفقة برسالة إلى بانفي.

- عليك أن تذهبي إلى نويي وتعطي هذه الرسالة إلى المحامي نارسيس أنسيل، فالأمر عاجل جداً.

- لم لاتذهب بنفسك؟

- لأني لا أستطيع. من فضلك، لا تطرحي على أي سؤال. خذي هذه

Twitter: @ketab_n

النقود لتدفعي أجرة العربة، والعنوان مدون فوق المغلف. لا تنسي: يجب أن تسلميه الرسالة شخصياً.

مسح دمعة سالت من عينه وطبع قبلة حانية فوق جبهتها، كما لو أنه كان يتأهب للقيام برحلة طويلة. لم تطرح أي سؤال، وسلكت طريقها كما قال لها.

وصلت إلى نويّي مع بداية العصر ولم تبذل كبير جهد للعثور على العنوان. طلب منها أن تنتظر في الصالون، ثم أدخلها نارسيس شخصياً إلى مكتبه وتصرف معها بود.

- ماذا يمكنني أن أقدم لك، سيدتي العزيزة؟ سألها بعد أن اتخذ لنفسه مقعداً قبالتها.

- إنه السيد بودلير، قالت. حمّلني إليك هذه الرسالة، وطلب مني أن أسلمها لك شخصياً.

ناولت جان المحامي الرسالة، ففتحها وبدأ قراءتها بصمت. كان وجهه يزداد شحوباً كلما أمعن في القراءة، ورأت جان في هذا علامة على حيرة كبيرة.

- لقد جُنّ تماما! قال الوكيل القانوني بعد أن أنهى قراءة الرسالة. هل تعرفين مضمون هذه الرسالة؟

- أبداً. ما هو الموضوع؟

- اقرأيها بنفسك..

ناول الوكيل القانوني جان الرسالة.

« باريس في 30 حزيران 1845».

في الوقت الذي تسلمك الآنسة لومير هذه الرسالة، سأكون قد مت. - إنها تجهل هذا الأمر. وأنت تعرف وصيتي. - باستثناء القسم المخصص لوالدتي، فإن الآنسة

Twitter: @ketab_n

لومير، سترث كل ما سأتركه، بعد أن تقوم أنت، بتسديد بعض الديون المبينة في القائمة المرفقة بهذه الرسالة..

- ياإلهي! صاحت جان وهي على وشك الإغماء.

- اقرأي البقية.

تابعت جان القراءة بعينين مخضلتين بالدموع، ويداها ترتعشان:

«.. أقتل نفسي لأني لم أعد قادراً على الحياة، وعلى احتمال التعب الناتج عن عدم قدرتي على النوم أو الاستيقاظ. أقتل نفسي، لأني لم أعد مفيداً للآخرين- ولأني أصبحت أشكل خطراً على نفسي.. إني أهب وأترك كل ما أملكه للآنسة لومير -لأنها الوحيدة التي أمنت لي بعض الراحة.. جان لومير هي المرأة الوحيدة التي أحببتها - إنها لاتملك أي شيئ. إني أحملك يا سيد أنسيل، وأنت أحد الرجال النادرين الذين يتمتعون بروح طيبة سامية، مسؤولية تنفيذ تعليماتي الأخيرة الخاصة بها.. خذ بيدها، قدم لها النصح ؛ هل أجرؤ على القول عليك أن تحبها، من أجلي على الأقل. بين لها مثلي الرهيب - وكيف أن فوضى الروح والحياة، تقود إلى اليأس القاتم، أو إلى الهلاك التام..»

رمت جان الرسالة فوق المكتب، وانفجرت في البكاء.

- أرى أنه ليس هناك ما يثير القلق، قال الوكيل القانوني، فأنا أعرف أن بودلير يناور مع والدته، لإقناع زوجها بإلغاء ما تراكم عليه من ديون. أنا متأكد أن الأمر لا يعدو مجرد حيلة في هذا الاتجاه.

نهضت جان فجأة، وخرجت راكضة من مكتب الوكيل القانوني. وما أن وجدت نفسها في الشارع، حتى استقلت إحدى العربات، دون أن تعرف

Twitter: @ketab_n

أي عنوان تعطيه للحوذي. تذكرت العلبة الموجهة إلى بانفيّ، وقررت التوجه لرؤيته. كان بانفيّ في بيته فاستقبلها فوراً، والشحوب والعصبية باديان عليه.

- لقد أودعني كتاباته. يريدني أن أهتم بتنظيمها ونشرها بعد وفاته! ترى ماالذي يعنيه هذا؟ هل هي نكتة؟ هل مات؟

- لا أعرف! صرخت جان. لا أعرف حتى مكان وجوده الآن.

- جربي أن تبحثي عنه في الأماكن التي اعتاد ارتيادها. فالإنسان يقتل نفسه ليلاً، ألا تعتقدي ذلك؟ هل ترغبي في أن أرافقك؟

- لا.. شكراً سأكون بخير.

غادرت جان بانفيّ وعادت إلى شقتها. لم يكن بودلير فيها. تذكرت كاباريه شارع ريشيليوالذي كانا يرتادانه معاً خلال الشهر السابق لاحتساء قدح من الكحول. وتذكرت أن شارل كان يحبه لوثوقه بأنه لن يجد فيه أحداً من معارفه، فدفعها حدسها للبحث عنه فيه. أنفقت جان نقودها ولم يعد لديها ما يكفي لاستئجار عربة تقلها إليه. ناء الليل بظلاله، فانقبض قلبها حينما فكرت بأنها ستصل إلى ذلك المكان متأخرة. فراحت تركض في شارع الإيطاليين، وتغوص في زحمة أناس من كل نوع ولون: الجميلات الميسورات بأثواب السهرة وهن يمشين متخلعات بصحبة كبار القوم والمصرفيين في شارع دانتان، ومسنون يعرجون، وهم يرتدون زيهم العسكري القديم يطلبون الصدقة أو يتسولون، أطفال وقحون بنظراتهم القاسية وهم ينتظرون بعض المارة لينشلوا ما في أيديهم أو جيوبهم بخفة ومهارة. اصطدمت عدة مرات بهذه الحشود الغريبة الزاخرة، فشتمها البعض ودفعها الآخرون بأيديهم أو ارتسم القرف على وجوههم لمجرد رؤيتها. دار رأسها، وزاغت عيناها من تساقط العرق اللامعة حباته فوق جبهتها.

Twitter: @ketab_n

انتهى بها الأمر إلى العثور على المكان، بعد أن ضاعت أكثر من مرة. دخلت جان وكأنها أحد المحكومين بالأشغال الشاقة. كان المكان عبارة عن كباريه، ذي زينة راقية يعج بالمذهبات المزيفة، والمرايا والمقاعد الوثيرة العريضة المغطاة بمخمل أحمر يأخذ الألباب. كانت المنصة فارغة (لأن الوقت كان مبكراً على بدء توافد المتفرجين على الراقصات)، والقاعة الكبرى مليئة بالطاولات التي تعجّ بالدخان، وتستحم بجو ثقيل وتفوح منها رائحة العطور الرخيصة. بعد أن تفحصت القاعة الغارقة في ما يشبه العتمة، دارت على عقبيها وعيناها تتحركان بسرعة لا تسمح لها برؤية الأشياء كلها. لمحت بودلير جالسا بمفرده إلى طاولة في إحدى الزوايا الغارقة في ضوء خفيف. كان يراقبها مذ تراءت له والغضب يتنامى في نفسه. أسرعت جان نحوه تنادي بأعلى صوتها. وما أن وصلت إليه، حتى أمسك بخنجر فوق الطاولة، وصاح بألم: «الوداع يا جان، الآن أموت». ثم غرس السكين في قلبه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

القسم الثاني

الرجيمان

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

I

لدى عودتي إلى باريس مع نهاية عام 1847، بهرتني حالة الغليان والعصبية المهيمنة على الناس في تلك الفترة، والتي كانت مؤشراً على اندلاع أحداث شباط. ودهشت لرؤية كراريس لوربسبيير ومارا، أخرجت من غياهب النسيان ووزعت على الناس على الرغم من تغليفها السيء، ومعها منشورات أخرى تزعم أنها «ديمقراطية وثورية»، كتبها شبان جمهوريون بأسماء مستعارة، توزع في كل زاوية من زوايا شوارع منطقة سانت أنطوان. كانت باريس تتهيأ للدخول في العصيان بتشجيع ديمقراطيي عام 1830، الذين تحملوا حتى تاريخه فترة **التجديد البورجوازي** الذي قامت به سلطة تموز الملكية بمرارة، ترافقت، على مدى السنوات، بتعطش إلى الانتقام الذي طالما تم تأجيله. لم تصلني أخبار شارل منذ قضية محاولة انتحاره الفاشلة، مع أنني قرأت كل الصحف التي اشتريت بعضها وتلك التي أرسلها الأصدقاء إلي، وكذلك الدعاية التي تعلن عن قرب صدور مجموعته الموسومة «السحاقيات»، التي تشكل نواة قصائد «أزهار الشر». لكن الناس كانوا يتداولون قصصاً، جَمَعتُ بعضها من الريف البعيد الذي كنت أقيم فيه. روى لي بريفا، في إحدى رسائله، أن أحد دائني بودلير جاءه خلال إحدى دروس المبارزة بالسيف (التي كان شاعرنا مولعاً بها ويمارسها)، بعد أن أعيته الحيلة في العثور عليه (لأن الشاعر كان يبدل عنوانه باستمرار للهروب من هذا

Twitter: @ketab_n

الدائن)، جاء ليطالبه بدينه وهو ممسك بالسيف. استدار بودلير نحو الدائن وهدده بذبابة السيف، وظل يطارده حتى السلم وأجبره على الفرار، وسط تصفيق الرفاق وتحت أنظار مدرب الأسلحة الرافضة لهذا التصرف.. و كنت أعرف أنه كان يفكر بالعودة للعيش في إحدى البلدان الاستوائية، لأن إحدى عائلات معارفه، المقيمة في جزيرة فرنسا، اقترحت عليه الإشراف على تربية أولادها هناك. لكن بودلير كان ما يزال متردداً حينما التقيته مصادفة في شارع بابيلون، عند زاوية فندق صغير اختاره مكاناً للإقامة. حينما نزع قبعته ليحييني، دهشت لرؤيته حليق الرأس، فسارع يقول لي:

- لقد انتهى زمن الشَعر الطويل مثلما انتهى زمن الشباب! فضلاً عن أني فقدت منه الكثير. هكذا أفضل، ألا ترى ذلك؟

أجبته بأن لا رأي لي حول هذه المسألة، لكن لاشك في أن هذا المظهر يناسب التغير الذي بدأت رياحه تهب على كل مكان. ضحك بودلير لملاحظتي، واقترح علي أن نجلس معاً في أحد المقاهي.

سألته بعد أن طلبنا قدحين من النبيذ الساخن:

- من تعاشر الآن؟ ما هي أخبار أصدقائنا؟

- لا جديد تقريباً؛ ما زلت ألتقي ببانفيّ وأسولينو، وأحياناً بنادار، لكني أرى أكثر شامفلوري الذي تستهويه الأفكار الاشتراكية، وعقدت صداقة مع الرسام كوربيه.

تجهم وجه بودلير قبل أن يضيف:

- توفي إميل دوروا العام الفائت ووارياه الثرى في مقبرة مونبارناس.

- أعرف. أجبته. لكن ما هو سبب الوفاة بالضبط؟

- لقد أُصيب بمرض جنسي.. ولك أن تتصور اسم هذا المرض وما يسببه من آلام.

Twitter: @ketab_n

رانت لحظة من الصمت الثقيل الكتيم، لحظة فسرتها دون شك، بأشكال سيئة. كنت ما زلت أجهل أنه مصاب أيضاً بالمرض نفسه.

- وماذا عن لوي مينار، صديق الدراسة؟ أما يزال يجمع الثعابين والعظايات؟ لقد انتابنا خوف كبير حينما أرانا إياها وهي مخبأة في تلك الخزانة العفنة في بيته.

لوي مينار

- لا أعرف. إنه يعمل في مجال الكيمياء، لكن أخباره انقطعت عني بعد أن اضطهدت قصيدته التافهة «بروميتيه طليقاً» المنشورة في صحيفة القرصان- الشيطان Le corsaire-Satan. أظن أنه انزعج من رأيي وبقي على انزعاجه. لكني لست شديد الاهتمام بهذا الموضوع. تناهى إلي، أنه شنّع علي كثيراً، بهدف الانتقام طبعاً. بحثت عنه ذات مساء في أحد شوارع باريس لأضربه، لكني فكرت بعدها، أن أفضل رد على تشنيعه هو الصمت، و تركت الأمور تجري في مجاريها ...

- ما الذي حدث بالضبط؟

- لقد روى أشياء قذرة عن جان.. وراح يشيع فكرة أن انتحاري

Twitter: @ketab_n

الفاشل، ليست سوى حيلة دبرتها معها للضغط على والدتي وإجبار زوجها على صرف النظر عن ديوني. لكني أفضل أن أنسى هذا، فهي قصة قديمة. ولا رغبة عندي في رؤيته أو سماع أخباره.

- حدثني بريفا الشيء نفسه حول محاولة الانتحار هذه. قال بأن إرادتك خانت ذراعك فلم تصل يدك إلى قلبك..

- الإرادة، نعم... بالتأكيد. إنها مشكلة حياتي التعيسة.. لكن السم الذي يجري في عروق هذا الحقير، بريفا، ليس هو نفسه الذي يجري في عروق صديقنا لوي مينار. أنت تعرف، نحن أصدقاء مرحلة الشباب الأولى، لا نغفر لبعضنا قدرنا الذي لا يستطيعون إلا مقارنته بأقدارهم. ويعتقدون بأنهم عاثرو الحظ.

- وماذا عن جان؟ كيف حالها؟

اكفهر وجه شارل وتجاوز سؤالي مجيباً:

- أعتقد أنه علي التخلي عنها.

بعد هذا النقاش الذي دار بين صديقين لم يلتقيا منذ زمن بعيد، ويستعلم أحدهما من الآخر عما أصاب حياته، قررنا المشي في شوارع باريس. تظاهر بودلير بأنه يفتش جيوبه بحثاً عن نقود. سبقته لمنع الحرج عنه، ودفعت الحساب. كان يوماً جميلاً من أيام الشتاء. الطقس بارد، ونور الشمس الشاحب يفاجئنا كلما خرجنا من ظل شجرة أو وصلنا إلى ساحة مكشوفة. ذلكم هو الوقت الذي كان بودلير يحب التنزه خلاله في الشوارع المتعرجة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر السين، ثم قادني نحو منطقة مينيلمونتان. لم أكن أعرف متاهة هذه الشوارع الضيقة الملتفّة حول البيوت الصغيرة المتلاصقة المتهالكة، التي كانت تبدو كما لو أنها ستتداعى فوق رؤوسنا كلما تجاوزنا ممراً تفوح منه روائح التفسخ. بيوت فوق بيوت متهدمة، تفوح منها روائح أطعمة فاسدة، وبول،

Twitter: @ketab_n

وفضلات ألقتها هنا وحشية تلك المدينة التي لم يقرر بودلير بعد مغادرتها، حتى ليوم واحد.

كان شارل يحب هذه الأماكن البائسة التي يخيم الحزن عليها وعدم الاستقرار. أماكن مبهرة كمغارة غول كئيبة. مجمعات حقيقية لهذه الكآبة spleen التي كان يزيحها عنه، زاعماً أنه يكرهها، مع أنها كانت تغذي روح الشاعر فيه. صحيح أنه لم ينبس ببنت شفة، لكني عرفت، لاحقاً، أن هذه الفترة كانت أصعب فترات حياته. مفلس، وعاجز عن التركيز على عمله، ويرزح دائماً تحت وطأة الديون، كان يقضي أياماً بأكملها بحثاً عن المال ليعيل عشيقته، ولكي يحصل على المخدرات التي لم يعد يستطيع منها فكاكاً.

لوحة مستوحاة من شعر بودلير حول كآبات باريس

ولكم تجاوز وجبة طعام أكثر من مرة في الأسبوع، لعدم توفر ثمنها، فيلزم بيته أياماً عدة متتالية، لا يبرح سريره لعدم توفر الملابس النظيفة،

Twitter: @ketab_n

ونفاذ الحطب اللازم للتدفئة. قد يكون هذا الوضع هو الذي ولد لديه شعوراً بالانسلاخ عن الطبقة التي ينتمي إليها، وتضامن مع تلك الكتلة البائسة التي تكبر يوماً بعد يوم، وأصبح شديد الاهتمام بأفكار صديقه شامفلوري الاشتراكية.

- إنني أمقت هذا النظام البورجوازي المتعجرف، الذي يحوّل اللامبالاة إلى معيار اجتماعي يحق له استعمار أرواحنا كما يستعمر العالم. قادته يزعمون أنهم متحضرون، ويعتقدون أنهم مخولون بـ«تمدين» أبناء القارات الأخرى الذين يصفونهم بـ«البربريين». إنهم، هم البرابرة! فهذه الشعوب كلها التي يلتقون بها ويحولوها إلى عبيد لمصالحهم رغماً عن إرادتهم، لهم أفضل من هذه العصبة البائسة التي لا تتحرك إلا من أجل منفعتها، وتبرهن على عجزها عن رؤية الجمال الذي تركله بلا تأنيب ضمير... الشهر الماضي، حبست نفسي عشرة أيام بكاملها في غرفتي لقراءة كتابات التقدميين وأولئك الذين يعلنون بأنهم اشتراكيون.

أنا لا أتفق مع رؤيتهم حول الإنسان، ولست مقتنعاً مثلهم، أن الإنسان طيب بطبعه. لكن لدى الاشتراكيين، لاسيما برودون، هذا الأسلوب الملحمي والعنيف الذي يميز التاريخ الحالي، كما أشاركهم ميلهم نحو كل ما هو عالمي. حينما تحين الساعة، سأقاتل، مع شامفلوري، إلى جانبهم فوق المتاريس!

عند نهاية النهار، الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وقد أصاب التعب من كلينا مبلغاً بعد هذا السير الطويل في شوارع باريس، اقترح بودلير عليّ مرافقته إلى غرفته في الفندق، لمشاركته تجربة غير عادية. الغرفة صغيرة، تتكدس فيها الكتب، ورزم الورق والمحفورات، والرسوم الموضوعة فوق الأرض، والملابس التي حاول بودلير، بالتأكيد، ترتيبها بأفضل ما يمكنه في خزانة الفندق المتواضعة. تناول علبة صغيرة من الأكاجو موضوعة فوق

Twitter: @ketab_n

الطاولة المحاذية للسرير، وأخرج منها شيئاً مربعاً مصنوعا من مادة سمراء تشبه الشمع أو الشوكولا. فسألته:

- ما هذا؟

- إنه صمغ مستخلص من القنب، أجاب بودلير.

قدم إلي هذا الشيء الذي حركته بين أصابعي للحظة، فانبعثت منه رائحة قوية أصابتني بالدوار. فقلت له:

- إنه قوي، وليس له هيئة المربى الأخضر الذي كنا نتناوله في فندق بيمودان.

- إنه محضر بطريقة غير معهودة. يجب أن تحرقه وتخلطه بالتبغ، ثم تضعه في غليون أو في سيجارة لتدخينه. تأثيره أقل قوة من تأثير المربى، لكن علي أن أجربه لأني أنوي كتابة دراسة صغيرة حول استخدام المخدرات وتأثيرها. هل تريد أن تشاركني سيجارة؟

هيأ بودلير السيجارة، وقمنا بالتناوب على تدخينها. كان تأثيرها مباشراً، أقرب إلى تأثير الكحول (باستثناء الخدر الذي يصيب الأطراف) منه إلى تأثير الحشيش.

قال بودلير وهو يبصق دخان التبغ المخلوط بالحشيش:

- السنة الماضية، هبط عليّ ما يشبه الوحي. إذ التقيت أخاً لم أكن أعرفه، فبعث فيّ أثراً صوفيّاً أقرب ما يكون إلى الرعب منه إلى النشوة.

- ما هو؟

- كاتب أمريكي، بلغني خبر وجوده عبر مقالة نشرتها مجلة «العالَمين» Revue des deux mondes، يدعى إدغار ألان بو. ليس من فرنسي واحد يمكنه أن يكتب مثله. لكم هو عبقري، لو كنت تدري! إنها حكايات.. تختلط فيها فجاجة الواقع بالغرائبي المرعب. هذا مع أني لم أقرأ منها سوى بعضها. لكنه عالم هو عالمي مضافاً إليه عالم لم أكن أعرفه. عالم نجهله

Twitter: @ketab_n

قبل أن ندركه. إنه الانعكاس الذي يعريك أمام نفسك... إنه يكتب ما أفكر فيه، بدقة الكهنة. إنه غريب.. إني عاجز عن إيصال الانطباع الذي تركته في قراءة هذا الكاتب..

توقف بودلير عن الكلام، ثم تابع حديثه بصوت ونبرة أقل تلكؤاً:

ادغار آلان بو

- ليس في اللغة الفرنسية ترجمة لحكايات بو Poe، التي شهدت ضجة قوية في كل من أمريكا وانكلترا. لانبي في وطنه، كما يقال. أنت تعرف أن الانكليزية هي لغتي الأم الثانية التي تعلمتها بفضل والدتي. لذا، أود أن أكون ناقل هذا الشعر ومترجمه إلى نثر، وأن أترجم من اللغة الانكليزية بعض هذه الحكايات. أريد أن أكون أداة لشهرته، لوحيه، هنا.

قلت له معجباً: - أنت مليء بالمشاريع!

- نعم.. وفي الوقت نفسه، تراني لا أفعل شيئاً. أنا فريسة أرق فظيع، ونوبات اكتئاب مزمنة، وكسل لا أستطيع التغلب عليه. إني أُغرِق نفسي في أكثر من شيء.. أشياء، هي نفسها، تجعلني مكتئباً. لكني التقيت منذ فترة وجيزة بشخص..

- الكاتب الأمريكي؟

- لا. قال والضياء يعمّ وجهه المكفهر الذي تعلوه جمجمة ملساء. «إنها امرأة شابة...»

في هذه اللحظة كان الباب يُقرع، فقطب وجهه فوراً

- إنها جان.

Twitter: @ketab_n

II

كانت ماري دوبران تقترب من ربيعها العشرين، حينما رآها بودلير لأول مرة على خشبة المسرح. باريس كلها كانت تعرف جمالها وشكلها الأنيق، وعينيها الرائعتين الصافيتين وموهبتها المتواضعة. كان بودلير، بصحبة أسولينو، يشاهدان العرض الأول لمسرحية: «الجميلة ذات الشعر الذهبي» في مسرح بورت سان مارتان.. وهي إحدى أسوأ المسرحيات التي لعبت فيها ماري دوراً رئيسياً. مصادفة التاريخ والقدر، شاءت أن يكون بودلير قد نشر حديثاً، قصته الأولى (والوحيدة) الموسومة «La fanfarlo»، وهي لوحة تخلو من المجاملة، عن ممثلة شابة يستوي جمالها مع غبائها، لكن هذا لا يعني أنها كانت حمقاء (فلقائي بها مرة واحدة، لا يسمح لي بإصدار أي حكم عليها). اعتقدت ألسنة السوء أنها وجدت في اللوحة التي كتبها بودلير، مرآة مشكالية للممثلتين اللتين سكنتا حياته.

أستطيع أن أشهد بأن النموذج الذي استوحاه بودلير لكتابة لافانفارلو، لم يكن يمثل جان ديفال أو ماري دوبران، لأن القصة كتبت قبل أن يلتقي هذه المرأة أو تلك. هذا التداخل بين الحياة والعمل الأدبي، سببهما أن بودلير كان مهتماً بالمسرح، وأن الممثلتين مارستا عليه غواية حقيقية.

ماري دوبران فتاة جميلة على الرغم من بدانتها. بالغة اللطف؛فتاة صغيرة شجاعة، تقدم ما تكسبه إلى والديها الفقيرين، البسيطين

Twitter: @ketab_n

ماري دوبران

المريضين. حينما علم بودلير بتفانيها إزاء والديها، وقع في غرامها. وكما حدث مع جان، أراد أن يتعرف إليها بطريقة مثيرة. غداة عرض 15 آيار، وهو عيد العذراء، قرر أن يرسل إليها باقة باذخة من الورود الغريبة، مرفقاً بها بعض أبيات من شعره. وبما أنه كان مفلساً، فقد قرر أن تقوم السيدة أوبيك بهذه المهمة، بعد أن اخترع ذريعة لكي يأخذ منها بعض الفرنكات (أعتقد أن الذريعة كانت أن أحدهم قد نشل ما كان يحمله من نقود قليلة، أو أنه أضاعها في نويي، أثناء زيارته للوكيل القانوني). تأثرت الفتاة كثيراً بتصرفه هذا، فقامت بينهما، في بداية الأمر علاقة صافية وعفيفة- كان بودلير يحب أن يلعب دور الصديق وكاتم الأسرار، لقناعتة بأن هذه العلاقة ستسبق علاقة العشق. عليَّ القول، أن هذه الأيام الأولى من التمنّع

Twitter: @ketab_n

الجنسي، لم يكن سببها المثالية التي كانت تميّز الحب الرومنتيكي، إنما لأنه لم يكن متاكداً بعد من أن مرضه لم يعد معدياً، أضف إلى هذا إحساسه العميق بتأنيب الضمير، وهو يتصور نفسه معها في سرير واحد. لا شك في أن السبب الحقيقي كان جان. ومع أنه كان مقتنعاً بأن هيامه بـ«فينوس السوداء» كان قد أصابه الوهن الشديد، فقد كان يتعذب باستمرار حينما تراوده فكرة التخلي عنها. الحقيقة، أن علاقته بجان مرت بفترات من الانقطاع، منذ محاولته الانتحار في شهر حزيران من عام 1845. بعد فترة النقاهة، هرب شارل من الشقة الواقعة في شارع لافام سان تيت. إلا أن إفلاسه دفعه للانتقال إلى شقة العائلة الواقعة في ساحة الفاندوم. وهناك، سرعان ما اصطدم بتصلب زوج أمه، الذي لم يتحمل الطريقة الفاضحة التي يعيش فيها الشاب، فانتهى الأمر به للعودة إلى جان، دون أن يعيش معها حياة مشتركة، إذ كان ينام عند الأصدقاء قبل أن يستقر في الفندق. ومنذ عودته إليها، كان يخطط سراً لقطع علاقته بها نهائياً، منتظراً اللحظة المناسبة ليحسم الأمر. كانت تبدو هذه القطيعة أمراً لابد منه، لكن تصميمه كان يزداد تلاشياً مع مرور الزمن، وكانت الشجاعة تعوزه باستمرار. في هذه الفترة، التقى بالممثلة الشابة المعروفة ماري دوبران.

وكما كتب حول الرسام دولاكرواعبارة، هي في حقيقة الأمر تعبير عن نفسه، إذ يقول: «عاشق للعشق بهيام»، ولم يكن قادرا على العيش بدونه. حينما نما لديه شعور بأنها كانت تتخلى عنه، كان لا بد له من البحث عن موضوع يعيد إليها شعلة الشوق إليه، وهذا الشيء، كان ماري دوبران. بعد هذا، ليس عليَّ أن أجعل القارئ يفهم بأنه لم يكن مبالياً بعشيقته الأولى، وأنه لا يفكر إلا بهجرها أو خيانتها. كانت غيرته المرضية تستيقظ ما أن تهدده بتركه، وكبرياؤه (وأي كبرياء رهيب!) كان ينتصر في كل مرة، مثيراً لديه

Twitter: @ketab_n

اندفاعات من الغضب، ومشاحنات وحشية، ونوبات من الدموع. مزاجه نحو جان كان متبدلاً كتبدل الطقس الباريسي، وكان يلعن نفسه لهذا التردد الذي كان يحكم عليه بالجمود، سواء ماكان يخصها أو في ما يخص عمله أو أي شكل مضجر من أشكال الحياة اليومية.

جان أيضاً، كانت لها شخصيتها، و لها نصيب في تلك الأهوال العاصفة التي كانت تجتاح مساكنتهما. فإذا ما حصل وانفجرت في غضب عنيف، كانت تغلق الباب على نفسها في أغلب الأحوال وتلوذ بصمت كان، بطبيعة الحال، ينتهي ببودلير إلى حالة من الهيجان الجنوني. إن استمرار هذا الصمت الثقيل أياماً، بل عدة أسابيع في بعض الأحيان، كانت له أسباب منوعة. لكن سببه، في أغلب الأحيان كان يعود إلى حالهما غير المستقر، أو الإنزعاج الذي كان يبديه كلما توجهت إليه بالحديث. لكن، في أوقات أخرى، كان بلا سبب؛ إما لأنها جائعة، أو عطشى، فتحمله مسؤولية هذا الجوع أو العطش، أو لأنها رأت كابوساً يلعب فيه بودلير دور المذنب. كانت جان تعاني منذ الطفولة بعض الصعوبة في التمييز بين الحلم والواقع.

خلال هذه المشاجرات التي لانهاية لها، والتي لم يكن بودلير قادراً على فهم أسبابها، والتي كانت ترفض دائماً تفسيرها، كان يسميها «الصامتة الكبيرة». كان إحساسه بالمسؤولية وبالذنب يربطه بعشيقته الكاريبية وكذلك الوطأة الثقيلة للقيود غير المرئية التي تربط بينهما، إضافة إلى المتعة الجسدية التي كانت تمنحه إياها، والتي كان يخشى فقدانها ذات يوم. كانت بالنسبة له، بمثابة المخدر والسم مثل اللودانوم، الذي كان يريحه سواء من الألم النفسي أو من الكآبة. كانت جان تحترم العهد الذي قطعته له، وغالباً ما كانت تذكره به. لا شك في أنها كانت قلقة على مستقبلها، لا سيما وأن العقود مع المسرح قد أصبحت نادرة، ثم جاء هذا الطفح الوردي (المرض الجنسي) ليوسخ جسدها لأنه ظهر

Twitter: @ketab_n

عليه قبل ظهوره على جسد بودلير، وربما كان ينذر بآثار متقدمه على تلك التي قد تظهر على بودلير.

ذات صباح من شهر كانون الثاني لعام 1848، جاءت جان للبحث عن وثائق في غرفة الفندق التي كان يسكنها بودلير، في شارع بابيلون، لكي تعطيها، «بسرعة قصوى» إلى نارسيس أنسيل. وكانت السيدة أوبيك قلقة بدورها، بسبب «التقرحات التي أصابت حلقها وبلعومها» والتي كانت تشكو منها على إثر مرض أصابها، قبلت في نهاية الأمر أن تسدد قسماً كبيراً من ديونه التي وصلت إلى ثمانية آلاف فرنك، وهو مبلغ يبقى كبيراً، لكنه لا شيء، قياساً بالمبلغ الذي كان عليه تسديده لها على الرغم من ممانعة زوجها (لكن هذه الفترة المريحة لم تدم طويلاً، لأن ديون بودلير ستبلغ 21236 فرنكاً بعد سنتين).

لم يكن بودلير في الغرفة حينما دخلتها جان. كان بصحبة شامفلوري يعملان على تصميم مطبوعة سياسية كتباها معاً تدعو إلى الاشتراكية. بينما كانت تأخذ الرسائل الموجودة فوق المكتب الصغير، والتي كان عليها تسليمها إلى أنسيل، وضعت جان يدها على قصيدة لم تقرأها أبداً من قبل، وهو ما أثار دهشتها، لاسيما وأنها اعتادت على كتابتها بإملاء من بودلير، الذي كان يعمل على إنضاجها خلال أسابيع أو سنوات في داخله، قبل أن يقرر وضعها على الورق. حينما عاد شارل إلى غرفته في نهاية النهار، وجد جان جالسة فوق السرير ورأسها بين يديها. ففهم أنها كانت تبكي بصمت.

- ما بك؟ قال لها بنبرة تنطوي على اللوم.

انسكبت دموعها فوق ورقة كانت تمسك بها، فعرفها فوراً.

قالت بشفتين مزمومتين:

- هذه القصيدة، لم تكتبها لي؟ إنها من أجلها! أليس كذلك؟ هذه

Twitter: @ketab_n

الممثلة التي تخرج معها. باريس كلها تعرف ذلك! لم أسألك يوماً أن تكون وفياً لي، لأني أعرف أنك لا تستطيع ذلك، ثم إن الأمر لا يهمني. لكن يمكنك أن تكون متكتماً على الأقل! ألا يمكنك مراعاة خاطري؟ ولماذا كان لا بد أن تكون ممثلة.. مثلي؟ أيها الوغد!

دعكت الورقة على شكل كرة، ورمتها في وجهه. جن جنون بودلير، فسارع إليها وأمسك بها بقبضة يده، وصفعها بالأخرى.

- مالذي تقولينه، صاح غاضباً؟ لماذا تأتين لتعذيبي في اللحظة التي أعود فيها إلى غرفتي؟ اتركيني بسلام، أيتها الأفعى!

تصنع بأنه يتوجه نحو الباب، لكنه توقف فجأة عند العتبة وهو يعرك حاجبيه. ثم عاد نحو جان:

- ما الذي يجعلك تقولين بأنها ليست لك؟ فأنت لم تفهمي الشعر في يوم من الأيام! وفضلاً عن هذا، أنت غيورة، بسبب الوقت الذي أقضيه في كتابتها ولا أخصصه لك. أنت مثل سائر النساء، تريدين أن أبقى متواضعاً بلا موهبة، لكي تحتفظي وتتصرفي بي في دفء سجنك الشخصي!

- سجني؟ كيف تجرؤ على قول هذا؟ هل علي أن أذكرك بالعهد الذي قطعته لي؟ والمضايقات التي تسببت لي بها، والبؤس و.. وهذا المرض اللعين الذي أنت سببه الوحيد! لماذا تجبرني على تذكيرك بهذا كله؟

بعدها عادت لتغطي رأسها بين يديها باكية. كان بودلير غبياً ومحتاراً ومتفاجئاً. باغتته نوبة من عقدة الذنب الرهيبة. تناول الورقة وفتحها، ثم جلس إلى جانبها فوق السرير، وقال لها بصوت هادئ حنون:

- انظري، القصيدة تبدأ بـ«يا طفلتي، يا شقيقتي...»، وأنت تعرفين بأنه ليس هناك غيرك من أناديه بهذه العبارات.

- كذاب! صرخت جان. أنا أعرفك جيدا، كما أعرف الكلمات التي

Twitter: @ketab_n

تستخدمها حينما تتحدث عني في قصائدك! فأنت تقارن عيني دائماً بـ«الهوّتين» / وبالطين أو بالظلمة! لكنك لم تقارنهما أبداً بـ«السماء»! أو بـ«الليل» وبـ«النجوم»..

- كلمة «سماء» هنا تحيل إلى الرسم، أيتها الغبية!

- نعم.. طالما اعتقدت بأني غبية، أليس كذلك؟ عاجزة عن فهم أي شيء.. لكن اسمع جيدا!

ندت عنها ابتسامة سيئة، وانتزعت القصيدة من بين يديه وقرأت: «الشموس المبللة/في هذه السموات الغائمة/ هي لروحي مفاتن /شديدة الغموض/ من عينيك الغادرتين..»

- ترين جيداً، قاطعها بودلير، الصفة «غادرتين: تعنيك أنت».

- اسمعني!

- أسمعك..

- هذه المدينة، التي تصفها في هذه القصيدة، أعرف أنك تعني بها أمستردام. ولا تقل عكس ذلك، فأنا أعرفك كما أعرف أصابعي!

- لنقل. إلى أين تريدين الوصول؟

- سماء أمستردام، هي سماء «ضبابية»: تماماً و: «مبللة».. بمعنى أنها صافية، بل شديدة الصفاء، وأنها تتراوح بين الرمادي والأزرق الشاحب.. وهاتان العينان اللتان تقارنهما بسموات أمستردام، ليستا عيناي، لأنهما سوداوان!

بقي بودلير للحظة مشدوهاً، متوتر الأعصاب تعوزه المبررات. نهض فجأة وقد غمره الغضب:

- مهما يكن؟ هذا شعري، إنه فني! لست مخولة للحكم عليه. من يلهمني يتجاوزني ويتجاوزك. أنت، وكل إناث الأرض . لستن سوى ذرائع وموضوعات للدراسة، ولا شيء غير هذا! أكتب ما أريد وكما يحلو لي! هذه

Twitter: @ketab_n

القصيدة، هذه القصيدة لوحدها أهم منك! منا! وهي التي ستعيش بعد موتنا.

عادت جان إلى البكاء.

- أنت محق. قالت بين نشجتين، أعرف بأنك محق.. لكن أنا، أنا الآن موجودة، ولا رغبة لي في الخلود.. ثم.. إن هذه القصيدة هي أجمل ما كتبت على الإطلاق.. وهي غير موجهة إلي.. لماذا تبين أنك متفائل ورومانتيكي معها، بينما لاتعيش هذه الحالة معي أبداً؟. حينما أقرأك، أشعر بأني وحش أو مصاصة دماء! لكن هذه ليست أنا! إنها لا تعبّر عن حقيقتي.

هنا، تذكر بودلير المشاجرة التي جرت بعد محاولته الانتحار وتأثر بها لدرجة البكاء. ولمّا عاد إلى صوابه، وجد نفسه ممداً في مكان مجهول، صدره بين ملزمتين، وألم حاد يضغط على قلبه. سمع أصوات محادثة قريبة منه، لكن يبدو أنها كانت بعيدة وغير حقيقية، كما لو كان يسمعها في حلم. كان الصوت الأول، صوت رجل ذي لكنة جنوبية (استوائية) يقول: «حينما يريد المرء قتل نفسه فعلاً، فهو لا يتصرف بمثل هذه الطريقة..» والصوت الثاني، كان صوتاً نسائياً ومألوفاً يقول: «أنت مخطئ في قولك هذا. لو سمعك لغضب منك غضباً شديداً. وأحذرك من أنه قد يكون شديد العنف!». كان ذلك صوت جان. عندها فتح شارل عينيه، وفهم أنه كان موجوداً في أحد أقسام الشرطة. كان ممدداً فوق مرتبة، صدره عار ومعصوب. « .. لافائدة من نقله إلى المشفى. الجرح سطحي، وقد أصبح الآن بعيداً عن الخطر»، قال الرجل الذي كانت جان تتحدث إليه، والذي تبين في ما بعد أنه كان أحد ضباط الشرطة. حينما رأت أنه كان يفتح عينيه، اتجهت جان نحوه، وجثت على ركبتيها ببطء، ونظرت إليه نظرة تنطوي على شيء من الإشفاق والقسوة.

Twitter: @ketab_n

- لم تصب بشيء، تمتمت. قال الطبيب بأن الألم سيتلاشى خلال عدة أسابيع على أبعد تقدير.

- وأمي؟

- لقد تم إخطارها. ستأتي غداً لزيارتك.

وقف شارل بعد أن أدرك بأن الجرح لم يكن خطيراً، وبلّغ بأنه يستطيع المغادرة فوراً. وقّع على بيان الإخلاء الذي كان الشرطي يناوله إياه، وخرج مع جان وهما يتمايلان، و هو متشبث بها وممسكاً بكتفيها بقوة. حينما استيقظ في شقتها، صبيحة اليوم التالي، كانت تنهال على صدره بقبضة يدها بقسوة وتقول والدموع في عينيها:

- أردت أن تتخلى عني! أردت أن تتركني وحيدة، لأموت بهذا المرض، لا سند لي بدونك ولا حب.... لا أريد أن تتركني! لا أريد أن ترحل لوحدك. لا تتركني بعد اليوم أبداً.

- لا، ياحبيبتي، أجابها. لقد فعلت هذا من أجلك.. الوصية.. كانت تلك الوسيلة الوحيدة.. الضمان الوحيد، الذي يتيح لك العيش ومعالجة مرضك.. هذا الانتحار، كان من أجلك!

اقترب بودلير من جان وهو يجفف دموعها بأصابعه الحنونة، ثم أخذها بين ذراعيه قائلاً:

- لا أستطيع تحمل رؤية دموعك.. أحبك يا جان.

تعانقا ثم قضيا ليلة حب حميمة. في اليوم التالي، ندم بودلير لأنه لم يستغل فرصة ذلك الشجار لكي يتركها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

iii

اندلعت الثورة في شهر شباط من عام 1848. فقد كان التجار والبرجوازيون ممتعضين بسبب زيادة الضرائب غير المباشرة، ومن السياسة الجمركية المتبعة من قبل حكومة غيزو Guizot، وراح العمال يرفضون «استغلال الإنسان للإنسان»، متأثرين في هذا، بالإيديولوجيات السائدة في تلك الفترة. فقد وضع برودون في أذهانهم فكرة أنهم سادة حياتهم، بدءاً بوسائل الانتاج، حيث كان ينادي بصوت مرتفع وقوي «المُلكية هي السرقة»، وكان العمال يرددون «يا عمال العالم اتحدوا!». قبل أن تقوم حكومة غيزو بنفي ماركس من فرنسا، حاول هذا الأخير أن يشرح لبرودون معنى هذه التعليمة إضافة إلى ضرورة إلغاء الطبقات الاجتماعية. غيزو، الذي لم يشعر بهبوب الرياح، كان يراكم الأخطاء تلو الأخطاء، ففوجيء بتصميم المتظاهرين. الوقت لم يكن للسياسة، بل لهروب ممثلي سلطة تموز الملكية. في 22 شباط، كان كل من بودلير وكوربيه وشامفلوري والموسيقي بروماييه، يركضون من مكان عصيان لآخر، وقد هيجهم الاضطراب القائم، يرتدون ملابس حمراء (في هذه المناسبة وضع بودلير ربطة عنق بلون أحمر قاني) تعبّر عن خياراتهم، ويبحثون، عبثاً، عن الشعلة التي ستحول باريس عما قريب إلى جمر متقد. فعثروا عليها بعد أن توقف بحثهم عنها. في المساء، بعد أن فشلوا في ساحة الكونكورد، دخلوا في كتلة المتظاهرين الذين لم يكونوا بعد مسلحين إلا بالعصي، ولم يكونوا يسعون عندها إلا إلى حماية

Twitter: @ketab_n

أنفسهم من هجمات الحرس الوطني. بين الجموع، تعاطف بودلير مع جاره في الجهة اليمنى، وهو عامل قريب من عمره، و تبادل معه بعض كلمات التعاطف. زوجته، التي كانت تحمل فوق ذراعها وليداً لايبدو أنه نائم أو ميت من البرد (لأن الحرارة كانت قد انخفضت، في ذلك المساء، إلى ما تحت الصفر)، ظلّت واقفة إلى جانبه دون أن تقول شيئاً، وتردد، كإنسان آلي وهي ترفع يدها، الشعارات الثورية التي كانت ترددها الجموع في فترات منتظمة.

- أين أصبحت الأمور؟ سأل بودلير.

- الإشاعة تقول إن غيزو سيقدم استقالته هذا المساء، أجاب العامل. سنربح بكثرة عددنا وبدون إسالة الدماء!

- يجب أن تسيل الدماء! صاح بودلير. علينا كنس كل شيء! نريد ثورة اشتراكية مطلقة! (هذه الحماسة العنيفة مدهشة بالنسبة لشخص طالما صرح، حتى هذه اللحظة، بأنه معارض لنظام الحكم الجمهوري.)

- بودلير والعامل قررا أن يقتربا من الخطوط الأولى للجبهة، ليريا ما كان يجري. وبقيت المرأة وطفلها بعيدين، بينما تبعهما شامفلوري والآخرون، حيث شقوا طريقهم بصعوبة في تلك الكتلة الكثيفة من المتظاهرين. بودلير والعامل الشاب، اللذان كان الواحد منهما يدفيء الآخر خلال الطريق، وصلا بسرعة إلى الساحة، تقريباً في مواجهة صفوف الحرس الوطني المتراصّة مع متظاهرين آخرين. رفع العامل عصاه صائحاً: «الموت للبرجوازيين! الحرس معنا!». لا شك أن ما جرى بعد هذا كان سببه التحرك العصبي. أحد الحراس، وهو شاب ذو وجه طفولي، يجمده البرد، لا يتجاوز العشرين من عمره، رأى العامل وهو يصيح ملوحاً بعصاه، فظنها بندقية، فسارع إلى الضغط على زناد ببندقيته الحقيقية التي كان يمسك بها وهو جاثٍ، بالقرب من وجنته. انطلقت الرصاصة،

Twitter: @ketab_n

فرآى بودلير، بعينيه الزائغتين، رفيقه، الذي تعرف عليه منذ قليل، وهو يخر صريعاً على الأرض. أصابه الهلع، فقرفص يتحسس ذراع العامل ليجس نبضه، لكن السيف سبق العذل. بعد هذا الحادث بلحظة، بدأ التمرد. هذه الواقعة أصابت بودلير ورفاقه في الصميم فثارت ثائرتهم، وبحثوا عن زوجة العامل، قلقين عليها، لكن دون طائل, عندها سارعوا إلى صحيفة «لابريس»، حيث كتبوا مقالة سريعة حماسية يستنكرون فيها ذلك «العمل البربري» الذي جرى أمام أعينهم. لدى خروج بودلير من مقر الصحيفة، كان الليل قد بدأ يرخي ظلاله، وباريس تزمجر كوحش يتأهب للانقضاض على فريسته. ما يزال بودلير ورفاقه ثائرين، فخلصوا إلى أن اللحظة قد حانت لتدبر السلاح. كانت معارك متفرقة قد اندلعت من شارع لوفالوا لتصل إلى شارع سانتونوريه. جادة بومارشيه وحي الباستيل برمته كان مستعداً لبدء المعركة. ولما لم يجد بودلير ورفاقه ما يتسلحون به، ناموا بضع ساعات في بيت شامفلوري، قبل أن يلقوا بأنفسهم بين الجموع عند الفجر، متعطشين للانتقام وصنع البطولات. لكن فترة الصباح كانت مشوشة، فلم تندلع أية معركة فوق المتاريس التي وقعوا عليها في طريقهم. عندها قرروا انتظار أن يحدث شيء ما، في مقهى لاروتوند المواجهة لمدرسة الطب، حيث كان يجتمع الفريق الصغير الذي يحرر مجلتهم «**الاشتراكية والإنسانية**» (التي لم يصدر منها بعد أي عدد) والتي سماها بودلير مجلة **الخلاص العام**. لكن المتظاهرين المتجمعين في منطقة الهال، توحدهم الحماسة الثورية وإرادة التخلص من الأوضاع القائمة، وتحت أنظار كتيبة سلاح الفرسان الذين كانوا يناورون لمحاصرتهم في ساحة الفيكتوار (الانتصارات)، هؤلاء المتظاهرين رأوا، بانفعال ودهشة، الحرس الوطني الذي أطلق النار عليهم في العشية، وهو يصطف إلى جانبهم ويهزم كتيبة سلاح الفرسان. في هذه اللحظة نفسها،

Twitter: @ketab_n

دخل أرمانتيس كالمجنون إلى مقهى لاروتوند. ولدى رؤيته بودلير وتوبان وشامفلوري، اتجه نحوهم وهو يصيح بصوت عال:

- هناك قتال يدور في حي سان دوني!

- إلى الهجوم! رد بودلير، وهو ينهض بسرعة.

عادوا بلا كلل إلى بحثهم عن مواقع القتال، وتجاوزوا نهر السين بهدف الوصول إلى منطقة الهال. جذبتهم أصوات طلقات نارية من ناحية ساحة شاتليه، ففيروا اتجاههم وصعدوا شارع لوتامبل حيث وقعت بعض المشاجرات العنيفة. رجل له لحية صهباء يحمل خرقة بيضاء ملوثة بالدماء كان يصرخ وهو يهز بندقيته «لقد استقال غيزو! النصر! غيزو قدم استقالته! تحيا الجمهورية!». في وسط هذا الغليان، كان الملك لوي- فيليب، في أحد القصور الملكية، يسلم مقاليد السلطة إلى غريميو قبل أن يهرب في عربة عبر شارع نويي. كان ذلك قبل أن يستولي المتمردون على قصر التويّوري. عند غروب الشمس، كانت باريس المفعمة بالحقد والحماسة، التي تشبه ولع بودلير بالأفيون، كانت عبارة عن نار ودم، حيث المتاريس في كل مكان، والعربات تغص بالجثث.

خلال هذه الاضطرابات، كان بودلير يهيم وسط هذه اللجة بعد أن أضاع رفاقه، باحثاً عن سلاح. المصادفة تصنع أشياء كثيرة في بعض الأحيان، وهي من جاءت إليه. إذ بينما كان في شارع بوشيه، كانت إحدى واجهات أحد مخازن السلاح قد كسرت، وتم نهب ما فيه. انخرط بودلير مع جماعة المخربين، واستولى على بندقية صيد. وبعد أن خرج من المجموعة التي كانت تقوم بالنهب، وجد نفسه أمام جول بويسون Jules Buisson، وهو أحد الرفاق الذين التقى بشامفلوري وكوربيه في مكان قريب. راح الجميع يستولون على بنادق إضافية، وأخذوا ما يحتاجون إليه من الذخيرة. وبعد أن لحق بهم إلى المتاريس، وزعوا البنادق على أصدقائهم.

Twitter: @ketab_n

لقم بودلير بندقيته وصاح: «لنعدم الجنرال أوبيك!»، وأطلق طلقة في الهواء. هذا الجنرال، الذي عُين حديثا على رأس مدرسة البوليتكنيك، كان يحاول يائساً احتواء تلاميذه (جميعهم كانوا يتحرقون للمشاركة في التمرد)، دون أن يراوده الشك في أن ابن زوجته كان يدعو إلى إعدامه!. خلف المتاريس (التي كانت في الحقيقة منخفضة جداً والتي لم تكن تغطي سوى ما فوق ركبته) برهن بودلير عن شجاعة أصيلة، دون أن يعرف أحد فعلاً، ما إذا كانت الطلقات التي كان يطلقها أصابت هدفها أم لا. لكن هذا كله كان يشكل جزءا من المشهد الذي ترى فيه بودلير فوق المتاريس، بقبعته الرائعة، وقفازيه الورديين وبدلته الأنيقة، وهو يطلق النار بين الجمهوريين ذوي الملابس الملطخة بالطين وبالدم. ترى ماذا كانت قناعاته في هذه اللحظة بالتحديد؟ هل كان يقاتل من أجل البورجوازيين أم من أجل الفقراء أو العمال، أم من أجل الجمهورية، أم في سبيل الاشتراكية؟ لاشيء من هذا كله بالتأكيد. هناك أولاً حقده على ظروف حياته، وعلى أولئك الذين كان يعتقد أنهم المسؤولون الرئيسيون عما وصلت إليه مثل: زوج أمه، والوكيل القانوني والدائنون (أي العسكريين والبورجوازيين)، أضف إلى ذلك حبه للفوضى والتعبير عن الانتقام الشخصي أكثر من التعبير عن الانتقام الاجتماعي، لكن لذلك كله علاقة أيضاً بفكرته حول ما هو عالمي أو شامل، لأن «الميل إلى التدمير»، و«الخيانة والانتقال» يرى فيه بودلير أساس الفوضى، الكامنة في قلب كل إنسان، وبودلير، على أية حال، لم يكن لديه ما يخسره. أضيف إلى هذا، أنه لاشك في صدق بودليرالذي، على الرغم من ملابسه الأنيقة وأسبابه الملتبسة، كان في ذلك اليوم يخاطر بحياته.

في الأيام التالية، أصبح بودلير مهتماً بالشأن العام، فصار يشارك في اجتماعات الجمعية الجمهورية المركزية التي كرست عودة بلانكي، ودبج عدة مقالات في جريدة **الخلاص العام**، بريشة مغموسة بالحرقة التي لم

Twitter: @ketab_n

تعد تشبه حماسة شامفلوري أو توبان المعلبة. ويشار إلى أنه كتب العدد الأول من الصحيفة الصادر في 27 شباط، خلال ساعة في مقهى تيرلو Turlot، ومول طباعته الأخوان توبان بمبلغ 80 فرنكاً. لكن ما أن خرج هذا العدد من الطباعة، وبيع بالمناداة، أو في بعض المكتبات والمقاهي، لاحظ كل من بودلير وشامفلوري وتوبان أن الاثنتي وأربعين دورية التي صدرت في اليوم التالي للعصيان، بعد تحرير الصحافة، كانت تحمل اثنتان منها على الأقل، الاسم نفسه. لذا لابد من شيء يميّز صحيفتهم (**الخلاص العام**) عن الصحف الأخرى، فطلبوا من كوربيه أن يرسم لهم صورة تصبح علامة فارقة للأعداد القادمة، وتحتل صفحاتها الأولى. قدم لهم كوربيه رسماً ملتبساً، يتضمن بعض المتمردين وهم يرمون الحجارة ويطلقون النار على طول أحد المتاريس. وافق الجميع على أن تتصدر هذه اللوحة الصفحة الأولى من العدد الثاني، الذي وضع للبيع في الأول من شهر آذار.

بقي هذا العدد يتيماً. صحيح أن مبيعات العدد الأول كانت مقبولة، إلا أن الباعة الجوالين، وباعة المزاد والعمال العاطلين عن العمل، الذين كلفوا بمهمة بيعه استأثروا بالنقود. وبودلير نفسه، اضطر لتغطية العجزالمالي، فقام، هو نفسه، ببيع العدد الثاني من صحيفته في شارع سانت اندريه ديزار. المحصلة البائسة لهذا البيع لم تكن كافية لتمويل عدد ثالث من صحيفة **الخلاص العام**، فتوقفت عند هذا الحد.

لكن توقف الصحيفة، لم يمنع بودلير من العمل لوحده، فسعى إلى وضع مقالاته في منشورات اشتراكية أخرى، واقترح على أصحابها نشر ترجمته لأعمال إدغار بو. وأعربت مجلة **حرية التفكير**، التي كانت تبث أفكار فوريه، عن اهتمامها بالاقتراح، فعمل بهمة وحماسة لترجمة القطعة الأولى من أعمال هذا المؤلف الأمريكي الموسومة **وحي جذاب** Révélation magnétique. وكان الثمن الذي قبضه لقاء هذا العمل جيداً. وما أن انتهى

Twitter: @ketab_n

من ترجمة المقطع الأول، حتى نهضت جان ـ التي كانت تدخن بصمت إلى جانبه في الغرفة-، لتفتح الباب لشامفلوري الذي كان يقرعه بقوة. دخل دون أن يحيي جان، التي بدت منزعجة لهذا التصرف، بغرته المتمردة وبؤبؤي عينيه الواسعين المعبرين عن الفظاظة. وبدا عليه عدم الارتياح.

- هل قرأت هذا؟ سأل بودلير بعصبية، بعد أن وضع أمامه آخر عدد من صحيفة لارغيس l'argus.

- لا، أجاب بودلير.

- اقرأ هذه المقالة!

- مقالة نادار؟

- نعم.

قرأ بودلير المقالة، ولم يستطع منع نفسه من الابتسام، وقد استمتع رغماً عنه بروح هذه الموهبة السامة التي تتحدث في كل المواضيع. فجأة أصبح نادار مشهوراً برسومه الساخرة (الكاريكاتيرية) في صحيفتي **شاريفاري و لوكورسير-ساتان**، إضافة إلى مقالاته.

- هذا ما يمكن أن يسمى بالنقد العنيف!

- لم يسبق لأحد أن شتمني بهذه الطريقة! صاح شامفلوري بغضب لم يتمكن من تخفيف حدته. نادار هذا، إنه أكبر غادر وأزعر وشائن...

قاطعه بودلير:

- والله، لقد حدث وأن كتبت أيضاً ضد بعض أصدقائي.. تذكر مينار.. وحتى بانفيّ نفسه، المسكين...

- اذهب إلى صديقك نادار وأخبره بأن هذه الإهانة ستسوى بالمبارزة!

- هيا، تعقل، يا شامفلوري! أنا نفسي استثرت للمبارزة منذ فترة قريبة، علماً أنه لم يكن لها أي مبرر.. ولا ينقضي شهر وإلا أكون عرضة لهجوم حاد، كاراغيل وغيره لايتركون فرصة إلا ويغتالوني بمقالاتهم.

Twitter: @ketab_n

الموضوع لا يستحق هذا العناء. إنس الأمر، ولا تضيع وقتك في شجارات لا طائل منها.

- إني أطلب المبارزة، ولتكن أنت وتوبان شاهدين! قال شامفلوري محتجاً.

- كما ترغب، أجاب بودلير. إذا كنت مصراً على تعريض حياتك للخطر من أجل موضوع زهيد...

- الأمر يتعلق بشرفي!

صبيحة اليوم التالي، قرع كل من توبان وبودلير باب نادار باكراً، لكنه لم يكن موجوداً في بيته آنذاك. فتركا له ورقة تحت الباب، كتبا فيها أنهما سينتظرانه طيلة اليوم في المقهى الواقع عند طرف الشارع الذي يسكن فيه. انتظرا حتى المساء دون أن يظهر له أي أثر. ، فغادر توبان صديقه بودلير مع هبوط الليل بسبب ارتباطه بأحد المواعيد. فانتهز بودلير الفرصة لتناول العشاء، لا سيما وأنه لم يذق الطعام منذ الصباح.. وبينما كان على وشك تناول قهوته، ظهر المدعي الشهير: تورناشون- نادار، بشعره الأصهب المبعثر، وعينيه الطافحتين دائماً بالخبث:

- ما ذا يجري؟ سأل نادار بودلير. بعد أن طلب فنجاناً من القهوة.

- إنها مقالتك حول شامفلوري.. لقد أبلغني بأنه لم يستسغها على الإطلاق..

- وماذا بعد؟ وماذا يترتب على هذا؟

- يعني أنه يتحداك في المبارزة!

- حسناً..

- سأكون أنا وتوبان شاهدين. هل تقبل التحدي؟

- وهل لدي خيار آخر؟ مسكين هذا الشيء الصغير الحقير.. لكن عليه أن ينتظر عودتي، لأني سأسافر مع أدريان إلى فارسوفيا، لمساعدة

Twitter: @ketab_n

البولونيين المضطهدين. يقال أنك أبليت بلاء جيداً فوق المتاريس. إذا شئت، يمكنك الانضمام إلينا للقتال معاً هناك!

- لا أستطيع. لديّ التزامات كثيرة هنا! سأشارك غداً في اجتماع سيتحدث فيه كل من هوساي Houssay e[5] وإيسكيروس Esquiros[6].. ثم علي أن أنهي ترجمة مطلوبة مني الشهر القادم.

- كما تريد. قال نادار وهو ينهض. أخبر شامفلوري أنني لست من النوع الذي يهرب، لكن ليس الآن. اعمل على ألاتتراخى عزيمته حين عودتي!

عاد بودلير إلى بيته ليستكمل ترجمته. كانت جان ما تزال في الغرفة، صامتة ساكتة. شارل، الذي كاد أن ينساها منذ عمله الحماسي للقضية الجمهورية، فوجيء تقريباً بها. كما لو أنه نسي حتى وجودها. لاشك في أن الصورة كانت أفضل شاغل عن المرض والكآبة. منذ أكثر من شهر، لم ير ماري، إلا أنه كان يرسل إليها، من وقت لآخر، رسائل حارة للإبقاء على شعلة الحب متقدة بينهما. أما جان فقد ربطت شعرها على شكل شينيون، فبدت أجمل من أي وقت مضى، فلام بودلير نفسه على أنه فكر بالتخلي عنها. ربما لم يعد يحبها، لكن هل كان بوسعه الكف عن رؤيتها، أو عن هذا الحضور الصامت الذي كان يشكل عالمه الخاص الآخر؟ في هذه اللحظة، وبينما كان يركز عينيه عليها كما لو كانت إحدى لوحات فيرمير Vermeer[7]، اقتنع تماماً بأنها كانت امرأة حياته. توجه إليها وطبع قبلة فوق جبينها، ثم عاد إلى العمل. بدورها نظرت جان إليه، لاسيما وأن

---

(5) أرسين هوساي، أو هوسيه (1815-1896)، أديب فرنسي كتب في كل الأنواع الأدبية تقريباً.

(6) الفونس ايسكيروس (1812-1876)، أديب رومانتيكي فرنسي.

(7) يوهان أو جان فيرمير، رسام هولندي (1632-1675).

Twitter: @ketab_n

غضبها قد تلاشى بعد هذه القبلة. نهضت وهمست في أذنه: «لاتنس، لاتنس أبداً بأني أحبك، وسأحبك إلى الأبد.»

في يوم عيد ميلاد بودلير السابع والعشرين، تلقى الجنرال أوبيك من لامارتين[8]، خبر افتتاح سفارة لفرنسا في القسطنطينية، حيث سمي فيها «مبعوثاً استثنائياً ووزيراً مطلق الصلاحية» ممثلاً للحكومة الانتقالية.

تلقى بودلير رسالة من أنسيل، يخبره فيها أن صحيفة في مدينة شاتورو *Chateauroux* على وشك الصدور باسم *Le représentant de l'Indre*، يبحث ممولوها لها عن رئيس تحرير، وأنه اقترح عليهم، نظراً لعلاقته الوثيقة بهم، بأن يعرضوا هذا المنصب على شارل بودلير، بعد أن تناهت إليهم شهرته الحديثة (المتواضعة). ذكر أنسيل في رسالته أن هذه الصحيفة، التي ينبغي أن تصدر مع بداية شهر تشرين الأول، ستكون ذات اتجاه شديد المحافظة، لايتناسب مع مع أفكار بودلير السياسية في تلك الفترة. لكنه رد على الوكيل القانوني بأنه سيفكر في اقتراحه. بعد أن أرسل الرسالة وفكّر في وضعه، اقتنع بعرض نارسيس. الحقيقة أن السياسة لم تكن تهمه كثيراً. فضلاً عن ذلك، فإن موقعه كرئيس للتحرير، قد يتيح له إمكانية التأثير على مضمون الصحيفة، وأن يكسب قليلاً من المال. زد على هذا، أن تكاليف الحياة في شاتورو ستكون أقل من تكلفتها في باريس، وقد تكون حياته هناك أكثر راحة. بعد أن علم شارل بخبر قرب سفر عائلة

---

[8] الشاعر الفرنسي المعروف لامارتين (1790-1869)، كان رجل سياسة أيضاً ونائباً في البرلمان، لكنه انسحب من العمل السياسي بعد خسارته في انتخابات رئاسة الجمهورية أمام لوي نابليون بونابرت في عام 1848.

Twitter: @ketab_n

أوبيك إلى القسطنطينية، كتب إلى أمه رسالة يخبرها فيها بأنه يرغب في مقابلتها قبل سفرها، للقيام بواجب الوداع، وبشكل خاص أن يأخذ منها بعض النقود. لكن تحقيق هذا الأمر كان مرهوناً بتجنب اللقاء مع زوج أمه. ولما لم يتلق أي جواب، انتظر طيلة ثلاثة أيام أمام مبنى الزوجين أوبيك، وتسلل إلى البيت، بعد أن رأى الجنرال يصعد عربة ملونة، صُبغت بألوان الجمهورية. كانت السيدة أوبيك مع الخادمة منهمكتين بالتحضير للرحلة الطويلة. الشقة كلها كانت مقلوبة رأساً على عقب. على الرغم من الشيب الذي غزا شعر كارولين، إلا أنها مازالت جميلة، بثوبها الفضفاض الأصفر المزين بالساتان. لاحظ بودلير، بحزن، أن نجاح زوجها قد أعاد إليها نضارة الشباب. بدت الأم محرجة وكان استقبالها لابنها الوحيد بارداً.

- متى ستسافرون إلى القسطنطينية؟

- خلال أسبوعين، على الأكثر. المركب سينطلق من مرسيليا في 15 أيار، أجابت كارولين بدون أن تلقي عليه حتى نظرة واحدة، واستمرت في ترتيب بعض أغطية الطاولة المصنوعة من الدانتيل.

- عليك أن تقرضيني عشرين فرنكاً. يبدو أن أنسيل نسي أن يعطيني حصة الشهر، وأنا لا أملك نقوداً حتى لتنظيف ملابسي.

تركت السيدة عملها وخرجت لتعود بالنقود، ثم وضعتها فوق خشب السكرتيرة المصقول دون أن تنطق بحرف واحد.

- مابك؟ سأل بودلير أمه.

- لقد تناولنا طعام العشاء عند عائلة أنسيل الأسبوع الماضي. يومها قال لنا نارسيس بأنه لم يتوقف عن دفع أجرة شقة تلك ال.. عشيقتك. مع أني كنت أعتقد بأنك قطعت علاقتك بها.

صحيح أن شارل كان ينعت جان بكل الأوصاف خلال مشاجراتهما، لكنه رفض أي تلميح مهين إزاءها من قبل أمه، ولم يسمح به أبداً.

Twitter: @ketab_n

- انتبهي يا أمي إلى كلماتك حينما تتحدثين عن جان. «هذه الـ..» كما تقولين، لها اسم، وأنت تعرفين أنها بمثابة زوجتي.

- إذا كان الأمر كذلك، فتزوجها! وستكون حياتك أكثر استقامة.

- سواء أعجبك هذا الأمر أم لا، فإن جان هي زوجتي، وإني على استعداد لأن أشنق نفسي، لكني لن أتركها بلا موارد مالية.

- إننا نعرف هذا الأمر شارل، إذا كان هذا ما تريد أن تفهمنا إياه منذ ثلاث سنوات. ثلاث سنوات، هل تدرك هذا؟ متى، بحق الشيطان ستتخلص من هذه الفتاة؟ لو لم تصب بهذا ال.. ياإلهي! لكان عندي الآن أحفاد..

- ولماذا ليس معها؟

امتقع وجه كارولين وامتنعت عن أي جواب. كانت تعرف أن شارل يمكن أن يتفوه بأي شيء حينما يتعلق الأمر بهذا الموضوع، لا لشيئ إلا لإثارة غيظها. أخذ العشرين فرنكاً، وعانق أمه ثم خرج.

في 15 أيار، تاريخ سفر الزوجين أوبيك إلى القسطنطينية، جرت انتخابات الجمعية الوطنية (مجلس النواب) بالاقتراع العام، وربحها الرجعيون، لكنها سرعان ما أثارت الاحتجاج، واندلع تمرد ضدها وصل إلى أعضاء المجلس. بعد هذه الاضطرابات تم توقيف بلانكي، الذي كان يقود المتمردين، ونفيه. في شهر حزيران، عادت باريس مرة أخرى إلى حمل السلاح، واندلعت المعارك العنيفة في كل مكان. وأظهر الحرس المتنقل قسوة لامثيل لها، بعد أن دفعت له الحكومة بسخاء وأغرقته بالمشروبات الكحولية. حينما اندلع هذا العصيان الجديد، الذي جاء نتيجة مباشرة لحل المشاغل الوطنية، رمى بودلير نفسه مع لوفافاسور ودوفلوت في قلب المعمعة. في 24 حزيران، كانا يقاتلان جنباً إلى جنب، على الخطوط الأولى للجبهة. لكن القتال هنا تحول إلى صالح الحراس الوطنيين، بعد أن تمكنوا

Twitter: @ketab_n

من إزالة المتاريس، واعتقال دوفلوت. وبينما كان العمال يتشتتون، هرع بودلير، بشجاعة أسطورية، نحو الحراس، الذين كانوا يقتادون صديقه، وصرخ في وجوههم:

- إذا كان سبب توقيف هذا الرجل هو رائحة البارود التي تفوح من يديه، إذاً عليكم أن تشتمّوا رائحة يدي، وستفهمون عندها بأنه لم يفعل شيئاً!

خرج حارسان من الصف، وقد صوّب كل منهما بندقيته إلى الأمام، وتقدما نحو بودلير الذي كان ينتظرهما في وسط الدخان الأبيض الذي خلفه البارود. لوفافاسور رأى، من مخبأه، شارة مخيطة فوق بزة أحد الحارسين تدل على بلده الأصلي. فانبثق من قلب الغمامة، ووقف بينه وبين بودلير، مخاطباً الجندي بلهجة بروتانية. فهدأت الأمور، ووافق الجندي على إخلاء سبيل بودلير ودوفلوت. استمر العصيان عشرة أيام متتالية، وازداد القتال عنفاً. وصل الأمر إلى حدّ إخراج المدافع التي كانت تطلق نيرانها باتجاه مبنى البانتيون. لكن، على الرغم من تفاني المتمردين، فقد نفذت منهم الذخيرة، وسقطت المتاريس الواحد تلو الآخر. ولم يبق سوى الباستيل والعلم الأحمر يخفق فوقه. ثم سقط هذا المعقل الأخير. اعتقل الحراس اثنا عشر ألفاً من الثائرين، بعد أن قتلوا منهم ثلاثة آلاف، خلال المعارك، ونفي أربعة آلاف منهم إلى المستعمرات بدون محاكمة. هذه المرة، بقيت البورجوازية في السلطة دون أن تتنازل عن أي شيء للكادحين ولدعاة الإنسانية الآخرين.

استمرت الاضطرابات خلال شهر تموز، وبلغت أصداؤها مسامع الأوساط السياسية بعد أن اختنقت الشوارع. وهُددت صحيفة **ممثل الشعب**، التي كان يشرف عليها برودون، بالمنع عدة مرات. وفي شهر آب، اعتقد بودلير الذي لم يلتق برودون أبداً، أن مؤامرة تهدد هذا الخطيب

Twitter: @ketab_n

المفوّه. فقرر الذهاب لتحذيره، لكن الشرطة منعته من الوصول إليه، ولم يتمكن من الدخول إلى المجلس. وبسرعة، كتب كلمة فوق قصاصة ورق، أرسلها إلى برودون، يحذره فيها من الخطر الذي ينتظره، وذكر أنه سيظل بانتظاره في المقهى- المطعم، الواقع في شارع بورغونيو Bourgogne. لم يأت برودون إلى الموعد الذي حدده بودلير. فكتب إليه في اليوم التالي، محدداً له تفاصيل المؤامرة المزعومة المحاكة ضده، معرباً له عن تضامنه معه وإعجابه به. ولما لم يحصل على أي جواب، قرر أن يذهب إلى مقر صحيفة **ممثل الشعب** في اليوم التالي. دخل إلى مكاتب الصحيفة الاشتراكية وعثر، بدون عناء، على النائب الذي كانت هيئته تدل على طيبة القلب والسماحة، وهو يوزع النصائح والتعليمات المتعلقة بعدد الغد. نادى بودلير عليه، ثم جلس الرجلان يثرثران. و بعد محادثة قصيرة، قال له برودون بصوت عال:

- يا مواطن! حانت ساعة العشاء، وأنا جائع جداً! هل تريد أن نتناول العشاء معاً؟

سارع بودلير بالقبول، ونزل الاثنان إلى مطعم أسعاره رخيصة، في شارع نوف- فيفيين Neuve-Vivienne. كان شيئاً من الاضطراب ينتاب الشاعر الشاب وهو أمام القوة التي كانت تنثال من هذا الرجل، ابن عامل مقهى وفلاحة، والذي كان يجسد، عملياً، الجماهير الشعبية. خلال الوجبة، شرب بودلير كثيراً، دون أن يلمس صحنه، وهو يصغي إلى برودون، الذي كان يأكل كالغول، ولا يشرب سوى الماء، دون أن يكف عن الكلام. لم يتمكن بودلير من اقتناص لحظة يحدثه فيها عن المؤامرة التي كان يعتقد بأنها تهدف إلى اغتياله. تحدث الفيلسوف عن نظرياته السياسية، وعن أشياء منوعة وعن اللغة العبرية التي كان يتفاخر بأنه تعلمها بوسائله الخاصة. حينما افترق الرجلان، دفع برودون ثمن ما أكل، دون أن يقترح

Twitter: @ketab_n

على الشاعر دفع ثمن عشائه، مع أنه هو الذي دعاه. قال بودلير في نفسه «ربما يكون هذا الرجل طيب القلب، لكنه ليس دانديا[9]!»

هذه المحادثة كانت الحد الفاصل بين بودلير وبين التزاماته السياسية وأفكاره الاشتراكية.

بعد عدة أشهر، سافر غير آسفٍ إلى مدينة شاتورو، ليشغل فيها منصب رئيس تحرير صحيفة Representant de l'Indre. في السنة نفسها تم إلغاء العبودية.

---

[9] الداندية Dandysme، مذهب في الأناقة واللباقة والأصالة والأسلوب الداندي يعني العناية باللغة وباللباس والداندية تعني علاقة ماهو كائن بالمظهر وبالحداثة يقول بودلير: «على الداندي أن يرنو إلى أن يكون سامياً باستمرار وأن يعيش وينام أمام المرآة»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٧

ما أن وصل بودلير مدينة شاتورو، حتى بدأ البحث عن وسيلة للرحيل عنها، إذ لم يعجبه فيها أي شيء. المدينة باهتة، وكذلك الفندق الذي ينزل فيه، هذا إضافة إلى تدني مستوى مساعديه في الصحيفة، فهم ليسوا دانديين مثله!. إنهم في أحسن الأحوال، عبارة عن بورجوازيين ريفيين يتميزون بضيق الأفق، قابلين للانخراط في أية حماقة كبيرة. منذ المساء الأول، أحس شارل بوحدة عميقة تلفه. في وسط هذه البيئة التي تبعث الغربة في نفسه، كما لو كان على شاطيء ماسكارينيا Mascareigne، كتب إلى جان يطلب منها أن تحمل مجموع أعماله إلى صديق سبق وأن كلفه بنشرها، وأن تلحق به إلى شاتورو بأقصى سرعة. ردت جان بأنها ستتكفل بكل شيء وأنها ستكون في شاتورو في نهاية الأسبوع التالي. كان من المتوقع ظهور مجموعة أشعاره الأولى الموسومة «الغموض»[10] Les limbes في شهر شباط (ميشيل ليفي اقترح على بودلير أن يعدل العنوان الأول لقصيدة «السحاقيات» التي رأى الناشر بأنها فاضحة).

بعد أسبوع على إقامته في شاتورو، صدرالعدد الأول من صحيفة Le représentant de l'Indre، بعد أن وافق بودلير على كتابة افتتاحياتها،

---

(10) ليمبوس: مُقام أرواح البررة قبل مجيء السيد المسيح، أو الأطفال الذين يموتون قبل أن يُعَمَّدوا (المنهل).

Twitter: @ketab_n

لكن هذا العمل كان يبعث أقصى درجات الضجر في نفسه، بانتظار قدوم جان بفارغ الصبر، لاسيما وأن كراهيته لمضيفيه كانت تزداد يوماً بعد يوم.

في يوم السبت الذي تلا صدور العدد الأول، أقيم حفل عشاء في منزل جان ألبير بوانار الضخم الواقع في أطراف شاتورو. هذا الرجل الذي يعمل أساساً كاتباً بالعدل، يرأس أيضاً مجلس إدارة الصحيفة، مما اضطر بودلير إلى حضور العشاء. لكن قبل هذا، اتخذ قراراً خطيراً بحلاقة شاربيه، لينتهي بذلك من آثار فترة شبابه الرومانتيكية، وارتدى ملابس مفرطة في أناقتها، لقناعته بأن ملابس الداندي الباريسية، من شأنها أن تصدم الجمع الصغير. احتاجت هذه التحضيرات إلى وقت، لذا فقد وصل متأخراً ساعة عن موعد العشاء. بعد أن نزع قفازيه الجلديين الزهريين، وعهد بقبعته الأنيقة إلى الخادمة، تم إدخاله إلى قاعة الطعام حيث جلس المدعوون إلى الطاولة بانتظار أن يتكرم السيد بودلير بالحضور لكي يبدأ العشاء. كان المنزل مريحاً موسراً، لكن زينته كانت تفتقر إلى الذوق، ومفروشاته مبتذلة، مع أنها ليست رخيصة. كل شيء فيه كان مذهباً، لدرجة أن المرء يعتقد نفسه في أحد المواخير. أعجبته هذه المقارنة، فتصور الحاضرين وهم يمارسون أفعالاً جنسية ضمن الإطار الذي وضعهم فيه. ثم جلس بينهم مبتسماً.

سأل أحد ثقيلي الظل:

- أما كان ينبغي على السيدة بودلير أن تشاركنا عشاءنا؟

أجاب بودلير:

- قد تنضم إلينا خلال العشاء، فقد أخبرت الفندق بذلك حال وصولها هذا المساء.

كان الرجال والنساء تافهين في كل شيء، أحاديثهم ناعمة لكنها غثة. فلم يتفوه بودلير بأية كلمة حتى الطبق الرئيسي، مكتفياً بالموافقة، حينما

Twitter: @ketab_n

يطلب رأيه أو كان يهز كتفيه، حينما لا يكون له رأي. لكن أحد محرري الصحيفة، باستونيو، لم يترك مجالاً لأحد في الحديث خلال الوجبة، فقد تطوّع باختيار موضوع للحديث، وراح يهذر لساعات بكل ما كان يخطر على باله، والآخرون يستمعون إليه، ويبدون إعجابهم بوجهات نظره وبراهينه، ظناً منهم أنه ألمع الحاضرين، ويقوم بدور سفيرهم، نوعاً ما.

- لقد وظفت، بناء على نصيحة صاحب مصرفي، عشرين ألف سهم في مصرف الشمال. ما رأيكم؟ لقد قمت بهذا التصرف على الرغم من معارضة زوجتي وأمي- التي تكفل الله بروحها! إذ توفيت الصيف الماضي. مع أن وفاتها لم تملأ نفسي بالحزن، لأن هذه العجوز ستكون أكثر راحة هناك حيث هي، ولأني أؤمن تماماً بخلود الروح.. باختصار ولكي أصل إلى نهاية هذا السؤال، آمل بأن يكون للطبيعة دورها وأن نمضي حياتنا الأخرى في إحدى الجنان، جنة عدن، لأني لا أشعر أني في بيتي إلا حينما أكون في وسط الطبيعة.. هل تحب الطبيعة يا صديقي العزيز؟

- بل أكرهها جداً، أجاب بودلير. إنها تبعث في نفسي الضجر، وجمالها المفترض يقلقني أكثر مما يحرك في أي شعور.

- فعلاً؟ قال باستونيو منزعجاً.

في هذه اللحظة، كان الجميع ينظرون إلى بودلير بفضول واستنكار. استدارت نحوه إحدى الزوجات غير المتحمسات وسألته:

- هل صحيح أنك شاركت في معركة شهر شباط؟

- يبدو أنك كنت إلى جانب العمال، أضاف أحد الوجهاء. ترى ما هي قناعاتك الدقيقة حول هذا الموضوع؟

- ليس عندي قاعدة للقناعة، لأني لا أملك أي طموح. الزعران وحدهم أكثر الناس قناعة، لأنهم يصممون على النجاح بأي ثمن إذا قرروا القيام بأمر ما.

Twitter: @ketab_n

- لكنك شاركت في العصيان، أصر باستونيو. هل كان ضرورياً؟

- العصيان كان مشروعاً، مثلما كان القتل مشروعاً.

هذه الإجابة الواثقة أثارت الحيرة في نفوس الجميع، فبدأوا يخافونه. في هذه اللحظة، قرع باب المنزل. ذهبت الخادمة لفتحه. وأدخلت جان إلى القاعة التي كان العشاء فيها قد بلغ نهايته. حينما ظهرت، استولت الدهشة على وجوه المدعوين، وران صمت مزعج مفاجئ. ذهل الزوجان كاتيلروسان، وبقيا أسيري حماقتهما. فرح بودلير بهذا، ووجد جان رائعة بثوبها الأسود وتعرجاته المطرزة، وانسجامه مع قدها، وانفتاحه على جيد لطيف يلفّه شال من الكشمير. غرتها الكثيفة، الموشاة بالأزرق مغطاة بشبكة من القماش. كل مافيها كان قاتماً، بما فيه لون جلدها. أقل ما يمكن قوله، أن إطلالتها أثارت الدهشة في النفوس. انقسم هؤلاء الريفيون في آرائهم وهم يكتشفون هذه الزنجية بين مُعجب وقرف، وخلصوا إلى أن بودلير لا يشبه أياً منهم. قدمت القهوة إلى جان، ثم انتهت السهرة.

قبل رحيل بودلير انتحى به بوانار ركناً من المنزل ليقول له بنبرة خبيثة:

- لقد خدعتنا. السيدة بودلير ليست زوجتك، بل محظيتك.

- اسمع ياسيد، قد تساوي محظية الشاعر في قيمتها، أحياناً، ما تساويه قيمة زوجة كاتب بالعدل.

بعد هذا السهم الذي أطلقه، غادربودلير البورجوازيين برفقة جان وعادا إلى الفندق. وما أن دخلا الغرفة حتى أمرها قائلاً:

- احزمي أمتعتك.

- لكني لم أفكها بعد.

- أحسن! لأننا سنعود غداً إلى باريس.

Twitter: @ketab_n

تابع أصدقاء الشاعر مسيرتهم. بعضهم رأى أن الثورة كانت حاسمة. إنهم الآن في سن البلوغ، وشهرتهم تتكرس شيئاً فشيئاً، تبعا لظروف إنتاجهم، والتزاماتهم، ومصادفات التاريخ الذي يبقى غير معروف. نادار عاد من رحلته إلى بولونيا، بعد أن سجن فيها وعمل في أحد المناجم، ثم تعرض للاعتقال على أيدي ممثلي الحكومة البروسية في مدينة ساكس. كان الناشر جول هيتزل Jules Hetzel، رئيساً لمكتب وزير الشؤون الخارجية، طلبه بعد أن علم بعودته واقترح عليه أن يعمل مخبراً سرياً. تعطشه للمغامرات بقي على حاله، وعلى الرغم من تجربته التعيسة في بولونيا، فقد سافر نادار مرة أخرة ليستعلم عن تحركات القوات الروسية على الحدود البروسية. أما مينار، الذي كان مايزال شبه منزعج من بودلير، فقد هجر الكيمياء لينخرط في النضال الجمهوري، من خلال إدارة نادي النوادي حيث كانت مهمته تعليم عمال منطقة بروتانيا على ممارسة الديمقراطية وانتهى به الأمر للعودة إلى باريس، بعد أن هجر بدوره، التوجهات الثورية.

في شهر شباط من عام 1849، لم تكن مجموعة Les limbes «الغموض» قد طبعت بعد، وأرجيء نشرها مرة أخرى. وعاد بودلير من جديد للتدله بحب عشيقته جان، لكنه سرعان ماغرق في العطالة والخيبات المالية، وعذابات التردد في اتخاذ قرار يتعلق بمصيرهما. ذات مساء، بعد شجار جديد معها، كتب إلى أمه في القسطنطينية، يشكو لها للمرة الأولى عشيقته هذه، مؤكداً أن «هذه العلاقة الفريدة» بلغت حدود إرهاقه، متهما أيضا السيدة أوبيك بأنها أساءت معاملته طيلة هذه الفترة «بسبب امرأة مسكينة لم يعد يحبها منذ زمن طويل إلا بدافع الواجب». بعد أن أنفق بودلير عائداته المالية السنوية، وعجز عن قطع علاقته بجان، والانعتاق من العهد الذي يربطه بها، سعى إلى الهروب، بعد أن وقع عقداً

Twitter: @ketab_n

يعود عليه بمبلغ جيد من المال، لقاء ترجمته أعمال إدغار آلان بو إلى اللغة الفرنسية، في الوقت الذي كان فيه هذا الشاعر الأمريكي، يفارق الحياة في مدينة بالتيمور على أثر أزمة هذيان عقلي.

فقدان هذا الأخ الذي لم يتعرف عليه أبداً، والذي أصابته وفاته في الصميم، عوضه بالتعرف على الشاعر تيوفيل غوتييه Théophile Gautier، الذي سرعان ماربطت بينهما صداقة وطيدة لم تنفك عراها أبداً. مؤلف Emaux et Camées، كان يشترك مع بودلير في أكثر من سمة، بدءاً بملهمة عالمية، كانت تشبه جان في كثير من النواحي، من حيث الأصل والسحنة. عاد بودلير ليصبح اشتراكياً، ويقبل العمل كصحفي في جريدة **العمل**، التي كان اسمها سابقاً **مواطن كوندور**، لأسباب انتهازية وليس عن قناعة. هذه الصحيفة لم تكن أكثر من ورقة ذات اتجاه إنسانوي تصدر في منطقة ديجون، في الوقت الذي أصدرت محكمة الجنايات حكماً بالسجن لمدة ثلاث سنوات على برودون، واضعة بذلك حداً لمساره السياسي. لكن هذا المنفى الجديد لم يكن أفضل من سابقه على الإطلاق، ولم تكن سطحية اشتراكيي ديجون أقل من سطحية رجعيي شاتورو، لكن بودلير نجح، للمرة الأولى، في دفع نارسيس انسيلم إلى تسديد تكاليف إقامته التي كانت تحتاج إلى دفعة مقدمة. في ديجون عمل بودلير بأفضل ما يمكن لصحفي سياسي طيلة النهار، وفي المساء كان يتابع في فندقه، تحرير أعماله الخاصة بعيداً عن الصخب الباريسي.

لكن شوقه إلى العاصمة دفعه لزيارتها لفترة وجيزة في شهر كانون الأول من عام 1849 لحضور تدريبات على مسرحية **حياة البوهيمية** - بصحبة الأخوين توبان وبريفا دانغيلمون وشامفلوري وبانفيّ وأسولينو، ولم يغب سوى مينار وأنا. أما نادار فقد كان مسافراً خارج فرنسا، مما ألغى المبارزة المنتظره بينه وبين شامفلوري.. انتهز بودلير فرصة إقامته القصيرة

Twitter: @ketab_n

في باريس، لزيارة ماري دوبران التي لم تكن علاقته الغرامية بها قد انتهت بعد.

تحولت عودته إلى ديجون إلى كابوس. فما أن وصل إليها، حتى بدأ الطفح الزهري يلوث جسده ومعنوياته. وكانت صورته في المرآة تثير الرعب في نفسه، ولم يعد يجرؤ على الخروج، مهملاً بذلك عمله في الصحيفة، وراح يستهلك الأفيون بكميات كبيرة لتسكين أوجاعه وآلام رأسه، التي كانت تعاوده باستمرار. لم يخف بودلير أي شيء عن كاتبه بالعدل، بعد أن أصبح نجيّه وأول من يحدثه عن شقائه، وكاشفه بكل ما يتعلق بأعراض السيفليس عنده. حدثه في رسائله عن آثار هذا المرض، وأزمات الغثيان التي كانت تصيبه في المساء. حدثه بكل التفاصيل، شاكياً من معدته «التي لم تعد تعمل بشكل طبيعي بسبب اللودانيوم»، وعن أحد سكان ديجون المزعجين، المدعو ماديه دومونجو، فيصفه «بالأحمق أو المبتذل الطموح»، الذي لم يعد ينسجم معه. بعد السيفليس جاء دور الطفح الوردي، الذي حينما استقر فوق جلده، عاودته فكرة الانتحار. لكن البقع الوردية اختفت خلال بضعة أيام وشعر بتحسن، واستعاد شيئا من الشجاعة وحب الحياة.

لم يعد بودلير ناقلاً للعدوى، مما أراحه نفسياً لفترة قصيرة. وشرع يحلم بماري اللذيذة، مصراً على أن يصبح عشيقها لدى عودته إلى باريس. لكنه علم، وهو في منفاه أن جان، التي انقطعت أخبارها عنه منذ عدة أشهر، كانت في أسوأ أحوالها أيضاً، وأنها أصيبت بعدة أمراض ألزمتها السرير، ولا معين لها في الحياة. ولم يعد مع بودلير أي شيء يساعدها به. وبينما كان يعيش حالة من تأنيب الضمير، أدرك أنه كان يشتاق إليها أكثر من شوقه لأي شيء آخر. فقرر أن يكتب لها رسالة يطلب فيها أن توافيه إلى ديجون. فردت جان بأنها ستفعل. بعد تلقيه رسالة عشيقته، انتابه

Twitter: @ketab_n

القلق والفرح في الوقت نفسه (ألم يصل إلى حد قطع علاقته بها كما كان يتمنى منذ وقت طويل؟)، فكتب لها مرة أخرى يطلب منها أن تمر على نارسيس أنسيل قبل مغادرة باريس، لتستلم منه خمسمائة فرنك. قامت جان بعدة زيارات لأنسيل، لكنها لم تحصل إلا على نصف المبلغ المطلوب، بعدها وافت بودلير إلى ديجون. رآها، بعد طول غياب، ، مسنة متعبة، لكنها بقيت محافظة على جمالها. وصولها إلى ديجون أحدث ردود الفعل نفسها التي أثارتها في شاتورو. بعد فترة وجيزة، أنهى بودلير التزاماته، وعاد الاثنان إلى باريس.

في باريس، قضى بودلير ليلته مع الممثلة ماري دوبران. هذه العلاقة الغريبة التي بقيت عفيفة حتى هذه اللحظة، اتخذت أجمل أشكالها، لكن كان ينقصها الهيام الذي طالما حلم به خلال تلك السنوات الأخيرة. أدرك أن طبيعة تعلقه بجان كانت مختلفة، وأنه لم يكن من السهل عليه قطع هذه العلاقة. بعد عدة ليال بيضاء، قرر المخاطرة في أن يستعيد حياة مشتركة معها. وبانتظار ذلك، أنهى علاقته بالسياسة والصحافة. وقرر ألا يعير أذنه، بعد اليوم، لهذه التفاهات، ولا أن يطلع أي قارئ عابر على كتابته. قرر أن يعمل على كتاباته، وعلى إحساسه بعدم الجدوى، الذي يشكل جزءاً أساسياً من شخصيته، ولم يكن عليه سهلاً قبوله بعد أن عمل سنوات عدة من أجل التخلص من هذا الإحساس. لم تكن القضية قضية خيار إنما قدر. فهم الآن أن عدم الجدوى هذا، كان علامة على الفن الحقيقي، وأن وعي الإنسان أنه بلا جدوى، يعني أن يعيش دانياً، يحاور جوهر الحياة نفسها بحميمية. ولابدّ أن يدفع الناس ذات يوم ثمن هذا الإحساس بعدم الجدوى(فإذا كان الفن غير مجدٍ وجميل فسيباع بأغلى الأسعار. وهو أمر طبيعي جداً. لكن، بالنسبة للوقت الحاضر، لم يكن يشغله سوى ترجمة إدغار آلا ن بو. انكب بشجاعة وبدقة عجيبة، على هذا العمل الذي كان

Twitter: @ketab_n

ينطوي، بالنسبة له، على شيء مقدس، لذلك ظل شاغله حتى آخر يوم في حياته.

في شهر أيار، قرر بودلير، الانتقال مع جان للسكن في شقة تقع في منطقة نويي، غير بعيدة عن بيت نارسيس أنسيل، الذي يمكنه التردد عليه يومياً للحصول على النقود. وبما أنهما لن ينجبا أطفالاً، فقد أهدى بودلير عشيقته قطة، لم يكن يحبها سواه، بل كان يعبدها. أما جان فكانت تغار منها، وتقول إنها تفضل اقتناء الكلاب عليها. في المرحلة الأولى، سار كل شيء على ما يرام بينهما، فكان العاشقان يقضيان أياماً وأيام، بالقرب من بعضهما بعض، دون أن يكلم أحدهما الآخر. أي بدون شجار، مما شكل تقدماً بالنسبة إلى سوابقهما. وإذا سنحت الفرصة، كانا يذهبان إلى المسرح، كما خلال أيام حبهما الأولى. لكن صار لابد من البحث عمن يدعوهما إليه، بسبب إفلاسهما الدائم. انتهز بودلير فرصة عرض مسرحية صديقه جيرار دونيرفال Gérard De Nerval، **عربة الأطفال**، على خشبة مسرح الأوديون، ليطلب منه ثلاث بطاقات. اثنتان له ولجان، والثالثة لصاحب المطبعة أوغيست بوليه- مالاسي Auguste Poulet-Malassis، وهو مثقف كبير، في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان عارفاً بالجمال وداندياً إلى حد ما، التقى به بودلير الشهر الماضي، مع شامفلوري في شارع بوتيليون- سان- سولبيس Petit-Lion-Saint-Sulpice. كان هذا الرجل ابناً لصاحب مطبعة من مدينة آلانسون، شارك، مثل بودلير، في عصيان عام 1848، بينما كان يدرس في مدرسة المواثيق Ecole des chartes. بعد أن ألقي القبض عليه في حزيران تم إبعاده، وهو ما كان يمكن أن يصيب بودلير، لولا أن لوفافاسور كان قد خلصه من تلك الورطة وهو فوق المتاريس. بعد أن تم العفو عنه، عاد مالاسي إلى آلانسون على إثر وفاة والده، ليدير مطبعة العائلة. لكن آلانسون لم تكن أكثر من قرية لاتتسع

Twitter: @ketab_n

لطموحات مالاسي. فخطرت بباله فكرة أن يتحول إلى ناشر، عبر اختيار المؤلفين الشباب الذين يعجب بهم في باريس، و يقوم بطباعة أعمالهم في آلانسون. في يوم لقائهما، صرح مالاسي بأنه كان يثمن عالياً شعر بودلير، بعد أن قرأ نصوصه كلها التي نشرتها بعض المجلات. ورغب في أن يكون سفيراً لأعماله، وأصر على نشر المجموعة التي كان بودلير يعمل عليها بعد إنجازها، ومؤكداً له فكرة أنه أكبر شاعر في هذا العصر بعد فيكتور هيغو. هذا الإطراء، حرض بودليرعلى أن ينكبَّ بكل حماسة وأناة على قصائده، فكان يزيد من عددها باستمرار، ويعنى بهندسة المجموعة، التي كانت أكبر من مجموع قصائده الإحدى عشرة، التي كان يفترض أن تنشر قريباً.

لا أريد هنا أن يعتقد الناس بأن جان كانت سلبية، لدرجة قبول تقلبات مزاج عشيقها الجامحة بدون أي احتجاج. فقد كان لها حياتها الاجتماعية، وتتردد مرتين في الأسبوع، خلال فترة بعد الظهر، على جلسات نسوة يتقاضين أجورهن مقابل خدماتهن الجنسية، أو محظيات أو نصف دنيويات كن مثلها ممثلات، وكانت تلعب معهن الورق أو النرد، أو كانت تذهب للنزهة في الأحياء الراقية للعاصمة، فتشتري بعض الأشياء الثمينة، في بعض الأحيان، مما كان يضاعف من ثقل الديون. حينما كان بودلير يراها تزداد جمالاً، لا يمنعها أبداً من ممارسة نزواتها الصغيرة الخاصة بالنساء. لكنها كانت تطرح الكثير من الأسئلة المتعلقة بحياتهما المشتركة. لم يكن بودلير رجلاً سهل المعشر، وقد خطر ببالها أن تتركه أكثر من مرة. لكنها رافقته حتى قاع الهوة، ولم تكن واثقة من أنها ستخرج منها بوسائلها الخاصة، لاسيما وأن الطريق أمامها ما زالت طويلة.

كان شارل حبَّ حياتها، إذ اصطفاها من بين كل النساء منذ اليوم الأول للقائهما. وهو موضوع حتمي غير قابل للنقاش. لكنها تحلم بشيء

Twitter: @ketab_n

آخر، بحياة أكثر بساطة وأكثر متعة. وهي إمرأة ترغب في الزواج والإنجاب، وأن تعيش حياة عادية كمن يحيط بها من الناس، الذين كانت تراقبهم وتحسدهم كل يوم، مع أنها، في أعماقها، تعرف أنه حلم بعيد المنال، محظور عليها. إذا تجاوزنا شارل، والمرض، ولون جلدها، والمهن التي مارستها، وماضيها كخليلة سابقة، فإن هذا كله، يشكل أمامها معوقات لاتستطيع تجاوزها. أحياناً، كانت تأمل، بجنون أن يطلبها بودلير للزواج، مع وعيها التام بأن هذا لا يغير في الأمر شيئاً. ولم تكن علامات الحب التي يبديها لها، النائمة فوق أوراق عدة قصائد خصصها لها، كافية لتهدئة خوفها من المستقبل. كانت حذرة من القصائد التي كانت تطريها، لاسيما قصيدة «فينوس السوداء»، التي لم تتعرف على نفسها فيها، إذ ترى فيها منافسة لها. ومع هذا، كانت تحب أن يملي عليها لتكتب آخر نسخ قصائد المجموعة. كان بودلير، من خلال كتابتها البسيطة، يعيد قراءة ما سبق. كان يرى في خطّها الطفولي، الواثق والواضح أحياناً، شيئاً آخر لم يفكر فيه مسبقاً، فيعيد صياغة القصيدة الأولى ويحسنها. عندها كانت تشعر بأنها ذات فائدة، كالأداة بين يدي عامل يقوم بعمله. حينما يكون حسن المزاج، يفسر لها أشعاره، محاولاً تبسيط التعقيدات التي كان يستعيرها لكتابة هذه الأشعار. بعد ظهيرة ذات يوم من شهر تشرين الثاني، وكان يوماً من تلك الأيام المملة التي كان يعيشها، حيث الشمس منخفضة ورمادية تغطي الأفق الأردوازي بغلالة كتيمة، طلب منها أن تجلس إلى طاولة العمل، وأن تكتب ما سيمليه عليها. وبعد أن تناول ما خطّه من ملاحظات، بدأ:

- العنوان: «De la profundis clamavi»

كتبت جان وهي تسأله عن هذه المفردات. كان مزاج شارل مرحاً، وسمحت لنفسها بأن تسأل: «ما معنى هذا؟»

- ألم تتعلمي اللغة اللاتينية أبداً، ولم تتلقي تربية دينية؟

Twitter: @ketab_n

لم ترد بأي شيء.

- إنها تعني: «من الأعماق، صرختُ».

كتبت جان العنوان في أعلى الصفحة، ووضعت تحته خطاً بالمسطرة، كما لو أنها بصدد إنجاز وظيفة مدرسية. تابع بودلير:

- «**أتوسل رحمتك، أنت الوحيدة التي أحب**».. عليك أن تكتبي أنت toi بحرف كبير T.

- لماذا؟ نحن لسنا في بداية بيت الشعر.

-لأن الضمير «Toi = أنت» يعود على الإلهة، والبشر لا يخاطبون الآلهة، إلا إذا وضعوا حرفا كبيراً أمام اسمها.

ثم، بعد أن شجعته عشيقته، اقترب منها وأراها بيت الشعر الذي كتبته:

- هذا البيت من الشعر، بَنَيتُهُ على غرار موضوع شهير في الرسم الطقوسي، يتحدث عن يوم الحساب، وهو رسم نجده في الكنائس، لاسيما في السقف الذي رسمه مايكل أنجلو في معبد سيكستين. في الوسط، يوجد «Toi = أنت» مكتوب بالتاء الكبيرة T التي ترمز إلى الصليب. ووجود هذه التاء T، في واسطة البيت الشعري، يدل على وجود المسيح جالساً على عرشه بين الملائكة، في السماء..

- آه، نعم! أرى ذلك. قالت جان.

- إلى يسار الوقف، في منتصف بيت الشعر، هناك فعل «يتوسل أو يتضرع Implorer» المستوحى من حال المحكومين بالجحيم، أولئك الذين بقوا مرتفعين حتى هذه اللحظة، لكنهم سيسقطون إلى أسفل الأرض، حيث ينتظرهم الجحيم والعذاب. وإلى اليمين، إلى جانب كلمة الله، ترين فعل «أحب aimer». هنا مكان من اصطفاهم الله، الذين سيتابعون صعودهم لأنهم كوفئوا بالخلاص.

Twitter: @ketab_n

كانت جان مبهورة. فكرت للحظة، وتأملت بيت الشعر كما لو كان لوحة معلم، وقالت:

- عليك أن تشرحه في حاشية، إذ لن يفهمه أحد في غياب هذا الشرح.

- هذا هو المهم والجميل، أجاب بودلير مبتسماً. تماماً حينما لايراه القاريء. وتابع قوله:

- «**من اللجة الظلماء حيث سقط قلبي..**» لا، هذا غير ممكن.. هناك نقص ما.. آه، نعم! أعيدي الكتابة: «**من غياهب اللجة الظلماء حيث سقط قلبي**»...

استمرا في هذا العمل طيلة فترة بعد الظهر. وبمقدار ما كانت جان تتقدم في الكتابة، بمقدار ما تصبح القصيدة أكثر قتامة، وسقماً وخلواً من الأمل. وفهمت من خلال الاستعارة في القصيدة أن بودلير أراد ان يضع نفسه موضع المحكومين بالجحيم، وأنه كان يجرها معه إلى السقوط. بعض الأبيات بعثت في جلدها القشعريرة. عالم رفيقها، هذا «العالم الكئيب ذو الأفق الداكن» كان يملؤها بالرعب، لأن الحالة التي يرسمها بودلير، إنما تعبّر عن حالتهما. كان الليل قد أرخى ظلاله، حينما بدأ شارل بالبيت الأخير:

- «**أحسد حثالة الحيوانات على مصيرها/لأنها تستطيع أن تغط في نوم غبي..**»

عندها شَحُب وجه جان وصاحت:

- أريدك أن تكف عن التفكير بالانتحار!

- أنا لا أعني هنا الانتحار، بل تلك الحيوانات التي تقضي شتاءها في السبات.

- بل تتحدث هنا عن الانتحار..

Twitter: @ketab_n

- ربما، ياجان، لكنه انتحار غير ذي جدوى، لأن البيت الأخير يقول:

«طالما أن خيوط عقدة المعبد تتفكك ببطء!»

بينما كانت جان تكتب الكلمات الأخيرة التي كان يمليها عليها، انخرطت بالنحيب.

- أكره هذه القصيدة. إنها فظيعة، حتى الزمن ينقصنا فيها، أليس كذلك؟ أتعتقد بأننا سنموت عما قريب؟

مرر شارل يده في شعر رأسها، قائلاً:

- نعم ياعزيزتي.. لم يعد لدينا ما يكفي من الزمن، لكن لكل حي أجله، مهما كانت الحياة التي نحياها.. الأمر غير منوط بنا، بل بالشرط الإنساني كله.

Twitter: @ketab_n

٧

خلال السنة اللاحقة، بعد الانتقال إلى نويي، تدهور مظهر جان الجسدي، واعتلّت صحتها، وانحرف مزاجها بشكل كبير. غالباً ماكانت طريحة الفراش، تعاني من آلام الجمجمة والبطن، وسائر جسمها، وكانت تصيبها نوبات فظيعة تغرقها في الزكام، كما كان شارل يغرق في الخمر والحشيش والأفيون. وكلما بلغت حالتها غاية السوء، كانت لهجتها انتقامية وجارحة، تزعج بودلير في كل مناسبة، بينما كان مشغولاً بمشكلة شائكة، تتعلق بالوزن أو بالقافية أو بالعروض. كانت تطلب منه كأساً من الماء أو سيجارة أو قدحاً من الكحول، أو أي شيء آخر يبدد تركيزه، ويمنعه من الاستمرار في عمله، فكان يفرغ صبره ويصرخ فيها. لابد من مواجهة الحقيقة، وهي أنه لم يعد قادراً على تحملها. بعد عدة أشهر عاشها في هذا الكابوس، وكان هو نفسه يعاني من آلام المعدة والدوار (الذي قد يكون سببه اللودانيوم أو السيفليس)، أراد كل منهما الهروب من هذه المجاورة الكريهة. فلم يعودا يترددان على أحد بسبب المسافة البعيدة بين سكنهما وبين مركز المدينة. عافت نفس شارل جان، وآلامه، ومزاجه المعكر، فراح يتردد على المواخير. لقد تجاوز الآن مرحلة التعلم الخاصة بالشباب وبنزواته، بل رذيلة الرجل الناضج الذي يخفي في أعماقه يأساً عظيماً. على إثر شجار عنيف مع جان، قررت أن تتماسك وأن تبحث عن عشيق جديد. إذ لم تعد قادرة على الاستمرار في مثل هذه الحياة، وإذا لم يبق أمامها إلا القليل من

Twitter: @ketab_n

السنوات فلتعشها بشكل جيد. في أعماق نفسها، لم تكن تؤمن كثيراً بهذا الذي كانت تفكر فيه، لكنها أرادت، على ما أظن أن تلفت نظر عشيقها التي كان تعرف أنه ميال إلى الغيرة. بعد فترة، نقل إلى بودلير أن أحدهم رآها صحبة رجل بالغ الأناقة في أحد المقاهي القريبة من شارع شوسيه دانتان. حينما عادت إلى بيتهما كان شارل أكثر من غاضب، فأشبعها ضرباً، وحبسها في الشقة ومنعها من مغادرتها على الإطلاق.

قبل عيد الميلاد بفترة قليلة، ولكي يتخاص من كسله ومن حياته اليومية التعيسة، خرج بودلير للنزهة في قاعات معرض اللوفر لأنه كان مشتاقاً لرؤية الأشياء الجميلة. فوقع على لوحة اغوستاف ريشار تمثل السيدة أبولوني ساباتييه، عشيقة رجل المال الشهير موسيلمان، والتي كان الجميع يلقبونها بالرئيسة، والتي كان قد التقاها عندما كان يسكن في شارع آنجو. كانت اللوحة جميلة، لكن الصورة هي التي بهرته. فقال في نفسه: «الله! كم هي جميلة!. هذه هي المرأة التي تناسبني وليست تلك الأفعى! فهي، على الأقل تفهم الفن والجمال!». منذ سنوات، كانت أبولوني تستقبل في معرضها أشهر فناني باريس، والشعراء الملعونين اللذين يعرف كل منا أسماءهم في يومنا هذا، لكنهم كانوا مغمورين في حياتهم آنذاك. في يوم الأحد، كانت تعد، في شقتها الواقعة في شارع فروشو، غداء لمجموعة محدودة من الأصدقاء المقربين مثل فلوبير الذي كان بودلير يكن له أعظم الود. لدى عودته إلى شقته، كتب إلى فلوبير رسالة يطلب فيها أن تتم دعوته إلى غداءات الرئيسة. بعد فترة، كان جالساً إلى مائدتها بين نيرفال Nerval، وغوتييه Gautier وفلوبير، وأحياناً سانت –بوف Sainte-Beuve والأخوين غونكور Goncourt أو الداندي الشهير باربي دورفيي Barbey D'Aurvilly. كانت غداءات السيدة ساباتييه تشكل متنفساً لبودلير، وبدأ يكن للرئيسة هياماً كان يقمعه بغية ترويضها، لأنه لم يشأ أن يستعجل عمله، مكتفياً

Twitter: @ketab_n

بالسعادة التي كان يبعثها فيه هذا الشعور. في المساء، كانت تبعث في نفسه الكراهية فيلعنها. لكنها كانت تبادله العين بالعين والسن بالسن، و تعرف أن امرأة أخرى كانت تشغل أفكاره. «الأنثيان»، كما كان يقول بودلير كانا يتمتعان بهذا الحدس.

انقلاب الثاني من كانون الأول عام 1851 أعاد الحياة، لفترة، إلى قناعات الشاعر السياسية. لقد اغتاظ فعلاً من العنف غير المبرر الذي مارسه لوي نابليون بونابرت، فراح في المساء نفسه يقاتل فوق المتاريس. هناك تمنى لو يموت، موتا عنيفا، بطولياً وسريعا، ليتخلص، في نهاية المطاف من جان وبؤسه و دائنيه ومن السيفليس الذي يفتك به. لكن سرعان ما دفنت الجمهورية وعاش بودلير، غير مهتم ببقية الأحداث. في تلك الفترة، كان الزوجان أوبيك قد عادا من القسطنطينية، وسافرا فوراً إلى سفارة جديدة في مدريد. تابع بودلير حياته المشتركة مع جان بقرف. ذات مساء بينما كان يعمل (لم يكلم أحدهما الآخر منذ أسبوع على الأقل)، نهضت واتجهت نحوه وأمسكت الورقة التي كان يكتب فوقها بحدة.

- ماذا تفعلين؟ صرخ في وجهها. هل جننت؟

- أليست هذه هي العقوبة التي تنتظرنا؟

- أعيدي إلي هذا! صاح بودلير وهو ينتزع الورقة من بين يديها

انفجرت، وراحت تزمجر ودموع الغضب واليأس تجتاح عينيها السوداوين:

- أكره شعرك! أكرهك! ستكون ملعوناً جراء ما فعلته بي وللطريقة التي تعاملني بها! لو كنت غنية، لهجرتك لأنك سيء وفاشل! نعم، لوكنت جميلة أيضاً، لعثرت على عشيق غني، ولتركتك مع عذاباتك البائسة، لهذه الحياة المريعة التي تجعلني أقاسيها.

خلال نوبتها الجنونية المليئة بالحقد والمرارة أمسكت بالقط من جلد

Twitter: @ketab_n

عنقه، وبحركة عنيفة فتحت النافذة ورمت به خارجاً. سمع صوت مواء ينم عن الرعب، غاب في عتمة الليل.

- أيتها الحقيرة! زمجر بودلير.

وبلا تفكير أمسك أول شيء صادفه، وهو قاعدة تمثال جلبه معه من ديجون ويساوي بالتأكيد بضعة فرنكات وضربها به بكل قواه على رأسها. انهارت جان، وجمجمتها مفتوحة تملؤها الدماء. أصابه الهلع لما قام به، فارتدى ملابسه بسرعة وراح يبحث عن طبيب. لم تواتيه الشجاعة ليروي له حقيقة ما حصل. حينما أستعادت وعيها، زعمت جان أن دوارا أصابها فوقعت من فوق السلم. أوصاها الطبيب بأن تبقى مستلقية في فراشها طيلة أسبوع كامل. اعتنى شارل بها، لكن قراره هذه المرة كان حاسما وهو أنه سيتركها ما أن تستعيد عافيتها. وكما هو الحال في أغلب الأحوال حينما يجتاحه الضيق فيفتح صدره للكاتب بالعدل الذي كان يشكل، مع والدته ما يشبه مستودع خصوصيته. وضعه، الذي كان يعتقد بأنهما مسؤولان عنه، كان يجبرهما على دفع ثمنه دون أن يكف عن توجيه أقسى الكلمات وأحقرها إليهما. لقد اتخذ قراراً قاطعاً بالتخلي عن جان في آخر الشهر على أبعد تقدير. كتب رسالة إلى أنسيل في 5 آذار يقول فيها: « أنتم تعلمون أن هذا الشهر هو شهر عظيم لأنه شهر الانفصال».

ما أن شفيت جان، كان بودلير مشبعاً بالحزن، غادر نويي بعد أن وجد له ملجأ في أحد المواخير في منطقة فيرساي. بقي منعزلاً هناك عدة أيام، وهو يبتلع الليترات من عقار اللودانيوم، ويمارس رغباته بهدف نسيان وضعه المرهق والألم الذي سيولده فيه الفراق، حتى لو كان للحظة واحدة.

كتب من مكان إقامته في الماخور، رسالة متأججة المشاعر إلى السيدة ساباتييه، مرفقاً بها قصيدة، عرفت في ديوانه «أزهار الألم؟» تحت عنوان «إلى تلك المفعمة بالبشاشة». بدل في طريقة كتابته للقصيدة ولم

Twitter: @ketab_n

يوقعها بهدف إثارة فضول متلقيها. عند عودته إلى نويّي كان قراره مايزال متماسكاً. ما أن وصل إلى شقتهما (جان كانت غائبة) جلس وراء طاولته وكتب رسالة إلى أمه يعترف لها فيها بكل شيء ويشكو جان بشكل صريح:

«أصبحت جان عائقاً ليس أمام سعادتي فحسب، وهو أمر غير مهم - لأني أعرف كيف أضحي برغباتي، وهو ما برهنت عليه -، بل أمام إصلاح عقلي أيضاً. الشهور التسعة المنصرمة، كانت بالنسبة لي تجربة حاسمة. ما كان يمكن إنجاز الواجبات التي كان علي إنجازها، كتسديد ديوني واستعادة ثروتي وتحقيق الشهرة، و التكفير عن الآلام التي تسببت بها لك، ما كان يمكن إنجازها في مثل تلك الظروف. سابقاً كانت تتصف ببعض المزايا، لكنها فقدتها، أما أنا فقد ربحت وضوح الرؤية. إن **الحياة مع كائن لايعترف** بأي فضل للجهود التي تبذلها من أجله، ويقابلها بسوء التصرف والأذى المستمر، ويرى فيك خادماً وملكية، لايمكنك أن تتبادل معه كلاماً سياسياً أو أدبياً، مخلوق لايريد أن يتعلم أي شيء، مع أنك اقترحت عليه دروساً، مخلوق **لاأعجبه**، ولا يهتم بدراستي، ويلقي بمخطوطاتي في النار إذا كان ذلك يحقق له مكسباً مادياً أكثر من المكسب الذي يمكن أن يحققه لو نشرها، مخلوق يطرد قطي الذي كان تسليتي الوحيدة في المسكن..»

رفع شارل نظره، وقد انتابته لحظة من الشك. هل على أن أذهب إلى هذا الحد؟ وأن أدخل في هذه التفاصيل الخرقاء؟ انتابه الغضب الشديد حينما تذكر الكلمات التي وجهتها إليه ونقدها السام له. فقرر أن يتابع:

«عيناي تختزنان دموع الخجل والغضب وأنا أكتب إليك هذا الكلام؛ والحقيقة أني سعيد لعدم وجود أي سلاح في بيتي؛ إني أفكر في اللحظة التي استحال علي فيها الحفاظ على توازني العقلي، وبالليلة الليلاء التي

Twitter: @ketab_n

كسرت فيها جمجمتها بالطاولة. هذا ما وجدته هناك حيث، منذ عشرة أشهر كنت أعتقد العثور على العزاء والراحة..»

بعد أن عدد مآخذه اللاذعة، متذكراً درجة كراهية أمه الجنونية لجان، انتابه شيء من توبيخ الضمير فأراد أن ينقذها في المقطع الأخير. ثم، ينبغي ألا تخرج السيدة أوبيك من هذه القضية سالمة. عندئذٍ راح يحدثها عن النقود:

«إليك ما قررته: وسأبدأ بالبداية ؛ أي بالرحيل. بما أنني لم أعد قادراً على أن أقدم لها مبلغاً كبيراً من المال، سأستمر في تقديم المال لها عدة مرات، وهو أمر سهل علي لأني أكسب منه بسهولة وإذا ثابرت على العمل يمكنني أن أكسب المزيد من المال.. **لكني لن أعود لرؤيتها أبداً**. ولها أن تفعل ما تشاء. لقد أنفقت عشر سنوات من حياتي في هذا الصراع. وضاعت كل أوهام سنوات الشباب. لم يبقى لدي سوى مرارة واحدة، قد تكون أبدية.»

قبل أن يغلق المغلف، لم ينس أن يطلب من أمه بضعة فرنكات. في الأيام التي تلت كتابة هذه الرسالة، وجد لديه الشجاعة لكي يفترق عن جان، وأقسم بأنه سيكون فراقاً نهائياً.

Twitter: @ketab_n

القسم الثالث

الرجيمان

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

I

مشى بودلير فترة من الزمن في ممرات حديقة اللوكسمبور المتجمدة، قبل أن يلمح باربي دورفييه، هذا الذي سيقرأ له الملأ كتابه الموسوم «الشيطانيات»، كان جالساً فوق أحد المقاعد، بهيئته الكهنوتية، ورأسه العاري وشعره الرائع وقد عبث به الهواء، وشاربيه الطويلين، اللذين أضفيا على هيبته مزيداً من الوقار، فغدا أشبه بضابط صف أصيل مسؤول عن خدمات الجيش. عيناه حزينتان، لكنهما ثاقبتان كسهمين. استدار نحو بودلير دون أن تتحرك أية عضلة من عضلات وجهه قائلاً:

- تأخرت

- عفواً! نعم، بسبب الحافلة...

تابع دورفييه التفرس في وجهه بالنظرة نفسها، وبوجهه الجامد

- سحنتك ليست على ما يرام.

- كنت مريضاً! منذ فترة.. لكن حالي الآن أفضل بكثير.

- الحمد لله!. قال هذا الجدالي الخطير بصوت جهير، ثم نهض مسنداً يديه إلى ساقيه الطويلتين. هلا تمشينا قليلاً!؟

باربيه دورفييي

سار بودلير إلى جانب باربي، الذي كان يكبره بعشرين عاماً، لكنه كان

Twitter: @ketab_n

بالتأكيد أفضل منه عافية. كان الوقت ما يزال مبكراً، وكانا وحيدين في الحديقة يجوبان ممراتها. الأشجار عارية من أوراقها، أنهكها الثلج بعد أن عانق أغصانها، فبدت مقهورة، وبرد كانون الضبابي الذي كان يلفهما، يخترق جسديهما حتى العظم.

– صديقك.. هذا السيد الصغير غير المعروف... ما هو اسمه؟

– تقصد أسولينو؟

– نعم، هو بالذات! أسولينو! لقد سلمني دفاترك. متى ستعمل على طباعتها؟

– قريباً جداً. علمت بأنه سلمك إياها ... لذلك نحن هنا.

– آه، حسناً

ران الصمت مرة أخرى.

– آمل أن تغير هذا العنوان المضحك! أكمل باربيه.

– تقصد «الغموض» Les limbes؟ لقد تخليت عنه... إنه ينتمي إلى مرحلة أخرى. لكني لست واثقاً بعد من خياري. اقترح علي هيبوليت بابو Hyppolite Babou[11] عنوان «**الأزهار المريعة**» أو «الأزهار الغريبة». أردت أن تكون كلمة «أزهار» في العنوان مقرونة بكلمة نقيضة. علي أن أعثر عليها بسرعة لأن مجلة العالَمين Revue des deux mondes (العالمين) ستنشر ثمانية عشر قصيدة من المجموعة. توقفت عند اسم «الأزهار المَرَضيّة».. ما رأيك؟

– في هذه الحالة أقترح عليك اسم «أزهار الشر». دعنا من هذا! فرك بودلير ذقنه، معتقداً أنه عثر على ما كان يبحث عنه.

---

[11] كاتب وناقد فرنسي (1823-1873).

Twitter: @ketab_n

- قرأت المجموعة إذاً.. ما رأيك؟

توقف باربي فجأة، واستدار نحو بودلير بطريقة مسرحية كان يتقنها. رمقه بنظرته الفولاذية، قائلاً، وهو يضع عصاه على مستوى صدره:

- أنت وأنا، يفهم واحدنا الآخر يابودلير. نتكلم اللغة نفسها، أليس كذلك؟ ونفهم هذا الموضوع الخاص، أعني الأدب، لايكذب أحدنا على الآخر. إذاً، بالله عليك! وفر علينا إيماءاتك الشاعرية الباحثة عن الشكوى أو الإعجاب! مجرد وجودي هنا، وانتظارك لساعات في البرد، يجب أن يكفيك جواباً! هل أحب شعرك؟ هل تعتقد أنه لو لم يكن يعجبني، لبقيت نائماً في فراشي؟، هل كلامي واضح أيها الشاب؟ إذاً، دعنا من هذا الكلام! أنت مصاب بالسيفليس، أليس كذلك؟

فوجئ بودلير للحظة. اصطبغ وجهه بلون الثلج الذي كان يهجم على كلا الاثنين. أما وجه باربي فبقي على حاله. تابع الكاتبان سيرهما.

- كيف عرفت؟

- المسألة ليست هنا. باريس كلها تعرف الموضوع. أنت وهذه المدعوة جان ديفال... لاشيء يخفى على الناس. لكن ليس هذا ما يهمني، بل هو شعرك بالتحديد! ألم تفهم؟

- لا، لم أفهم.

- بودلير، هل تؤمن بالله؟

- الدين شيء جميل، أحبه وأعجب به. مع ذلك، فإن الله غير موجود.

- إم م... واضح. انس الموضوع. سنتحدث فيه مرة أخرى. أريد فقط أن أقول، في ما يخص مرضك، أنه يولد هذا العالم الصاعق من الهلع الذي يحفل به عملك، وأنه يشكل عبقرية شعرك. أنظر حولك! كان هناك

Twitter: @ketab_n

الرومانتيكيون وعرباتهم المحملة بالمشاعر المبتذلة (افهمني جيداً، إذا كنت أحمل هذه المشاعر، فلا بد من الاعتراف بأنه كان من بينها أجود المشاعر). اليوم، المصابون بالسيفليس هم من يصنعون الفن. وأي فن! إنهم يحملون في دواخلهم إيمان هذا العصر المتهاوي! المرض الذي يقضم الجسد والأمعاء، هذا العفن الذي يكشف عن جمال أشعارك، ليس إبداعك ياعزيزي بودلير، بل هي روح الحداثة المنحطة! إنه السفليس!

- لكني كتبت جزءا كبيرا من قصائدي قبل أن أصاب بالمرض..

- ناولني مجموعتك! لأني واثق من قدرتي على فرزها بالنظر دون أن أخطئ!

كان بودلير متشككاً، فهو لم يكن واثقاً من الاتفاق معه حول هذا الموضوع، على الرغم من صداقته لباربي. أضف إلى هذا، أنه يريد أن يكون المالك الحصري لعمله، دون أن يشاركه المرض في هذا.

- فكر، يا بودلير لم ينطوي شِعرك على هذه القوة الكبيرة، وهذا السم القوي؟ هذا واضح! حينما تتحدث عن الموت... إن مجرد استخدام الفعل «موتَ» من قبلك ومن قبل رفاقك في المصيبة، يكشف عن دلالات إيحائية مختلفة، وعن ثقل إضافي، وعن كثافة وحقيقة تتجاوز الاستخدام العادي لهذا الفعل. القراء يعرفون هذا، ويحسون به. وهذا ما يبعث الخوف الكبير في نفوسهم! السيفليس هبة من الله، يابودلير! سيودي بحياتك، هذا مؤكد، وستشتد عليك الآلام. لكن هذا المرض هو الذي سيصنع شهرتك، هذا إن لم تكن قد تحققت الآن!

بعد هذه المحادثة الغريبة، استأذن بودلير باربي، وانطلق إلى شارع سان لازار، حيث مَرسَم نادار. سبق لنادار أن طلب من بودلير الحضور إليه ذات صباح، حينما يكون الضوء في أحسن حالاته. نادار، الذي تزوج حديثاً من إيرنستين، غيّر عمله. بعد المقالات والرسوم الكاريكاتورية

Twitter: @ketab_n

التي كانت وراء شهرته وحصوله على الجوائز، شرع في رسم لوحات للشخصيات المعروفة، قبل أن يتعلم فن التصوير الضوئي. هذا الفن الثوري، الذي سرعان ما أصبح مُعَلماً في مجاله. بدأ بتعلم فن التصوير قبل عامين، من شقيقه الأصغر، أدريان، أي في عام 1853. أدريان هذا، تتلمذ على يديّ المصور الشهير غوستاف لوغراي، حيث عمل مساعداً له. أصبح لوغراي المصور الرسمي للإمبراطورية، بعد أن كُلِّف بمهمة تصوير الصروح التاريخية الكبرى. وكان لوغراي أول من تخلى عن طريقة التصوير بطريقة الكالوتيب Calotype، ليستخدم عوضاً عنه، النيجاتيف على زجاج لاصق verre au collodion. هذه التقنية الجديدة، أعطت للصورة مظهراً مدهشاً، من خلال عكسها التام للتناقض الذي يتحكم بمبادئ الواقع.

كان نادار يعدُ لوغراي معلماً له، لدرجة أنه أقام في مشغله في شارع الكابوشين، بعد أن سافر هذا الأخير إلى مصر، بصحبة ستاندال – ولم يعد منها أبداً –. فاق نادار معلمه من حيث اختيار الموضوعات، و طريقة رؤيته الفريدة لمشروعه العظيم. لم يشأ أن يصبح مصور مناظر، أو متخصصاً في علم الإناسة، على غرار لوغراي. بل سيتخصص في تصوير الشخصيات المهمة، فوضع «البانتيون» الذي سبق له وأن رسمه، على الورق، فوق الفراء. بدءاً من سنة **1853**، بدأ بتصوير كل من سيصنعون تاريخ الفنون والآداب لاحقاً، إضافة إلى كل من كان يدفع كثيراً، من أجل صورة ترضي غروره. فكان صاحب مشروع عظيم! قدم، من خلاله، شهادة عظيمة للتاريخ!

وصل بودلير إلى المشغل لاهثاً، بعد أن صعد خمسة طوابق للوصول إليه.. فتح نادار له الباب، وهو يرتدي قميصاً طويلاً رمادية، وعلى رأسه طاقية زرقاء. كان المشغل عبارة عن غرفة واسعة فارغة، إلا من أشياء

Twitter: @ketab_n

غريبة تراها مجموعةً في كل زاوية منها. كان السقف زجاجياً، ليسمح بنفاذ الضوء كاملاً. ما أن وضع بودلير قدمه في المشغل، حتى لاحظ رجلا ممدداً، لم يتمكن من التعرف على وجهه، لأنه كان نائماً في الطرف الآخر من الغرفة.

- إنه رجل بائس التقطته من الشارع، ليساعدني بانتظار العثور على شخص يقوم بهذه المهمة، وفي مقابل ذلك، أسمح له بالنوم هنا.

استمرت الجلسة وقتاً لا بأس به، حيث كان نادار يطلب من بودلير أن يجرب عدة وضعيات. بدأ بوضعه في مقعد، من طراز لويس الثالث عشر، ثم وقف وراء آلته المثبتة فوق حامل، بعدها، اختفى رأسه خلف ما يشبه كيساً من القماش الأسود.

- اعذرني مرة أخرى أيها الطيب نادار، لأني طلبت منك نقوداً في يوم زواجك. قال بودلير بنبرة لاتنم عن الأسف.

- إم م م.. تمتم نادار. وضعيتك غير مناسبة، اقترب قليلاً.. وأنت؟ ألا تريد الزواج؟

- إني أفكر في هذا الموضوع.. لا بد أن أكوّن عائلة بأي ثمن، مثلك. إنها الوسيلة الوحيدة التي تتيح لي أن أعمل وأن أخفف من نفقاتي.

- هل تفكر بالزواج من ماري؟

- ماري؟ إنها الآن في إيطاليا.. ولا أعرف متى ستعود.. سأتزوج منها أو من جان. لم أحدد بعد خياري.

- جان؟ كنت أعتقد بأنك قطعت علاقتك بها منذ سنتين؟

- بقيت أخبارها مقطوعة عني طيلة سنة كاملة، وكنت أرسل لها حوالات مالية من وقت لآخر، كلما استطعت إلى ذلك سبيلا. لكن، علي أن أراها من جديد، لأني حينما هجرتها، كنت قد تركت في شقة نويّي أثاثي وكتاباتي... إضافة إلى أنها أصيبت بمرض شديد لم تحدثني عنه أبداً،

Twitter: @ketab_n

وإنما علمت به من إحدى صديقاتها. منذ فترة، التقيتها مصادفة، في أحد المقاهي الجديدة، في أحد الشوارع المستحدثة، على الضفة اليسرى من نهر السين...

قبل عام، دخل بودلير، بصحبة بانفيّ وأسولينو، إلى أحد المقاهي الكبيرة الجديدة، عند زاوية ما سيتحول لاحقاً إلى شارع سان جيرمان. كان ذلك في فترة السهرة، بعد أن أرخى الليل ظلاله منذ فترة طويلة. صعد الأصدقاء الثلاثة إلى الطابق العلوي، وهم مندهشون لفخامة هذا المكان. كانت مصابيح الغاز تنير الجدران التي يبهر بياضها عيون الناظرين، والمرايا ذات الحواف المذهبة. كل ما في المقهى من نظافة وزينة حديثة، يتناقض مع منظر الأنقاض المكدسة على مدخله!

بعد أن جلسوا إلى إحدى الطاولات، وطلب كل منهم شرابه، أسرَّ لهم بودلير بموضوع النشرة التي سلمها له شامفلوري، ليبدي رأيه فيها، لكن النص كان من السوء بحيث لم يجد الشجاعة الكافية للقيام بهذا العمل. أضف إلى هذا، أن صداقته العميقة له، كانت تمنعه من الإساءة إلى ذلك النص، فوجد نفسه حائراً لايدري ماذا يفعل. اقترح عليه أسولينو بألا يفعل شيئاً، وأضاف:

- قل لشامفلوري، إن إدارة تحرير الصحيفة لم تر من المناسب أن تقول في هذه المقالة أي شيء.

إلا أن بانفيّ، لكز بودلير في نقطة محددة من كتفه، وكانت نظرته مبهورة، كما لو أنه رأى شبحاً. فقال له بودلير:

- ماذا هناك؟

- هناك. وراءك.. تمتم بانفيّ.

استدار شارل بحذر (خوفاً من أن يكون المعني أروندیل!)، وألقى نظرة خاطفة خلف كتفه. فرأى في إحدى زوايا المقهى الفسيح، وفي أظلم

Twitter: @ketab_n

مكان فيه، امرأة تجلس إلى طاولة بمفردها، داكنة السحنة، يغطي وجهها شعر أسود كشعر غجرية. إنها جان. كاد بودلير أن يخرج عن طوره، ثم استدار نحو أصدقائه تائه النظر.

- اذهبوا، واتركوني وحدي معها.

نهض كل من أسولينو وبانفيّ خلسة، ونزلا الدرجات المفضية إلى الشارع. بقي بودلير بمفرده، مديرا ظهره إلى عشيقته السابقة التي لم تره مطلقاً. بعد عدة دقائق، ، رأي نادل المقهى يمر أمامه والقسوة بادية على قسمات وجهه، متوجها إلى طاولة جان. سمع شارل شذرات من محادثتهما. لم يسمع سوى حديث النادل:

- هيا، أيتها العاهرة. قالها بلهجة غليظة كريهة، عليك أن تطلبي شراباً أو أن ترحلي! لقد مضى على وجودك أكثر من ثلاث ساعات... ليس لك زبائن هنا!

عندها نهض شارل ببطء، وكان في أناقته الزائدة يبدو كلورد انكليزي، وقال مخاطباً النادل:

- شكراً لقيامك بتسلية زوجتي، لكن وجودك لم يعد ضرورياً.

تلفظ النادل ببضع كلمات غير مفهومة، ثم توارى عن الأنظار. جلس شارل قبالة جان وقلبه يخفق. لقد ازدادت بدانة وظهرت عليها الشيخوخة، مع أنها لم تبلغ سوى الثلاثين من عمرها. كانت تبدو أكبر من عمرها الحقيقي بعشر سنين. يبدو أن المرض والكحول استبدا بجسمها، فارتسمت خطوط فوق جبهتها، وأحاطت بفمها الذي ما يزال محافظاً على روعته. عيناها الواسعتان السوداوان، تبدوان وكأنهما تسعيان إلى احتلال أكبر جزء من وجهها، وتأتيان على ما تبقى من جبهتها.

- ماذا تفعلين هنا بمفردك؟ سأل شارل.

- لقد سمعت النادل. أنت تعرف جيداً ما أفعله.

Twitter: @ketab_n

كانت القسوة تفيض من عينيها، والمرارة تقطر من صوتها الجاف. لم توفرها الحياة منذ آخر انفصال بينهما. تحدثا قليلاً. لا شك أن جان قد شاخت، لكن جاذبيتها لم تتغير، وكانت ذكرى المرأة التي عرفها ذات يوم، ما تزال تسكن ذاكرته، وتتحكم بنظرته إليها. كانت صافية الذهن، واعية للخراب الذي يحوم حولها. لم يستطع إلا أن يراها جميلة؛ جميلة كما كانت في سنيها الثماني عشر. كانت تمارس البغاء، لكن ماذا ستفعل مع هذه الشيخوخة في المستقبل؟. أحس شارل بأنه كان مذنباً، فسالت دموعه.

- هل هناك أحد في حياتك؟ سأل بودلير.
- من تراه يقبل بي؟
- هل ما زلت تكنين لي بعض المشاعر؟
- هل يبدو لك ممكناً ألا أكن لك مثل هذه المشاعر؟
- هل تفكرين بي غالباً؟
- كل يوم، ياشارل، أفكر فيك. لكن لِمَ أطرحُ على نفسي هذا السؤال؟
- لأني لا أستطيع العيش بدونك.

تساءل بودلير عن الرجل الذي ما يزال نائماً في الجهة الأخرى من الغرفة. لم يكن هناك أي شيء يمكنه إيقاظه. ترى أي نوع من المساعدين هذا؟. بينما كانت تلك الأسئلة تلهيه عن ضجره، كان نادار يروح ويجيء، غير قادر على إيجاد الوضعية المناسبة لالتقاط الصورة. طلب من شارل أن يزيح المقعد، لتكون صورة كاملة. امتعض بودلير الذي كان يقول بأنه يحتقر الصورة، لكنه استجاب. كراهيته الحقيقية للتقنية، لم تمنع نادار من أن

Twitter: @ketab_n

يلتقط له سبع صور جديدة، باعتبار أن آخر صورة أخذت له في السنوات الحاسمة من حياته. صحيح أن بودلير لم يكن يحب الصورة، إلا أن اعتداده بنفسه كان يمنعه من رفض رغبة الآخرين في تصويره.

- هل عدت إلى عشيقتك؟

- من؟

- جان ديفال

- نعم... مع الأسف، فأنا لا أستطيع التخلي عنها.

- ألم تكن ماري كافية؟

- عليك أن تفهم أن جان جزء مني. ثم، بعد جلسة الاحتيال هذه عندك، سأذهب لملاقاتها قبل التوجه إلى كوربيه، لأنها ستكون في الصورة أيضاً.

بعد محاولات أخرى مخيبة للأمل، أعاد المصوّر الكرسي إلى مجال التصوير، والتقط لبودلير (الكليشية) التي بات كل الناس يعرفونها اليوم.

- لقد قرأت دوميستر Demaistre[12] بناء على طلبك، قال له نادار قبل أن يودعه. إذا أردت رأيي فيه، فهو رجعي لئيم. انزعج بودلير فوراً منه، ورد قائلاً:

- كيف يمكنك قول هذا فيه؟ ذلك أنك لاتفهم شيئاً! دوميستر أكبر عبقري في عصرنا – إنه راءٍ! لا شك في أنك موهوب يانادار، لكنك أحمق أيضاً!

رحل المصور وهو يضحك بشدة أثارت بودلير. حينما غادر المشغل وهو يغلق الباب بقوة، كان نادار ما يزال يضحك.

لوحة كوربيه Courbet التي حملت عنوان: مَرسَم الرسام، تشكل

---

(12) كاتب وفيلسوف ورجل سياسة وقانون جوزيف دو ميستر (1753-1823).

Twitter: @ketab_n

رمزاً حقيقياً، قضى الفنان أكثر من ثلاثة أشهر بقليل لينجزها. جلس بودلير وجان عدة مرات. كان مشروع كوربيه مرتبطاً بمشروع نادار، طالما أنه بالإمكان رؤية أشخاص حقيقيين، إضافة إلى أنه مستوحى من بيت شعري من قصيدة «من الأعماق، أصرخ» لبودلير، الذي استوحاه بدوره من مفهوم القيامة. إلى يسار اللوحة، رسم كوربيه أشخاصاً، وشخصيات ومهنٍ يكرهها (ناقد معروف قسا عليه في أحد مقالاته، وخوري، وصياد مع كلبه، ومحارب سابق، وبنت شوارع، ويهودي يحتضن صندوقاً مليئاً بالنقود) وإلى يمين اللوحة تجد، «الأصدقاء» الذين كان يحبهم ويعجب بهم: شامفلوري، برودون، بروماييه Promayet، بيشون Buchon[13]، ، برويا Bruyas [14] وغينو Guenot. في أقصى اليمين نرى بودلير، جالساً فوق طاولة خشبية، بشعره القصير، وهو بصدد قراءة كتاب غير مهتم بما يدور حوله. وخلفهم تماماً، كانت تقف جان ديفال وهي تنظر بغنج في مرآة. في منتصف اللوحة، كان الرسام نفسه يدير ظهره إلى ناظري اللوحة، بصدد رسم منظر طبيعي لم يكن واقعاً تحت زاوية نظر «الموديل»، الذي هو عبارة عن امرأة عارية، مكتنزة الجسم، والتي كانت غائبة عن اللوحة في اللوحة – أي التي كان الرسام يقوم برسمها. المحصلة كانت غريبة تشبه ساحة المعجزات أو مصحاً للمجانين. كل شخصية فيها تبدو غير مكترثة بالشخصيات الأخرى، لاهية بمشاغل مختلفة. ربما كان البعض يرى في كوربيه رساما واقعياً، لكن هذه اللوحة المشوبة بالجنون والعجب، لم تكن واقعية أبداً.

---

[13] ماكس بيشون: روائي ومترجم (1818-1869)، كان اشتراكياً من أتباع فورييه

[14] ألفرد برويا (1821-1877): أحد كبار جامعي الأعمال الفنية في عصره

Twitter: @ketab_n

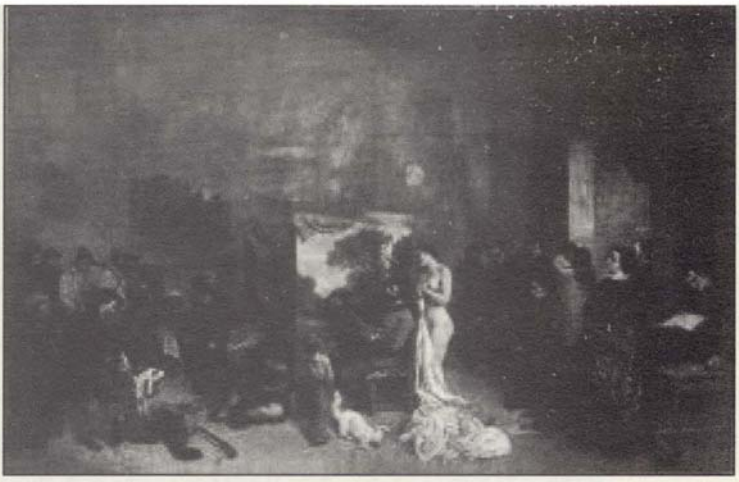

لوحة كوربيه (مَرسَم الفنان...)

بينما كان كوربيه في غمرة العمل، علم بودلير وأصدقاءه بخبر انتحار نيرفال، الذي وجد مشنوقاً في شارع القنديل العتيق La vieille-Lanterne، مما بعث الحزن في نفوس كل من عرفوه. كان الجميع يعرف أن نيرفال أصيب بالجنون، لكن جنونه هذا لم يكن في يوم من الأيام عنيفاً، وبقي الرجل دائماً ناعماً وودوداً، كطفل يحبه الجميع على الرغم من هذيانه ونوبات جنونه. على الرغم من تردده على مأوى العجزة، فهو لم يبعث القلق أبدا في نفوس رفاقه، الذين لم يعرفوا إلى أي درجة كانوا يشكلون، بالنسبة للشاعر، مجرد قناع أم لعبة. انحرافاته العقلية كانت شهيرة. شاع أن يتندر الناس عليها خلال وجباتهم، وبقي على هذا النحو حتى وفاته. على سبيل المثال، قبل بضعة أشهر من وفاته، شوهد في حدائق بور- رويال وهو يحمل دبابيس ربطات عنق من الورق المذهّب، ويجر خلفه كركند حي homard، مربوط بحبل أزرق. ولما سأله أحدهم تفسيراً لما يفعل. فأجاب نيرفال بجنونه الخبيث، بين الجد والهزل: «ماذا؟ هل الكركند أكثر إثارة للضحك

Twitter: @ketab_n

من الكلب؟ أنا أحب الكركند لأنه هادىء وجدي ويعرف أسرار البحر، ولا ينبح أبداً!»

كان بودلير، على عادته، يهرب من دائنيه، ويغير سكنه كل شهر تقريباً. استقر به المقام في غرفة بائسة، مفروشة في شارع سين Seine، تشاركه مخدعه فيها الفئران والبراغيث. عادت كارولين من سفاراتها المتنوعة، لكنها لم تره منذ عام، كانت تمر صباحاً لرؤيته. أما شارل، فكان يرفض الذهاب إلى شقة الزوجين أوبيك الواقعة في شارع شيرش- ميدي. قبلت أمه أن تزوره في أماكن سكنه البائسة (حيث تنقل، خلال شهر آذار فقط من عام 1855 بين أكثر من ستة مساكن) حينما تكون متيقنة بأن جان لا تشاركه فيه، مع أنها كانت تعرف أنه عاد إلى معاشرتها. مع ذلك فقد كانت مسرورة لأن هذه «المرأة الحقيرة» لم تعد تسكن مع هذا الإبن المريض دائماً، والذي لم تكن تفهمه، لكنها كانت تعبده على الرغم من كل شيء، فتزوره عادة كل يوم إثنين. وكانت في كل زيارة لها، تقلق من رؤيته منهكاً، وتسأله عما إذا كان ينوي ترتيب حياته.

صحيح، كان يقول لها، لكم تمنيت أن أنعم بالزوجية، وبخادم وطباخ. تعبت من حياة المطاعم الحقيرة والفنادق، وبطني تؤلمني حينما لا أجد شيئاً أضعه فيها. الشتاء في باريس.. والثلج والوحل والمطر.. كل هذا يؤثر في معنوياتي، فضلاً عن هذا الجسد الذي يخونني باستمرار، ولا يترك لي أي مجال للراحة.

- يا إلهي! صرخت الأم. متى ستضع حداً لهذا الشقاء؟ وكيف يمكنك أن تعيش في مثل هذه القذارة؟

هنا، غضب شاول وأجابها:

- اعلمي أني في حياتي كلها، سواء أكانت ملابسي رثة أم معقولة،

Twitter: @ketab_n

فإني أخصص يومياً ساعتين للعناية بنظافتي. ربما تكون هذه الأماكن مليئة بالقذارة والغبار، لكني لست قذراً ولا يعلوني الغبار.

قبل أن تفارقه، كانت تترك له عشرين أو ثلاثين فرنكاً فوق المكتب (قبلت أن تقدم له ألف وخمسمائة فرنك في شهر كانون الثاني لكي يستأجر سكناً لائقاً، ظناً منها أنها تقوم بواجبها كأم (هذا الواجب الذي كانت أحياناًغير واثقة منه). لكن، ما أن تدير كارولين ظهرها حتى تظهر جان، التي كانت تمر لرؤيته كل صباح، ولاتنام عنده إلا مرة أو مرتين في الأسبوع. هكذا سارت قصتهما، تعوض اللحظات الحلوة لحظات المرارة. قصة يبدو أن لانهاية لها. بودلير الذي قهره هذا الحب واليأس، قرر ألا يفارقها أبداً. لأن هذا «الرفيق القديم ذو الوركين»، والمسؤولية التي يحسها إزاءه[15]، وبو[16] **وأزهار الشر**[17]، من الأسباب النادرة التي كانت تبقيه على قيد الحياة.

لكنه على الرغم من كل هذا لم يتخل عن الرئيسة (ماري دوبران)، ولم يكف عن إرسال الرسائل المغفلة إليها مرفقة بإحدى قصائده. لكن السر ذاع، وأيقنت ماري، أن شارل بودلير هو صاحب هذه الرسائل. عادت ماري دوبران من إيطاليا، وتوسط بودلير لها، لدى جورج ساند لكي تعمل ممثلة في مسرح الأوديون. لكنه انفصل عنها بعد أن استقرت بين ذراعي تيودور دو بانفيّ.

أما جان، فقد عزفت عن التفكير بأي شيء، بعد أن ارتاحت للعودة

---

[15] المقصود هنا جان.

[16] أي إدغار آلا نبو، الكاتب الأمريكي المعروف الذي قام بودلير بترجمة قسم كبير من أعماله إلى اللغة الفرنسية.

[17] اسم ديوان الشاعر المعروف.

Twitter: @ketab_n

إلى عشيقها، الذي انتشلها من الهاويات التي غرقت فيها أثناء تخليه عنها. ولم تكن تعرف تماماً إذا كانت ما تزال تحبه، لكنها مقتنعة بأن وجودهما واحد؛ وجهان ملتحمان، أحياناً متناقضان، لكنهما متضامنان، كوجهي عملة واحدة. طالما كانت تقول في نفسها أنها قليلة القيمة، لكنها تغدو بلاقيمة نهائياً بدونه. ثم هناك ذلك القَسَم الذي يتعامل كل منهما معه بجدية. ما كان يكسبه من قليل النقود، كان يقدمه لها. تحركت مشاعر معارف بودلير لعودة العلاقة بينهما، لاسيما وأن الإشاعات حولهما، كانت تسري بشكل مثير. في شهر آذار، بينما كان كوربيه ينجز لوحته (مَرسَم الفنان)، التقى بودلير أحد المتبجحين الذي كان يكرهه بشدة فأخبره بأنه رأى جان وهي ترقص في إحدى الحفلات العامة «مع أي كان»، ثم تنصرف برفقته. تأثر بودلير كثيراً، وهو المعروف بغيرته المَرَضيّة، أجاب بحزن: «مسكينة هذه الفتاة، إنها تفعل هذا لكي تعيش...»

بعد أن انصرف عنه هذا النفّاج الخطير، الذي تلذذ بجرح الشاعر في أعماقه، ذهب بودلير للقاء كوربيه في مشغله، حيث كان يضع اللمسات الأخيرة على لوحته. قال له بودلير بلهجة التهديد: «أريد أن تمحو جان من اللوحة». حاول كوربيه أن يعارض الفكرة، وأن يقدم له الذرائع من أجل الحفاظ على قيمة اللوحة، لكن بودلير لم يرد أن يسمع شيئاً من هذا كله، وانتهى الأمر بكوربيه إلى الانصياع لرغبة الشاعر. فغطى الخليلة السوداء بطبقة من الدهان المناسب لخلفية الديكور السمراء. لكن بودلير أرهقته هذه المشاحنات مع جان ولم يقل لها أي شيء عما تسرب إليه حول سلوكها، كما لم يتحدث عن إزالة وجهها من اللوحة. مسكينة جان! فقد كان يمكن أن تفعل أي شيء إلا الذهاب إلى الحفل الراقص والتقاط بعض الزبائن! مع العلم أنه يحق للمرء الحذر من الآخرين، من لمسة ريشة أو من جملة، إلا أنها لاتؤثر، غالباً في مصائر الناس. ملاحظة

Twitter: @ketab_n

قصيرة لم تكن ترمي إلا إلى الإساءة، ونجحت في إزالة جان من لوحة «مَرسَم الفنان».

في شهر حزيران، غيّر بودلير عنوانه مرة أخرى، وأقام في فندق نورماندي. كان ينتظر بفارغ الصبر النسخ المطبوعة لترجمته لأعمال بو. فالتقى، لهذا الغرض، ميشيل ليفي في شارع فيفيان، حيث كان بصدد التحضير لنشر الجزء الأول من «**قصص جديدة غريبة**». سبق لميشيل ليفي أن رأى لوحة كوربيه في معرض خاص، وقرأ النقد القاسي الذي كتبه ريدغراف عنها. تضايق الناشر من رؤية وجه ذلك اليهودي الجشع والمرابي، وهو يحتضن علبة مليئة بالنقود، والواقعة إلى يسار اللوحة، مع الملعونين، فقال لبودلير «لماذا تعاشر أناساً يكرهون اليهود؟». فأجاب بودلير بأن بعض أصدقائه لايحبون اليهود لأنهم اشتراكيون ومناهضون لرأس المال، والبعض الآخر، لأنهم رجعيون. في نهاية المطاف، الأمر ليس بهذه الأهمية، فالموقفان يلغي أحدهما الآخر. أما عن رأيه الشخصي باليهود، فهو لايحبهم ولا يكرههم، على كل حال، فهو ينظر إليهم كما ينظر إلى الحلاقين وصبيان اللحامين. مشكلته مع الجنس البشري كله وليس مع فئة منه.

كان الشتاء على الأبواب، ومعه صدرت مقالتان قاسيتان تنتقدان بودلير. الأولى بقلم لوي غودال، في صحيفة لوفيغارو، تتعلق بالقصص الثماني عشرة المنشورة في مجلة **العالمين**، جاء فيها: «خلال ست سنوات، نجح السيد بودلير في أن يكون في عالم الأدب شاعراً عبقرياً، لكن نشر هذه الأشعار، يكشف عن شعر، هوعبارة عن ركام من الجثث والمسالخ.» أما المقالة الثانية، فكانت عبارة عن نسخة خفيفة عن المقالة السابقة تحمل

Twitter: @ketab_n

توقيع لوي مينار، الذي كان يحمل في صدره حقداً كبيراً، أو ربما الغيرة من بودلير.

في شهر كانون الأول، غادر بودلير فندقه السابق (ضعت ولم أعد أذكر أي فندق) ليقيم مع جان في المنزل رقم 18 من شارع أنغولام، حيث استعاد معها الحياة المشتركة. بعد تسعة أشهر على انتقالهما معاً، وبينما كانا يزوران أحد المعارض، لمحت جان لوحة كوربيه، فاقتربت منها وبحثت في هذا الحشد عن الشخصيات التي كانت موجودة فيه، ودهشت لعدم رؤية نفسها معه. فقال لها بودلير عندها، بأن كوربيه سحبها بناء على طلبه، وأنها الآن مدفونة تحت طبقة من الدهان. ما أن عادا إلى الشقة، حتى تشابكا بالأيدي، فصفعها بودلير.

- لم أكن أنا، لا أعرف من روى لك هذه القصة، أنا لم أكن في ذلك الحفل الراقص!

- لا أصدقك! أنت لست سوى عاهرة! أضاف بودلير مبالغاً.

- لقد بلغ السيل الزبى! هذه المرة أنا التي سأتركك!

جمعت أغراضها وتوارت بعد أن ردت الباب بعنف. «لماذا كان عليّ أن أصدق أحد السيئين على حساب جان؟» تساءل بودلير ما أن غادرت الشقة. انتابه الغضب واندفع يركض خلفها. وحينما لحق بها في الشارع، انهارت في البكاء فوق كتفيه. لكن، ما أن أقبل اليوم التالي حتى كانت كلمات ذلك المزعج تلاحقه من جديد. في الأيام اللاحقة، قلب بودلير حياة جان إلى جحيم، وأرهقها بأسئلته، وكلماته القاتلة، وتصرفاته العنيفة. بعد أسبوعين على مشاحنتهما الأولى، عاد إلى الشقة فوجدها فارغة، ولم تكن أغراض جان فيها. كانت هناك رسالة فوق المكتب. فتح بودلير الورقة بيد مرتعشة وقرأ: «أتركك بسبب طبعك الذي لا يحتمل، لم أعد قادرة على العيش معك. وستشكرني ذات يوم لقراري هذا. جان.»

Twitter: @ketab_n

في تلك الليلة لم يغمض لبودلير جفن. في اليوم التالي بحث عن عشيقته في باريس لكنه لم يعثر عليها. وترك رسائل لدى كل الأشخاص الذين كانت على علاقة بهم يطلب منهم فيها بأن يخبروه حالما يرونها. بعد عدة أيام من المطاردة غير المجدية، انهار فوق السرير وقد تلاشت أوهامه واستبد به اليأس. بعد أيام قضاها ملازماً غرفته، لايخرج ولايستقبل أحداً، تلقى بطاقة من جان مختصرة كسابقتها: «قراري لا رجعة عنه. لا تحاول رؤيتي، لكن سأظل أفكر بك حتى النهاية.». أمسك بودلير بريشته، كما اعتاد في مثل هذه الحالة، وكتب إلى السيدة أوبيك وعيناه غارقتان بالدموع:

«إن علاقتي، علاقتي التي استمرت أربعة عشر عاماً مع جان انقطعت. لقد قمت بكل ما تمليه علي إنسانيتي، لكي لايحدث هذا الانفصال. أنا، أعرف أنه مهما خضت من مغامرات جميلة ومتع، ومهما كسبت من مال أو حققت من شهرة، سأبقى نادماً على فراق هذه المرأة. لأنها كانت سلواي الوحيدة، ومتعتي، ورفيقتي. وعلى الرغم من كل الهزات الداخلية التي انتابت هذه العلاقة العاصفة، لم يكن يخطر ببالي أبداً أننا سنصل إلى انفصال لايمكن وصله. لقد أضناني السهر طيلة أيام ستة أمضيتها في حالة إقياء دائم، مضطراً للتواري عن أعين الناس، حتى لا يرى أحد دموعي الدائمة. لقد كان هاجسي أنانياً: أرى أمامي سلسلة لاتنتهي من السنوات التي قضيتها بلا أهل ولا أصدقاء، ولا صديقة، كلها سنوات من الوحدة والمصادفات — لكن لم يكن لقلبي نصيب فيها. إني عاجز حتى عن انتشال كبريائي من عزائي. لأن ما آليت إليه كله كان من صنع يدي؛ مارست كل شيء وأفرطت في الممارسة، لهوت فآلمت، وها أنا أذوق من الكأس نفسها...»

إذاً، كان بودلير في أسوأ حالات الألم. وقراءة مثل هذه الرسالة،

Twitter: @ketab_n

تعطينا فكرة عن مقدار الحب الذي كان يكنه لجان! فهل يفهم الآن، أصحاب ألسنة السوء والأشرار، إلى أي درجة بلغ رباطهما الذي ينطوي على صدق قلبيهما، على الرغم من أدران الحياة كلها؟ كنت قد بلغت من العمر عتيّا، حينما شاءت المصادفة أن أذهب إلى مسرح فندق ديفوسيه، حيث تعرض لوحة كوربيه. ولكم كانت مفاجأتي كبيرة حينما رأيت، وجه جان منبثقاً من اللوحة السمراء التي أزيلت منها، كما لو كانت تنبثق من النسيان، بعد أن أهملها التاريخ، ها هي الآن بادية للعيان فوق سطح اللوحة. عوامل الزمن، وظواهر النضح التي أصابت مالط اللوحة، وتغيرات الطبقات المخضبة فيها، استعادت جان مكانها في **مَرسَم الفنان**، ساخرة من أولئك الذين ما يزالون يرغبون في إخفائها إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

II

علم بودلير بوفاة السيد أوبيك (زوج أمه)، في هذا اليوم الذي بلغ فيه السادسة والثلاثين من عمره، وكان بصحبة بوليه- مالاسي، لمناقشة ترقيم صفحات مجموعة **أزهار الشر**، التي كان من المنتظر نشرها خلال الشهر التالي (لكن النشر تأجل بسبب التصحيحات المتكررة التي كان يجريها المؤلف، واستيائه المستمر من عمل الناشر). لم يذهب شارل إلى شارع شيرس- ميدي، حيث التجمع الخاص بموكب الجنازة، في الساعة العاشرة والنصف من يوم 30 نيسان 1875، مفضّلاً التوجه مباشرة إلى مقبرة بير- لاشيز. لم يكن عدد الحاضرين كبيراً. من بينهم شخصيات مرموقة تنتمي إلى الوسطين السياسي والعسكري. كان بودلير يعرف أن اسمه لن يظهر في وصية الجنرال أوبيك، الذي ستؤول ثروته كلها إلى أمه. فالراحل كان قد رفض أن يتلو على قبره خطاب التأبين أي شخص يزعم أنه يحق له ذلك، سواء أكان من مستواه، أم ينتمي إلى مهنته أو شخصية شبيهة بشخصيته. رأى شارل أمه بثياب الحداد ممسكة بذراع جان — لوي إيمون، صديق زوجها الراحل منذ فترة طويلة، والذي لم يكن يخفي كراهيته للشاعر. وبناء على نصيحته، قررت السيدة أوبيك مغادرة باريس، للإقامة في بيت صيفي اشتراه الجنرال في مدينة هونفلور، غير بعيد عن المنزل الذي تقطنه عائلة إيمون. بالكاد نظرت كارولين إلى ابنها حينما وقف أمامها. فقد وقعت تحت تأثير هذا الرجل الجلف والمزدري.

Twitter: @ketab_n

- ماذا تفعل هنا ياسيد؟ قال له إيمون حينما حياه بودلير.

- كان زوج أمي. أجاب بودلير، وقد حيره هذا الكلام المهين.

- هل دُعيت للمشاركة في هذه الجنازة؟

- لا .. لكن..

- لأن أحداً لم يرسل إليك دعوة. اسمك غير موجود في القائمة. لولاك، ربما عاش الجنرال بضعة سنوات إضافية.

- كيف تسمح لنفسك؟ أجاب بودلير غاضباً.

- كان يعدّك بمثابة ابنه، لكنك خنته بحياتك الفاضحة، و لم تكف عن مضايقة والدتك وتعذيبها كلما تسلمت رسالة منك. ما كان عليك أن تأتي، لأن الحاضرين هنا هم ممن كانوا يحبون زوج والدتك ويحترمونه.

تركته السيدة أوبيك يتكلم دون أن تعترض على الإهانة التي كان يتعرض إليها ابنها، مما أزعج بودلير كثيراً. لم يبق حتى نهاية مراسيم الجنازة، وعاد فوراً إلى بيته ليتابع عمله في تصحيح أوراق مجموعته، التي كانت مليئة بالأخطاء الإملائية. غضب بودلير من «كوكو مالبيرشيه» (كان ينادي مالاسي بهذا الآسم)، وكتب له رسالة غاضبة، يرجوه فيها العمل على تلافي هذا الأمر في الأوراق التجريبية. ثم أرسل رسالة إلى أمه ليسألها عما إذا كانت راغبة في أن يسكن معها في هونفلور. أصبحت باريس تثير الرعب في نفس بودلير. ولم يعد لديه سبب للبقاء فيها بعد أن تخلت عنه جان. جان التي لم يتلق أي خبر عنها أو منها، منذ أن تركته، ولا يعرف حتى مكان إقامتها. لكن، حينما كان الحظ يبتسم له، يحول بعض النقود إلى رقم حسابها في المصرف الذي كانت تتعامل معه.

بعد بضعة أيام، تلقى جواباً من أمه. أبلغته أن السيد إيمون رأى أن السكن معها فكرة بالغة السوء، وطلبت منه بألا يعيد عليها هذا الاقتراح مرة أخرى. قلق شارل من سيطرة إيمون على أمه، مع أنه كان شديد التأثر

Twitter: @ketab_n

على وفاة الجنرال، بعكس ما كان يعتقد إيمون. على الرغم من العلاقة الصعبة بين بودلير والجنرال، فقد فهم بودلير الآن أن الجنرال أوبيك قد قام بالدور الذي يمكن أن يقوم به الأب، على الرغم من قسوة هذا الدور وبلادته. لقد حاول طيلة حياته، منع هذا الشاب المعذب من السقوط في أشراك شياطينه. لاشك في أن الجنرال لم ينجح في هذا، لكنه بذل كل ما في وسعه، على طريقته وطبعه العسكريين. في بداية حزيران، ذهب بودلير لزيارة قبره. لم يعثر عليه في بداية الأمر، لأن الجثمان كان قد تم نقله. ، حينما استطاع، في نهاية الأمر، العثور على القبر، وضع فوقه بعض الورود قائلاً:

- بابا، جاء وقت العفو والمصالحة. في نهاية هذا الشهر، ستشهد حياتي حدثاً كبيراً. سأحظى أخيراً بالشهرة، وربما الثروة. آمل أن تكون فخوراً بي ولو لمرة واحدة.

وبانتظار تلك الشهرة وذاك المال، ظلّ البؤس مخيماً على حياته.

أخيراً، صدرت مجموعته الشعرية التي أهداها إلى صديقه تيوفيل غوتييه. وأرسل عدداً كبيراً من النسخ إلى ذوي الشأن في ميدان الأدب، إضافة إلى أصدقائه المقربين، ونسخة إلى فيكتور هيغو. ولم ينس جان، بعد تمكنه من الحصول على عنوانها. لم يكتب على النسخة التي أرسلها إليها، سوى جملة واحدة مقبوسة من إحدى القصائد. بيت شعر رائع، وقد يكون اروع ما كتب، يقول: «ذكراك تلمع في داخلي كما يلمع وعاء القربان المقدس.»

أرسل نسخة إلى أمه في هونفلور، بعد تردد، لأنه كان يعلم بأنها لن تفهم شيئا من شعره، ورجاها بإلحاح ألا تطلع عليه السيدة إيمون لشدة تزمتها. وبالفعل، فقد أصيبت السيدة أوبيك بصدمة رهيبة حينما اطلعت على التجديف الذي كانت تقرأه في كل صفحة، لأنها كانت شديدة الورع

Twitter: @ketab_n

ومتشبعة بالأخلاق الكاثوليكية. وأخبرته بأنها في غاية الخجل لكونها أم هذا الطفل.

شهدت المجموعة نجاحاً فورياً. لكن هذا النجاح ترافق، مع الأسف، بجدل صار معروفاً من قبل الجميع. أول من تناول المجموعة بنقده كان غوستاف بوردان، صهر فيلماسان، مدير صحيفة لوفيغارو، التي كتب فيها مقالة قاتلة، تدين لا أخلاقية المجموعة بعبارات صاخبة. ومما قاله فيها، أنها تعبر عن «البشاعة والنذالة» وأن «القرف يتحالف فيها مع القذارة»، لينتهي إلى القول بأن «هذا الكتاب هو مشفى مفتوح لكل انحرافات العقل»، وأن لاشيء يبرر لرجل، يزيد عمره على الثلاثين عاماً، أن يقدم دعاية لمثل هذه الأمور «الشائنة». أما بولان ليمايراك، فقد كتب في مجلة «الدستوري» مقالة لا تقل قسوة عن سابقتها. والأنكى من هذا أن كل من وعد بودلير بدعمه صحفياً، قد تخلى عنه، بدءاً بالمتذبذب سانت- بوف. استنفرت السلطات أمام هذه الفضيحة، لدرجة أن وزير الداخلية أرسل إلى المدعي العام، في 7 تموز، رسالة يدين فيها ست قصائد من الديوان. ورفعت القضية إلى النيابة العامة، باعتبارها «جنحة إهانة الأخلاق العامة». في الحقيقة، أن هذا الفاضل بييّو، وزير الداخلية آنذاك، قد تسرّع في إرسال بودلير أمام المحاكم، وأول من أغضبتهم المجموعة، كما تبين لاحقاً، فاتفق مع بوردان مستعجلاً إياه في كتابة مقالته ليضع بين يديه دليلاً على أن الفضيحة كانت ذات طابع عام.

لكن، في 14 تموز، نشرت صحيفة لومونيتور، مقالة غير متوقعة، لصالح المجموعة باسم ادوار تييري. هنا أصيبت استراتيجية بييو بالخلل، وأصبح من الممكن ألا تنجح. إذ لو بدأ عدد المقالات، التي تقف إلى جانب المجموعة يتزايد في الصحف، سيصبح من الصعب دعم استراتيجية الوزير. تقدم باربي بمقالة ودية تمدح المجموعة إلى صحيفة البلد pays، فردت

Twitter: @ketab_n

عليه بجفاء: «لن ننشر مقالة في صحيفة البلد حول شارل بودلير.». كما رفضت مقالة لأسولينو، مدير مجلة العالمين. أما الشاعر الكبير، لوكونت دوليل Leconte de Lisle، الذي كان اسمه لامعاً، وتربطه علاقات بمسؤولين كبار، حتى في الوزارات وأركان العدل، أرسل رسالة إلى بودلير يحذره فيها من حقيقة الخطر الذي يحيط به. تمت تسمية أحد مفتشي الصحافة للحجز على النسخ غير المباعة من ديوان أزهار الشر، المتبقية لدى الناشر. بعد هذا التسريب، انتاب الغضب بودلير، فكتب إلى مالاسي طالباً منه إخفاء النسخ المتبقية بعيداً عن أيدي السلطات. في 16 تموز، وصل مفتش الصحافة إلى مدينة آلانسون، وتوجه إلى مطبعة مالاسي في الساعة 17، لحجزالنسخ التي لم يتمكن الناشر من إخفائها، فجن جنون بودلير. ها هي رائعته التي كان ينتظر منها أن تحقق له المجد والنجاح، تحولت إلى قضية قانون وعار. فكتب إلى آشيل فولد، وزير الدولة و شؤون الإمبراطور، محاولاً إقناعه بأنه قد أسيء فهم مجموعته، مذكراً إياه بالعلاقات االرائعة التي كانت تربطه، ووزارته من خلفه، بالزوجين أوبيك. لكن كل هذا لم يجد نفعاً، ولم تنجح جهوده كلها في أن تقف مانعاً أمام استدعائه من قبل قاضي التحقيق. وصلتُ إلى باريس للوقوف إلى جانب صديقي القديم، فالتقيته عشية جلسة الاستماع. كان بودلير متوتراً، وعليه أن يعثر على محام بأسرع ما يمكن. سألته:

– لمَ لاتطلب من شقيقك ألفونس؟ هل تعلم أني التقيته مصادفة في فونتينبلو منذ وقت قصير؟ الشبه بينكما مذهل! تعرفت إليه فوراً، مع أني لم ألتقيه أبداً. إنه رجل طيب وكفوء! يمكنه الدفاع عنك.

– إنه أحمق، صحح لي بودلير. إضافة إلى أن هذه القضية لاتدخل ضمن اختصاصه، ولست واثقاً من أن القانون يسمح بتوكيل محام من العائلة نفسها.

Twitter: @ketab_n

في 24 تموز، كان شارل يخضع إلى استجواب استمر ثلاث ساعات في قصر العدل. أضيفت سبع قصائد أخرى إلى صحيفة الإدعاء، زيادة على الست الأخرى المدانة بتهمة «إهانة الأخلاق العامة». قاضي التحقيق، شارل كاموزا بوسيرول، تصرف بلطف ومودة مع بودلير، فأجلسه قبالته وتعامل معه باحترام وتهذيب.

– القضية كلٌ متكامل. شرح بودلير، ظناً منه أنه سيجد حليفاً له، وعلى العكس مما تعتقده وزارة العدل، فإن شعري ينطوي على مجموعة من الأخلاقيات. أنا هنا لا أهين القيم الأخلاقية، بل على العكس تماماً، الحقيقة أنني فخور بإنجاز كتاب، يبين هول الشر والرعب الذي يتمخض عنه.

– إ م م.. تمتم القاضي. كيف إذاً تفسر بأن الصحافة والوزارات العامة لم تفهمه على هذا النحو.

– ألا تعرف؟. ذلك لأن وزير الداخلية قرأ مقالة تمدح كتابي في صحيفة لومونيتور، فاتخذ احتياطاته لكي لايتكرر مثل هذا الأمر! السيد دورفيي، لم يتمكن من نشر مقالته في صحيفة البلد مع أنه كاتب كاثوليكي، صاحب نفوذ، وبالتالي لايمكن لآحد أن يأخذ عليه أي مأخذ. و شارل أسولينو، الأكثر حكمة واعتدالاً من بين كل الكتاب، لم تسمح له صحيفته بنشر مقالته، التي فيها من المديح أكثر مما في مقالة دورفيي! تصور أن وزارة الداخلية قد أخبرت هذين الكاتبين المحترمين، بأنهما يقومان بمخاطرة إذا نشرا مثل هذه المقالات! ألا ترى أنهم يقتلون كتابي؟ ما هذه الدعاية السيئة التي يروجون له من خلالها! لذلك فهذه القضية، من شأنها أن تمنع الأشخاص الذين يمكن أن يجدوا شيئاً جيداً في مجموعتي من شرائه.

وكّل بودلير المحامي شيه ديست آنج، الإبن Chaix d'Est Ange fils،

Twitter: @ketab_n

المعروف بجودة مرافعاته، لكن تبين أنه قليل الخبرة في مجال الأدب، وتنقصه الحدة. في 13 من الشهر نفسه، اقتيد بودلير، بصحبة محاميه، أمام جلاديه. كان الرئيس دوباتي، وبينار المحامي العام الامبراطوري، أما القضاة الثلاثة الآخرون فهم: ديليفو وداميكور وناكار. قال بودلير في نفسه حينما التقاهم: «يالإلهي ما أقبحهم!». كان بينار، على نحو خاص، يبعث في نفسه الخوف. لما يتمتع به من فصاحة وثقافة، ومن هنا مصدر خطره. وجهه الشرير والرهيب، ولحيته الحليقة، جعلت بودلير يرى فيه نذير شؤم. أحيلت القضية أمام الغرفة السادسة، ولم يكن بودلير شديد القلق في حقيقة الأمر. إذ تم العفو عن فلوبير، الذي عانى مثل هذه المغامرة السيئة، بسبب روايته مدام بوفاري، ولم يخطر بباله، أنهم اليوم، سيحكمون على كتاباته بناء على الأسس نفسها. بعد التئام المحكمة، ذهب لملاقاة أبولوني ساباتييه في حدائق بور رويال. كانت بصحبة أختها الصغرى، وهي شابة بقسمات طفلة. حينما رأت بودلير قادماً، قالت له:

- هل صحيح أنك ما زلت عاشقاً لأختي، وتكتب إليها دائماً رسائل و قصائد رائعة؟

ثم انفجرت في ضحكة تحمل من الخبث بمقدار ما تحمل من البراءة. بدا بودلير متفاجئاً واحمرّ وجهه. حملق في وجه الرئيسة وهمس في أذنها:

- معبودتي العزيزة، مع هذه القضية التي أحملها على كتفي، حبذا لو كنت أكثر كتماناً لمشاعرنا المتبادلة!

بدأت الجلسة يوم 20 آب. في العشية، كان بودلير قد تلقى رسالة من مدام ساباتييه تقول له فيها أنها مغرمة به. فامتلأ فرحاً بهذا الاعتراف الذي منحه الشجاعة للمثول أمام المحكمة. كان جوّ القاعة ثقيلاً وغير صحي. حضر قلّة من أصدقاء بودلير. لم يكن هناك سوى باربي دورفيي، وأسولينو، وشامفلوري، وأنا. بريفا غاب عن الساحة، ونادار كان مسافراً

Twitter: @ketab_n

خارج البلاد. حينما أعلن الرئيس مآخذه على الشاعر، ندّت ضجة بين الحاضرين، سببها نارسيس آنسيل الذي كان يدفع الناس بيديه ليدخل القاعة بقوة. ياله من شهم هذا النارسيس! إنه جرح بودلير، و«مصيبته»، ومع هذا فقد أصبح صاحباً وفياً، أخاً بالتبني. يالهذه العلاقة الغريبة بين هذين الشخصين! بوليه مالاسي، ناشر **أزهار الشر**، المدان أيضاً بإدعاء الوزارة العامة، لم يمثل أمام المحكمة. حينما جلس الجميع في أماكنهم، وخيم الصمت من جديد، بدأت الجلسة. كان المدعي العام لامعاً وفاجراً، كما كان متوقعاً. في لحظة معينة، ولكي يعزز اتهاماته، قرأ أمام المحكمة، المقطع الأخير من قصيدة «**إلى تلك الجذلانة**»، وهي قصيدة كتبها الشاعر في أحد مواخير فيرساي إلى السيدة ساباتييه. ولو عرف القضاة الظروف التي كتبت فيها لدارت القضية ضده.

- « ... و، **نعومة مُدَوِّخة! من خلال هاتين الشفتين الجديدتين، الأكثر لمعاناً وجمالاً، أنفث فيك سُمّي، ياأختاه!**». هلا شرحت لنا يا سيد بودلير ما تقصده بـ«**هاتين الشفتين الجديدتين**»؟

- انها استعارة ياسيدي النائب.

- وغير هذا؟ هل يمكنك أن تفصّل أكثر؟

- إنهما شفتا الروح اللتان تنفتحان على الحب، ياسيدي المدعي العام.

- وما ذا عن هذا «**السم**» الذي تريد «**نفثه**»؟

- أعني به سم الحب ياسيدي النائب..

- ألا يعني هذا بالأحرى ذلك المرض، الذي ربما أنت مصاب به، والذي ينتقل كما نعرف؟

- لماذا تصر على فهم شيئ آخر غير ما هو مكتوب؟

- هل تظننا أغبياء يا سيد بودلير؟ تزعم أنك كتبت عملاً أخلاقياً...

Twitter: @ketab_n

فهل نصدق أن بعض الأزهار التي تتضوع عطراً مُدوِّخاً، يمكن أن تكون صالحة للشمّ؟ ألا يبعدنا السم الذي تحمله عنها؛ فهو يصعد إلى الرأس، ويحرق الأعصاب، ويبعث الاضطراب، وقد يكون قاتلاً أيضاً!

ترى ما هو هذا السم القاتل، الذي كان يتحدث عنه بينار؟ فكر الجميع وهم يستحضرون، بطبيعة الحال، القصيدة التي تحمل هذا الاسم في المجموعة. الجميع، باستثناء بودلير، طبعاً الذي لم يكن يرى في هذا الشعر أي سوء. توقفت الجلسة قبل المرافعة والاتهام. أسيئت معاملة بودلير خلال المناقشات، مما أثر على كرامته ومعنوياته. كانت سحنته حزينة حينما سرنا معه، أنا وأسولينو، في باحة قصر العدل.

- المثير للفضيحة، قلت، ليست المجموعة فحسب، بل أنت أيضاً. الحياة التي تعيشها، والسيفليس موجود، لمن يريد رؤيته، في أشعارك... باربي، ربما لم يكن مخطئاً حول هذا الموضوع... حينما يزعمون أنهم يريدون وضع حد لهذا النوع من الأدب، أنت ترى جيداً ما يريدون قوله! ثم هناك جان، طبعاً... الحاضرة في عدة قصائد. علاقتك بها تشكل فضيحة منذ عدة سنوات، ألا تعرف هذا؟ هنا، يجعلونك تدفع ثمن علاقتك بجان أيضاً. إنهم لا يحتملون أن تعيش مع زنجية...

- لكني لم أعد أعيش معها! أنا شديد التعاسة لأنها ليست إلى جانبي.. آه لو كنت تعرف كم اشتقت إليها خلال هذه المحنة.

بعد هذا التوقف القصير، استمع الحضور إلى اتهامات بينار.

- ... الوثنية كانت تخجل من أن نجد أنفسنا في مدن مهدمة مثل بومبيي وهيركولانوم. لكن في المعبد، كان عري هذه التماثيل، في الساحة العامة، عفيفاً. هؤلاء الفنانين عبدو الجمال التشكيلي، وصوروا الأشكال المتناسقة لجسم الإنسان، ولم يظهروه لنا حقيراً، أو يختلج في قيد الفسق. كان القدماء يحترمون الحياة الاجتماعية! فلماذا لا نحترمه أيضاً في

Twitter: @ketab_n

مجتمعنا المفعم بروح المسيحية! إذا كان للجسد، كما عرضه السيد بودلير، مثل هذه الألوان الفاضحة التي تُفسد من لا يعرفون شيئاً عن الحياة، وإذا كان يثير فضول السيئين، والأحاسيس الميته، فإنه بذلك يصبح خطراً دائماً. وبما أن الأدب ليست مهمته أن يكون مستودعاً لغرائزنا المنحطة، فإني أطلب إدانة السيد بودلير، وأن تكون إدانته بمثابة عبرة لمن يعتبر. كما أطلب حذف القصائد الست التي تجاوزت الأخلاق العامة والحدود والمشروع، من الطبعة الحالية.

بعد هذا اختتم المحامي شيه ديستانج الجلسة بمرافعة جدية، لكنها تخلو من الموهبة، فشرح القصائد المجَرَّمَة، بدلاً من أن يرفع مستوى النقاش وحدته، والحديث عن فضيلة الفن، الذي لايمكن لأحد ترويضه وعن العدالة الشاملة، التي لا يمكن اختزالها بنص قانوني. وبالتالي فقد كان خطابه فاشلاً لم يؤد إلى النتيجة المرجوة منه. و ما أن انتهى منه، حتى طُلب من بودلير ما إذا كان لديه شيء يضيفه. فنهض وتناول الحديث:

– إذا لم تقرأوا القصائد في سياقها وضمن العمل كله فإنكم بهذا تمارسون التجديف الحقيقي. عن أية أخلاق حميدة تتحدثون، وعن أية عفّة مُعَذبة هذه التي لاتنتج سوى العصاة، حتى في نظام الحالمين الغارق في الطمأنينة؟ قولوا: عليكم ألا تكتبوا سوى أشعار تعزي النفس، وتبرهن على أن الإنسان ولد خيّراً وأن البشر كلهم سعداء! ما هذا النفاق الحقير!. لكن غضب بودلير هذا لم يسمعه أحد. لم يتضمن حكم المُحلفين أية إشارة إلى جنحة «إهانة الأخلاق الدينية»، لكن جاء فيه أن القصائد الست المُجَرَّمَة «تؤدي بالضرورة إلى إثارة الغرائز من خلال واقعية فظة وخادشة للحياء»، وأن الكتاب يتضمن «عبارات بذيئة وغير أخلاقية». وحكم على بودلير باقتطاع القصائد المُجَرَّمَة من مجموعته ودفع مبلغ ضخم قدره ثلاثمائة فرنك كعطل وضرر. كان الحكم بمثابة تدمير لبودلير.

Twitter: @ketab_n

خرج شارل من المحكمة تائهاً، كما لو أنه تعرض للجلد بالعصا. كان مُنهَكاً أشبه بالشبح.

- هل كنت تنتظر العفو؟ سأله أسولينو.

- العفو؟ لم أفكر للحظة واحدة بصدور أي حكم عليّ. كنت أنتظر بالأحرى، أن يطلبوا إصلاحاً للضرر!. كان فلوبير يحظى بدعم الإمبراطورة. أما أنا فلا.

- اكتب إليها! أخبرها بأن الإهانة التي تعرضتَ لها أكبر من إهانة الأخلاق العامة.

- سأكتب إليها، أجاب بودلير. مهما يكن من أمر، لن أستسلم، وإلا فعلي أن أموت فوراً!

في المساء نفسه، ذهب إلى بيت السيدة ساباتييه. بعد خمس سنوات، اتبع خلالها كل الوسائل لكسب قلب السيدة، ها هو الآن مستعد لأن يأخذ منها ما يستحقه. فتحت له الباب. كانت لوحدها، فرمت نفسها بين ذراعيه. مرر شارل يده خلل شعرها الحريري، ذي التموجات الذهبية قائلاً لها:

- حان الوقت يامعبودتي الحبيبة.

أبوليني ساباتييه (الرئيسة)

Twitter: @ketab_n

استسلمت أبولين له بلا تحفظ. لكن حينما اكتشف بودلير جسد تلك المرأة، التي كان بالكاد يعتقد أنها مخلوقة من لحم ودم. نهدان ثقيلان شائخان ومتدليان، وقوام بدين (ولدت في العام نفسه الذي ولد فيه، وبالتالي فلم تكن طازجة)، فلم يتمكن من إشباع رغبته الجامحة، وهو ماأثار قلق الرئيسة المغرمة به، لكن شارل شعر بمرارة عميقة. هذه الإلهة، لم تكن في نهاية المطاف سوى إمرأة مبتذلة. طلبت منه تفسيراً لغمّه وتمنُّعه. فلم يعثر على جواب. حدثها عن احترامه لعشيقها موسيلمان (المتمولِ البلجيكي)، وعن عدم رغبته في الإساءة إليه، وعن إفلاسه المادي، وفشل مجموعته أزهار الشر. كانت تلك الأسباب كلها حقيقية، لكنه كان يعرف، أنها لم تكن السبب الحقيقي. أحست أبولين بإهانة عميقة، لكنها لم تبك. في هذه اللحظة، كان بودلير يفكر بعشيقته القديمة، التي كانت ذكراها تغرقه في حزن عميق لم يستطع إخفاءه. فهمت أبوليني ما يدور في رأسه، فثارت ثائرتها وسألته عما إذا كانت جان هي السبب . فلم يجب شارل بأي كلمة. اشتد غضب الرئيسة ووبخته. كان يراقبها وهي تصرخ في وجهه، دون أن يصدر عنه أي رد فعل. أُسقط بيد الرئيسة، وأحست بالعذاب والإهانة، فطردته من البيت. على الرغم من عنف هذا المشهد، وشعوربودلير بالذنب إزاء الرئيسة، إلا أنه كان يحس بالارتياح. بعد بضعة أيام، تلقى منها رسالة تقول فيها: «لا أستطيع أن أقاوم رغبتي في أن أقول لك بضع كلمات تتعلق بما حدث بيننا . مع أنني فرضت على نفسي سلوكاً ملؤه الكرامة، ولم يمر يوم واحد إلا وخانت الشجاعة قلبي، لكن ياشارل، غضبي كان مشروعاً . ترى بماذا كان علي أن أفكر، وأنت تهرب من مداعباتي، إلا بأنك تفكر بامرأة أخرى، وقف سواد روحها ووجهها بيننا؟ إن الغيرة تحرقني...» انتظر بودلير يوماً ثم كتب إليها معلناً أنه لايحبها .

عرف بودلير لاحقاً، سبب غياب بريفا عن جلسة المحكمة، وهو نقله

Twitter: @ketab_n

إلى مشفى لاشاريتيه على أثر مرضٍ ألمَّ به في ذلك اليوم. ولم يتمكن بودلير من عيادته بسبب انشغاله بقضيته القانونية. كتب رسالة إلى الإمبراطورة يرجوها التدخل لمصلحته، محاولا أن يثير مشاعرها، شاكياً لها أن «الغرامة التي أضيفت إلى الحكم تشكل نفقات غير مفهومة»، تتجاوز «ملكات الشعراء الكلامية». أراد بودلير أن يستأنف الحكم، لكنه نُصح بعدم اللجوء إلى هذا الإجراء، والأفضل له التعبير عن ندمه أملاً في تخفيض العقوبة، بدلاً من الانحدار إلى هذا المستوى من الضعة التي لا تليق به. فانصاع للنصيحة، لاسيما وأنه لم يجد أي جهة تقف إلى جانبه. وبالفعل، تم تخفيض الغرامة من 300 إلى 50 فرنكاً، لأن «المحكوم قد عبر عن توبته». هذا الحل لم يحقق لبودلير الراحة والعرفان، لأن سمعته قد تلوثت، واستئصلت القصائد الست من الديوان.

بعد مشاحنة مع آنسيل، بسبب ما فسره على أنه خيانة من قبله، قرر التوجه إلى هذا الوكيل القانوني وإهانته أمام زوجته وأطفاله، بل إلى حد طلب مبارزته بالسيف. لكن مرضه بدأ يتخذ أعراضاً متنوعة ومؤلمة: نوبات ألم في الكولون، واضطرابات معوية حادة، وضعف جسدي لاحدود له. وصار يعاني الكآبة والشعور بالهجران، فتخلى عن ترجمة بو، وعن مشاريع أدبية مختلفة كان قد باشر فيها. أراد العودة إلى رياضة المبارزة، لاستعادة حيويته وصحته الجسدية، وفكر بالإقامة في أحد مراكز الاستشفاء. وعاد للكتابة إلى أمه، علّها تقبل أن يوافيها إلى هونفلور. لكن السيد إيمون عارض الفكرة بإصرار، والسيدة أوبيك كانت أكثر من مترددة. خلت حياة بودلير من النساء، وأحس بالحاجة إلى الحب أكثر من حاجته إلى النقود. لكنه، استيقظ ذات صباح، فإذا بساقه اليسرى مشلولة ومتورمة، فلم يستطع مغادرة السرير. تناول جرعة كبيرة من الأفيون لتسكين آلامه. بعد عدة أسابيع قضاها في هذه الحالة من الكرب، عادت ساقه للتحرك

Twitter: @ketab_n

وراح الألم يخفّ شيئا فشيئاً، عندها أعاد التعبير لأمه عن رغبته في أن يذهب إلى النورماندي ليتنشق الهواء النقي ويرتاح ويعمل هناك.

بعد عام على هذه الطلبات المرفوضة، انتهى الأمر بالسيدة أوبيك إلى القبول بإقامته عندها. استقر به المقام في إحدى غرف الطابق الأول من البيت، الذي كان يسميه «بيت اللعبة»، لكثرة الدانتيل الذي كان يزيّن نوافذه ومدخله وسقفه المثلث الشكل، والأوسع من المساحة المبنية، مما جعله على هيئة منزل اللعبة. بقي هناك ستة أشهر، يستمتع بالمنظر الذي كان يطل على البحر، كما تمكن من العودة إلى عمله وحيداً. تابع ترجمة أعمال بو، وقام بتصحيح كتابه «**الفراديس المصطنعة**»، واستمر في إغناء أزهار الشر بقصائد جديدة، لتعويض تلك التي فرضت المحكمة إزالتها، والعمل على إعادة طبعه مرة ثانية، هذا إضافة إلى شروعه في كتابة سيرته الذاتية. لكنه اشتاق إلى المقاهي الباريسية، وجلبة العاصمة، وإلى اللودانيوم الذي لم يعد لديه منه شيئاً، لاسيما وأنه أصبح مدمناً تماماً على المخدر. حينما لم يكن شارل يجد منه شيئاً، يصبح سريع الاستثارة، ومستعداً للشجار. فلا شيء يسكن آلامه المعدية سوى الأفيون. اقترض النقود من كل من كان مستعداً لإقراضه إياها، وهو عارف بأنه لن يسترد نقوده أبداً (كان نادار أول من أرسل إليه 20 فرنكاً). وكان أصدقاؤه دائماً مستعدين لتقديم النقود التي يحتاجها. أما جان، فلم تغادر مخيلته قط.. فكان غالباً ما يرسل إليها الرسائل. في بداية ربيع 1859، تلقى رسالة من أحد الأشخاص يعلمه فيها بأن جان تعاني من مرض شديد، وأنها أصيبت بالشلل. حزم بودلير أمتعته، وعاد على جناح السرعة لرؤيتها في باريس. بعد فترة وجيزة علم بوفاة بريفا دانغيلمون.

Twitter: @ketab_n

iii

كانت جان تقيم في فندق يقع في شارع بوتريس Beautreillis في حي الباستيل. ما أن وصل بودلير باريس، حتى ذهب لزيارتها قارعاً بابها كالمجنون، بعد أن أرشدته عاملة الفندق إلى غرفتها. فتح الباب، وظهرت إحدى صديقات جان التي سبق لشارل وان التقى بها مرتين أو ثلاث مرات.

- ادخل سيد بودلير، قالت المرأة.

ما أن تجاوز عتبة الباب، حتى رأى جان جالسة وركبتاها ممددتان فوق السرير، وشعرها الأسود ينساب فوق كتفين أشبه بكتلة من الأسفلت. كان لون جلدها فاتحاً بشكل عجيب، وكانت شاحبة. بدت ساقها اليمنى متخشبة، وضعيتها غير منسجمة تماماً مع وضعية الجسم. رائحة لاذعة تغشى جو الغرفة التي لم تفتح نوافذها منذ فترة طويلة. «شارل»! صرخت جان حينما رأته. وكابدت صعوبة لتبتسم له، بسبب الشلل الذي أصاب جانب فمها الأيمن. و بحساسية الطفل التي يتمتع بها بودلير، أصيب بالانفعال والدهشة لمرأى عشيقته، فغلبه النحيب. بقي لحظة دامع العينين على مدخل الباب. انسحبت الصديقة، التي لم يرها حتى وهي تغادر الغرفة. حينما أغلقت الباب وراءها، طلبت جان منه أن يقترب منها.

- تعال شارل.: اقترب مني.

- انعقد لسان بودلير، فلم يستطع أن يتلفظ بأي كلمة، وراح يقترب

Twitter: @ketab_n

منها ببطء. رأى دموعاً تسيل من عيني حبيبته. فرد عليها بودلير وعيناه مخضلّتان بدمع شوّش رؤيته خلال هذه المحادثة الصامتة المؤلمة. وصل إليها، لكنه بقي كالأبله، يتفرس فيها دون أن يفعل شيئاً.

- يمكنك تقبيلي، فلست قطعة سكر تذوب. لن أنكسر. لا تخف يا حبيبي.

عندها عانقها طويلاً، دون أن ينبس ببنت شفة، واجتاحتهما حالة من الضنى المسكر. غرقا في حرارة جسديهما المتثاقلين، وفي بروق حلو الذكريات ومرّها، والأسرار والأخطاء وأوقات السعادة التي قضياها معاً. كانا مثل ملاكين انتزعا من سمائهما، كطائريّ قطرس أسقطهما عشقهما الأثيري من علياءالسماء إلى ما تحت الأرض. استسلما إلى دموعهما التي لم يعد كل منهما راغباً في حبسها. ظلا يبكيان على هذا النحو ويضم أحدهما الآخر فترة لابأس فيها.

- سأبحث عن شقة. قال بودلير، وسنعود إلى حياتنا المشتركة، كما كنا سابقاً.

- لكن وضعنا السابق لم يكن دائماً في أحسن حالاته...

- لقد تقدم بنا العمر يا طفلتي العزيزة، وتعقلنا. سننجح هذه المرة بشكل أفضل. وأعدك بهذا بشكل قطعي وعلى رؤوس الأشهاد. وإذا لم تتخلّ عني، سأبقى إلى جانبك وأعتني بك، هذا إذا لم يأخذني الموت قبلك.

ابتعد عنها متأملاً فيها، والألم يعتصره للحال التي وجدها عليها.

- هل تتألمين؟

- أحياناً. حينما يستبد الألم بنصفي الأيمن، لايبقى أمامي سوى الكحول. يبدو لي، أحياناً، أنني قادرة على تحريك قدم أو يد، لكن الشلل يعاودني كلما ولد في نفسي الألم.. ثم..

- ماذا؟

Twitter: @ketab_n

- رؤيتي.. إنني أفقد النظر. لم أعد أرى بعيني هذه أي شيء. قالت وهي تشير إلى عينها اليمنى.

أمسك شارل بيدها قائلاً:

- لقد سددت ديوني كلها تقريباً - بعد أن بعت كل ما أملك- وتصالحت مع أنسيل، بعد أن تبادلت معه كلمات قاسية في الآونة الأخيرة. وكسبت مالاً كافياً، يسمح لنا باستئجار شقة جميلة، بأجر معقول، وخادمة يمكنها الاعتناء بك حينما لا أستطيع ذلك، أو حينما أكون غائباً.

نهض ليزيح بيده الستارة المصفرّة، فرأى، من خلال النافذة، صبيا يلعب لعبة الكعاب مع أخته.

- هل تعرفي أن مالاسي يسكن الشارع نفسه، حينما لا يكون في الانسون؟

- نعم، شارل، وهذا لم يكن من باب المصادفة تماماً. لم يشأ أن يخبرك بشيء، لكنه ساعدني خلال هذه السنوات الأخيرة. هو من أسكنني هذا الفندق ودفع أجرة الغرفة.

لقد كذب بودلير. فلو باع فعلاً ما بقي لديه من مقتنيات فنية، ولو قبض من ميشيل ليفي مبالغ كبيرة لقاء ترجماته، فلن تكون هذه المبالغ كافية لتسديد ديونه، و رأسماله يكاد ينضب، أو لم يبق له منه شيئاً. لكنه التزم بعهده، وعثر على سكن في نويي بواسطة نارسيس أنسيلم، الذي ما يزال غير مهتم بنفقات بودلير. لكن الوكيل القانوني هذا، رأى أن هذه حالة قاهرة، فاستسلم لبودلير. أعتقد، في العمق، أن آنسيل، بعد هذه السنوات، قد تعلق بجان وكان فعلاً يشفق عليها.

إذاً، استقر المقام بالزوجين في نويي مع نهاية آذار. لكن حالة جان لم تتحسن، بل راحت تتعاظم. بعد نقاش طويل، تمكن شارل من إقناع جان بالانتقال إلى أحد المشافي حيث العناية أفضل، بانتظار أن تتعافى كليا

Twitter: @ketab_n

(وظاهرياً) من حالتها. في بداية نيسان، وضعها في عربة ورافقها حتى مشفى ديبوا البلدي الواقع في ضاحية سان دوني Saint-Denis.

لدى دخول جان المشفى، صرحت بأن اسمها جان ديفال وأنها ولدت في سان دومينغ عام 1927، أي أنها الآن تبلغ الثانية والثلاثين من عمرها. من المحتمل أن تكون قد أنقصت، بهذه المناسبة، من عمرها سنة أو سنتين، وهي سمة من سمات التحفظ الخبيثة لدى النساء.. كان المكان نظيفاً ومرتباً، لاسيما وأن جان قد حصلت على غرفة خاصة بها، مما يعد شيئاً فاخراً وتكريماً للشاعر، لأن المشفى كان ممتلئاً بالمرضى. بقي شارل صبيحة اليوم كله معها، بعد أن تفقّد المكان. في الطابق الأرضي، غرفة واسعة تطل نوافذها على ساحةٍ يجتمع فيها المرضى الذين لاسلوى لهم أو صحبة. كلهم يعانون من آلام مشابهة، تبدأ بالشلل الجزئي أو الكليّ، لتنتهي بحالات الجنون. كانت أشكال المرضى منفِّرة ولا عمر لهم، ويتفرسون بإصرار مزعج ومشوش، أي شخص يمر أمامهم، بنظراتهم الجامحة. بعضهم كان يطلق زمجرات، وآخرون يتحدثون بكلام لايفهمه غيرهم، وإيقاع جهنمي يقف له شعر الرأس منتصباً.

- هل ستتركني هنا؟ توسلت جان. لا تتركني مع هؤلاء المجانين!

- لابد من هذا، ياطفلتي. سترين. سيهتمون بك. ستتلقين علاجاً بالزئبق، وستحظين بحمامات بخارية. أنا نفسي لجأت إليها في العام الماضي. فتحسن حالي بعد أن مررت بعدة أزمات. وقد أكد لي الدكتور أن حالك سيتحسن بعد شهر، على الأكثر، بعدها ستعودين إلى منزلنا، حيث سأعتني بك.

ترك بودلير جان في هذا المشفى وقلبه مقبوض. نظرت إليه وهو يبتعد عنها، وهي جالسة فوق كرسي في القاعة العامة، بعينيها الواسعتين الغائرتين الناضحتين باليأس والوحدة. أشاح شارل بنظراته عنها، واتجه

Twitter: @ketab_n

نحو باب الخروج يصحبه جان نيكولا ديماركيه، الجراح الشهير الذي يدير المشفى:

- هل تظن بأنها ستتعافى؟

- صعب أن نتوقع هذا، أجاب الجراح. إنها بداية شلل نصفي. لانستطيع أن نعرف كيف يمكن أن يتطور المرض.

- عدني بأن تبذل كل ما بوسعك، وأن تهتم بها على أفضل وجه.

- هذا أمر لا نقاش فيه. سنبذل كل جهدنا. ستستعيد بعض قواها، ومن الممكن أن نخفف آثار الشلل النصفي، لكننا لا نضمن هذا. عليك أنت أيضاً أن تتهيأ لتطور معاكس لهذا المرض. إنها مرحلة حرجة، وقد يطال الشلل الأطراف السليمة.

كان بودلير بحاجة إلى الهدوء لاستكمال مابين يديه من عمل (إذ من المنتظر أن يتم نشر **الفراديس المصطنعة** قريباً، وكذلك الطبعة الجديدة من **أزهار الشر**، هذا دون الحديث عن مشروع **قصائد ليلية**، الذي كان بصدد الإعداد له)، لذلك عاد إلى هونفلور. بعد ذلك بقليل، تسلم بودلير رسالة من مشفى ديبوا يطالبه فيها بتسديد نفقات علاج جان، البالغة مائة وخمسين فرنكاً. وبمناورة بارعة، توصل إلى دفع أمه إلى تسديد هذا المبلغ الذي لم تكن تعرف وجهته. لكن بودلير كان مناوراً متواضعاً، فشكّت كارولين في أن للقرض الذي أخذه ابنها، علاقة بالعناية بعشيقته. فرفضت أن تدفع أي مبلغ كان، لكن بعد فوات الأوان. وحينما علمت من نارسيس آنسيل، بأن نفقات العلاج قد دفعت مرتين (بسبب مشكلة بريدية: إذ أن الحوالة الأولى وصلت بعد الثانية التي سددها بوليه مالاسيه بيده إلى المشفى)، بموافقتها، لكن دون أن تعرف. عندها لم تعد قادرة على كبح جماح غضبها.

صباح اليوم التالي، وبينما كان بودلير ينزل درجات السلم الخشبي

Twitter: @ketab_n

الصغير، لاحظ أن أمه منشغلة بأمر تافه في غرفة الطعام، فأدرك في الحال، أنها تخبيء أمراً ما. كان شارل متدثراً بمبذله robe de chambre ولم يكن بعد قد أنهى زينته الصباحية. فكر بالعودة إلى النوم في غرفته، أو بالهروب من الباب الخلفي، لكن الفضول دفعه لمعرفة ما تأخذه عليه أمه هذه المرة. كان وجه كارولين متغضناً، وشفتاها مزمومتين. كانت تنتظره منذ عدة ساعات، بعد أن عزّ عليها النوم طيلة الليل. مر شارل خلفها، وطبع قبلة غير موفقة فوق شعرها الذي خطه الشيب، وجلس إلى طاولة غرفة الطعام مترقباً، عارفاً أنه من الأفضل تجنب أي سؤال في مثل هذه الحالة، سواء حول صحتها أو حول ما يشغل بالها. لكنه توقع أن تكون جان هي سبب غضبها. وبعد لحظة، قال:

إذا لم تكن القهوة جاهزة، يمكنني أن أحضرها.

كانت كارولين تدير له ظهرها بتصنع، وهي تنظف شيئاً لا يعرفه إلا الله. ثم استدارت نحوه بحيوية مدهشة، جعلته يقفز فوق كرسيه. عيناها المحاطتان بالأسود، كانتا جاحظتين، وخصلات شعرها منفوشة، وقد هربت من الربطة (شينيون) التي يبدو أنها سوتها على عجل، كانت تشبه سكيراً أمضى ليلته وهو يصيح تحت النوافذ كلما شرب قدحاً. دم جسمها كله يبدو أنه تجمع عند مستوى وجنتيها، ثم انفجرت السيدة أوبيك بضراوة الإعصار:

- إنك تسرقني! وأيضاً من أجل هذه البائسة الشريرة! هذه الزنجية التي (ألا ترى هذا؟) جعلتك تدفع مرتين، لكي تسرق ما تبقى لدينا من النقود القليلة، والتي لم تأخذها بعد! لا أريد أن أسمع عنها أي شيء بعد الآن، أو أنك لست إبني!

- بالنسبة لهذه النقود، لاذنب لها في ذلك. أجاب بودلير بنبرة غير واثقة. لقد حدث هذا بسبب بطء خدمات البريد.

Twitter: @ketab_n

بعد أن عرض تلك التفسيرات، نهض وقد انتابه الغضب أيضاً:

- جان لم تسرق مني قرشاً واحداً. فلا تشتميها! إنها شديدة المرض! أليس عندك القليل من الشفقة على هذا الجمال القديم الذي أصبح عاجزاً؟

- شفقة؟ على هذه العاهرة التي سرقت مني المال والعيال، فأهانتنا، أنت وأنا وزوج أمك المرحوم، هذا دون الحديث عن نارسيس! لا، ليس عندي أي شفقة عليها. وهي نالت جزاءها!

هنا، خرج شارل عن طوره. وفي لحظة غضب، لم يعد قادراً على التعبير، هرع نحوها متوعداً. وكان على وشك أن يرفع يده في وجهها، لكن حركته توقفت فجأة. شفتاه كانتا تختلجان، وركبتاه تترنحان، ثم سقط على الأرض بعد أن أصيب بألم مفاجئ. في الأيام التالية أصيب بألم عصبي، ثم لا زمته آلام معدية، وبقي في فراشه ممدداً، وكان كلما مرت بغرفته يعتذر منها لمجرد تفكيره بصفعها. هدأت السيدة أوبيك، وراحت تقدم له وجباته بنفسها. ، بعد أن انتابها قلق شديد على صحته. بعد بضعة أيام، استسلمت مرة أخرى، ودفعت نفقات علاج جان دون أن تطلب حتى استرجاعها.

لم تكن الحياة في مشفى ديبوا مفرحة. فالعلاج الذي كانت تخضع له جان يبعث فيها الألم دون أن يريحها، على الرغم من تحسّن صحتها، بشكل واضح خلال الأسابيع الثلاث الأخيرة. لكن الشلل استمر. أصبحت تمشي على ساقها اليسرى بعرج، على الرغم من صلابتها التي تشبه صلابة العصا. كان هاجسها شراب الروم الذي كان المشفى يرفض تقديمه لها. كانت تنتقد الأطباء والممرضات، وتنعتهن بكل الأوصاف، أو تغوي الأطباء بحركاتها. ذات صباح وقد عيل صبرها، وبينما كانت تقوم بتمارينها اليومية في السير، اكتشفت أن الباب الرئيسي كان نصف مفتوح ولا حراسة

Twitter: @ketab_n

عليه. انتهزت الفرصة، وانسلت خارجاً تحت شمس الربيع، وعادت إلى نويي بخطى وئيدة، استغرقت يومها كاملاً، لأن قدمها الأخرى لم تكن تعينها على المشي. كان الليل قد حل، حينما وضعت المفتاح في قفل الباب، وقد بلغ منها الإنهاك مبلغه، وجسمها، أقله ذلك الجزء منه الذي بقيت مواطن الحس فيه مستيقظة، فيه جرح بالغ وأليم. حاجتها إلى الكحول، التي استبدت بها، أفقدتها كل ذرة من عقلها. فعثرت في الشقة، بعد أن أفرغت الخزائن، على نصف زجاجة من ماء الحياة. يمكن أن تساعدها على الاحتمال حتى اليوم التالي. بعد بضع جرعات ابتلعتها كالغولة، تمددت فوق الكنبة، بحثاً عن النوم قبل أن يهجم عليها العطش إلى الكحول مرة ثانية. لو لم تنم بعد ما تناولته من بقايا الزجاجة التي عثرت عليها، لجن جنونها، لأن الخوف من نقص الكحول، لاسيما وأنها الآن قادرة على الإفراط في شربه، كان هاجسها الوحيد. كانت رأسها تدور، فساعدها الكحول على النوم، وهي في معمعة حزن كبير، سببه الهلع مما آلت إليه.

حينما عاد بودلير، بعد هروب عشيقته من المشفى، علم بما جرى، فرفض موافاتها في نويّي، واستأجر غرفة في فندق دييب Dieppe الواقع في شارع أمستردام. لم تعد المسألة مسألة انفصال، بل فكر في تلقينها درساً بعد كل ما قدم لها من تضحيات، إضافة إلى القلق الذي كان يساوره على صحتها، والمشاحنات الرهيبة بينه وبين أمه في هونفلور بسببها. لم يكن إيجار غرفة أمستردام مرتفعاً، لذلك استأجرها لتشكل له موطئ قدم إضافي في حال تدهورت علاقتهما، كما هو الحال دائماً، إضافة إلى مسكن نويي. في شهر تشرين الثاني، ، تدهورت صحة جان، وعاد إليها الشلل أقوى مما كان عليه سابقاً. فاضطر بودلير، مؤقتاً، إلى أن يغادر فندق دييب، للعناية بها في نويي. قدّم لها كلّ ما يملك، وحرم نفسه من كل شيء ليؤمن لها الأدوية، واستمر في إحاطتها بالعناية، وفاض عليها بالحنان.

Twitter: @ketab_n

قلقت الأم لانقطاع أخباره عنها، وجهلها بمكان إقامته، فكتب إليها يُعلمها بأنه يقيم، من الآن فصاعداً مع جان، بعد أن أصبح لها «وصياً ومحسناً». كانت السيدة أوبيك قد توقفت عن توبيخه. وشارل الذي لم يخبرها أبداً باسم المرض الذي تعاني منه جان، وجد أمه على أتم الاستعداد لكي تفهم منه بأنه كان السبب وراء الألم الذي تعاني منه، فكتب رسالة إليها يقول:

«إزاء مثل هذا الخراب، أحس، وعيناي دامعتان- ولكي أكون صريحاً معك -، وتأنيب الضمير يعتمل في نفسي. فقد استوليت مرتين على حليها وأثاثها، وحملتها الديون والرهن، وضربتها، وكنت لها نموذجاً، لا يحتذى، في الخلاعة والحياة التائهة. ألا يجعلني هذا كله أن أحس بتأنيب الضمير؟ أولست مذنباً؟»

أنهى رسالته بما يشبه الوصيّة، لكي تفهم السيدة أوبيك، أن جان لن تخرج من حياته من الآن فصاعداً، طالباً منها أن تعده، إذا ماسبقه الموت قبل جان، بأن تضع ما بقي له من مال في تصرفها لتقيها شر الحاجة.. قبلت السيدة أوبيك رغماً عنها، لتجنب الفضائح والمشاحنات، التي كان كل منهما يتجنب حدوثها. لكنه كان مديناً لكارولين، التي بدأت نقودها تنفذ، بمبلغ ضخم من المال. اضطر شارل إلى ترك عشيقته بين يدي الخادمة، وذهب إلى هونفلور بعد أن تمكن من اقتراض المبلغ الذي يدين لها به. لكن ما أن وصل إلى حيث بيت أمه، حتى انتابه القلق على جان التي لم يخبرها بسفره. وكان يقصد ذلك لكي تعتاد على غيابه المتكرر (ليس بهدف الهروب منها، بل لأنه كان يرسل إليها ما لديه من نقود، ولا يحتفظ لنفسه بأي شيء لسد حاجاته الخاصة) كتب لها من هونفلور:

«بُنيّتي العزيزة، عليك ألا تغضبي مني إذا ما غادرت باريس فجأة، بدون أن آتي إليك وأواسيك قليلاً. أنت تعرفين كم أنهكني القلق، إضافة

Twitter: @ketab_n

إلى أمي، التي تعرف بأنه علي أن أسدد لها 2000 فرنك، هي جزء من الدفعة التي ينبغي علي تسديدها لها والبالغة 5000 فرنكاً في هونفلور وهو أمر يعذبني كثيراً. وبما أنني سأغيب عنك مدة أسبوع، ولا أريدك أن تبقي بلا نقود، وأنت في حالتك هذه، اتصلي بالسيد آنسيل. أعرف بأني استبقت تاريخ الدفعة السنوية القادمة، لكنك تعرفين بأنه، على الرغم من تردده، فهو كريم. هذا المبلغ الصغير سيكفيك حتى عودتي، وسأتسلم نقوداً عند اقتراب نهاية العام. ضعي هذه البطاقة في مغلف جديد، وبما انك لا تستطيعين الكتابة بيدك اليسرى، اطلبي من خادمتك بأن تكتب لك العنوان. سأعود إذاً، وإذا تمكنت من الحصول على المال، كما أتوقع، سأسعى إلى تسليتك. لاتضيعي أشعاري مقالاتي.». في نهاية السنة عاد إلى باريس.

انتهى بودلير من إضافة عدة قصائد إلى ديوانه **أزهار الشر**، بحيث أصبح جاهزا لإصدار طبعته الثانية، كما أنهى تصحيح مسودة كتاب **الفراديس المصطنعة**. هذه المرة حفظ الدرس! على الرغم من أن القصائد جاءت على شكل دراسة مفصلة لتأثير المخدرات على الصحة، فقد حرص جيداً على تغليف الكتاب باحتياطات أخلاقية، لردع القراء عن الخطأ في تفسيره، محذراً إياهم من أن اللجوء إلى المخدرات يؤثر على المزاج والصحة. كلامه لم يكن بالضرورة مقنعاً، لكنه قد يسمح بتجنب إثارة الأخلاق العامة ضده. أهدى هذا الكتاب إلى جان ووجهه إلى تلك المرأة «**التي، على الرغم من مرضها**»، **كانت دائماً «ناشطة وحية»** فيه. حتى لا يُفهم الإهداء إلا من قبل صاحبته، فقد وجهه إلى «J. G. F»، وهي ثلاثة حروف تعني، باللغة العامية المتعارف عليها بينهما «**جان، القطة العظيمة**». Jeanne, Grande Féline وبما أنها كانت تكره القطط، فقد أطلق عليها أيضاً اسم «الشبح» في القصائد الأخيرة التي خصها بها)، وحرف F يمكن أن يعنيها أيضاً. لكن

Twitter: @ketab_n

جان لم تفرح لهذا كله، فردت بالقول: «إذا كان لا بد من ذلك» فهي تفضل أن تكون قطة.

في منتصف شهر كانون الثاني، وبينما كان بودلير في باريس يغادر مقر إحدى الصحف التي أودعها مقالة حول موسيقا فاغنر التي كان يهيم بها، غامت نظراته فجأة، وبدأت ساقاه بالارتعاش. اختلطت عنده الروائح والألوان في دوران جهنمي. واستولى على جمجمته صفير حاد كان يهتز في أعماقها، فظن «أنها النهاية!». فقد توازنه، فاستند إلى أحد المصابيح الكهربائية حتى لا يقع أرضاً. لكن المصباح خانه فسقط فوق الرصيف. وحينما عاد إليه وعيه، وجد شارل نفسه في شقة لايعرفها، في أحد الطوابق الأرضية التي تطل نوافذها على الشارع. كانت من تلك الشقق ذات الزينة التي عفا عليها الزمن، فقال بودلير في نفسه «**إذا كانت هذه هي الجنة، فلايعقل أن يكون الله دانديا!**» كانت هناك امرأة عجوز، تحمل خرقة مبللة تضعها فوق جبينه، قدمت نفسها إليه، فسأل:

- أين أنا؟

- إنك في مواجهة المكان الذي سقطت فيه، وأنا أنظر إليك من وراء نافذتي. عليك، أيها الشاب، أن تستشير طبيباً.

- سأفكر بذلك، أجاب بودلير بعد أن أبعد الخرقة المبللة عن جبهته.

شكر السيدة وخرج. لكن رأسه ما زالت تدور. رأى بودلير أن هذا «الاحتقان الدماغي» كان بمثابة إنذار. فقد كان المرض لايغيب عن باله لحظة، على الرغم مما يبذله من جهد لكي ينساه، وكانت لديه قناعة راسخة بأن جان ستموت قبله. لكنه الآن بدا أقل يقيناً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١٩

- يالها من تجربة! وياله من إحساس! صاح نادار بنشوة. ليس أني التقطت هذه الصورة فحسب، وهي الأولى من نوعها منذ زمن طويل – هل تدرك هذا ياشارل؟ -، لكني اكتشفت فضلا عن هذا، عالم البالونات (المناطيد) الساحر والمحطات الجوية. عندي الان مشروع لتأسيس شركة صغيرة من الشغوفين الذين سيمولون بناء أكبر بالون (منطاد) عرفه الإنسان. سيكون ارتفاعه أربعة أمتار، ويمكنه حمل من خمسة عشر إلى عشرين مسافراً. إن مثل هذا الاختراع من شأنه تثوير تاريخ المواصلات! يمكننا على المدى البعيد، أن نحسنها ونجعلها أكثر سرعة من الخطوط الحديدية.

- أنا لا أشاركك حماستك بالنسبة لتقنية وجدّة هذا النوع من.. قال بودلير، وهو يمضغ قطعة من الخس. أعترف لكَ بأن الطيران بالبالون لايهمني كثيراً...

حينما قدم شارل لتناول الغداء مع نادار، في شقته الجديدة في شارع الكابوسين، دهش لرؤية اللوحة الإعلانية المضاءة بالغاز، التي صممها أنطوان لوميير، و تم تثبيتها على واجهة المبنى الرئيسية، كما دهش للبحبوحة المادية التي يتمتع بها المصور حالياً. كان بودلير يحسد نادار نظرته المشوبة بالخبث والذكاء التي يلقيها على الآخرين، وحياته البسيطة في كل شيء، كما في السعادة، كما كان يحسده على زوجته وابنه الذي يحبه

Twitter: @ketab_n

ببساطة طبيعية. لكنه لم يكن يغار منه. فهو لم يكن يقيس على مقياسه إلا تعاسته الخاصة فيه.. كنا في شهر كانون الثاني من عام 1861، وكان الشاعر شاحباً شحوب مومياء، وهو يخرج من فترة صعبة، تخللتها محاولات انتحار، ومشاكل صحية سببها مرضه. سقطت آخر شعرة من رأسه، ، وأصاب النحول وجهه، فبدا كوجه طيرمن آكلات اللحوم. عادت آرنيستاين إلى الصالة، وهي تحمل بنفسها طبق العدس، وسكبت لبودلير قبل الصغير بول وزوجها. كانت زوجة نادار تتعامل بلطف مع بودلير، لكنها كانت تخشاه وتخاف من تقلبات مزاجه. لكنها كانت زوجة ناعمة ولطيفة تقلقها حالته المتهالكة، لاسيما وأنها لم تره منذ عدة سنوات.

- «ماذا عن هذا الفصيح شامفلوري» سأل نادار. أما زلت تراه؟

- نعم. أجاب بودلير، لكن أقل من السابق. علاقتنا تراخت، وحدث بيننا بعض سوء التفاهم. لكنه مع هذا، يبقى صديقاً وفياً، ويصادف أحياناً أن نكتب في الصحف نفسها.

- ومتى سنتبارز؟ أخبره بأنني مازلت أنتظره!

انفجر نادار ضاحكاً بقوة تتناسب مع قامته العملاقة.

- ما لا أفهمه، أضاف المصور، هو سبب ارتباطكما بالاشتراكية والثورة، مع أنكما تتخاطبان بشكل رسمي. هذه هي سوء نية هؤلاء البورجوازيون الذين يريدون الاتحاد بالشعب، مع محافظتهم على ما يخصهم، باعتبارهم مثقفين مزعومين، باردين في المجتمع وشبعانين من السعادة.

- صحيح أننا ما زلنا نتخاطب بشكل رسمي... الحقيقة أني لم أفكر بهذا أبداً. لكنك مخطيء بشأن شامفلوري. إنه ولد لطيف وشديد الحساسية.

- إنه إمرأة! حسم نادار النقاش.

Twitter: @ketab_n

- قدمت إيرنستاين طبقاً كبيراً من الفخار، المزين بقطع صغيرة من الكعك المحشو الذي حضرته بنفسها. وضعته في منتصف الطاولة أمام ناظري بول المندهشتين، والذي لم يكن قد بلغ الخامسة من عمره بعد. أراد الطفل أن يتناول قطعة من الكعك، لكن ذراعه كانت قصيرة لم تمكنه من الوصول إليها. تناول بودلير القطعة التي كان يتطلع إليها بول وأمسك بها على مسافة منه قائلاً له:

- قل «أنا أريد هذه القطعة لأني شره.»

بسط بودلير ذراعه قليلاً، فأراد بول الإمساك بها، لكنها ما زالت بعيدة عن متناول يده

- الآن ستقول: «أريد قطعة الحلوى هذه لأني شرهٌ بائس»:

أخذ نادار قطعة الحلوى من بين يدي بودلير، وأعطاها لإبنه، والأم تنظر بقسوة وغضب.

- لا تفعل هذا في بيتنا، يابودلير! أيها الخبيث الوضيع!

- لماذا؟ كان بإمكاننا أن نحصل على المزيد منها!

بعد الوجبة، صعد الاثنان إلى المَرسَم للتدخين.

- ما هي أخبار جان؟ سأل نادار. كيف حالها؟

- لا تحدثني عنها! لم أعد أعرف ماذا أفعل!

- بسبب صحتها؟

- ليت الأمر يتوقف على هذا! تصور أن أخاً لها برز، لا أدري من أين، عاد..

في شهر تشرين الأول من السنة المنصرمة، عاد شارل إلى باريس بعد غياب طويل، ختمه بالإقامة في هونفلور، وذهب إلى نويي، وقرع باب

Twitter: @ketab_n

شقته التي تسكن جان فيها. فتح له الباب رجل، رمقه بنظرة تحدٍ وغطرسة، دون أن ينبس ببنت شفة. كانت سحنته أكثر قتامة من سحنة جان، تحمل ذكريات أفريقيا وخراب العبودية. شيء ما في أعماق نظرته (التي كانت قاسية، تنم عن الاحتقار)، يقول أن الإنسانية كلها لم تكن سوى حثالة ونفاق. لكن هذه النظرة كانت تتراوح بغرابة، بين وقاحة الحركة وبين البطء الذي كانت تظهر المشاعر من خلاله على وجهه.. ملابسه، لا تخلو من أناقة، على الرغم من قلة الاهتمام، التي تدل على أنه عامل.

- من أنت؟ سأل الرجل بلهجة الجزر التي تذكّره بزأزأة سكان ضواحيها.

- أنا الزوج، أجاب بودلير. وأنت، من أنت؟

- اسمي جان ليوبولد. أنا شقيق جان.

- دخل بودلير بعدها إلى الشقة، وقد ارتسمت على وجهه سمات واثقة تليق بصاحب المنزل.

- هذا أنت شارل؟ سألت جان من الغرفة التي كانت ممدة فيها.

- نعم هذا أنا يا طفلتي.. لقد التقيت شقيقك..

- دخل شارل إلى الغرفة وطبع قبلة فوق جبينها، ثم عاد إلى الصالون، ونظرة جان ليوبولد الوادعة وغير المفهومة ترمقه. لم يكن بودلير يعرف بعد بماذا يفكر. لايدري إن كان عليه أن يفرح لعودة هذا الأخ الذي لم تحدثه جان عنه ابداً. جلس الرجلان قبالة بعضهما بعض إلى طاولة الصالون.

- منذ متى تسكن باريس؟ سأل شارل.

- منذ أكثر من عام تقريباً، بحثت خلاله عن أختي، لكن لم يكن أمر العثور عليها سهلاً، لأنها كانت تغير اسمها باستمرار.

Twitter: @ketab_n

أجابه بودلير شارحاً:

- لجان ميزة أن لها ثلاثة أسماء، وهي صفة لايستهان بها، لأنها بهذا تضيع دائنيها.

لم يعلق الأخ بأي شيء وبدا وكأنه يغالب النعاس.

- وماذا تعمل لكي تعيش ياسيد...؟

- اسم عائلتي، دورزانفيل، ذلك أني وجان لسنا شقيقين من أب واحد... أعمل في مسبكة للحديد، غير بعيدة عن شارع روشيشوار. سعدت كثيراً بالعثور على أختي، فقررت ألا أفارقها أبداً، لاسيما وأني لا أملك شيئا خاصا بي، لكن بما أنها مريضة، وبما أن عملي يدر علي المال، أريد مساعدتها وتخفيف العبء عنك في شراء الأدوية اللازمة لها.

- بطبيعة الحال رأيت أن الفكرة رائعة، قال بودلير لنادار. فأنت تعرف أن عائداتي المالية غير مستقرة إطلاقاً. وبالفعل فقد قدم لها، خلال الأشهر الأولى بعد هذا اللقاء، بضعة فرنكات، لكن، ذات يوم، أي منذ أسبوعين، أقام عندنا، في الشقة، وعلمت أنه توقف عن العمل، هذا إذا كان أساساً لديه عمل. و بقي على هذه الحال، عطّالاً بطّالاً، ويقضي النهار كله مع أخته في الغرفة، فتحولت إلى غريب في بيتي، ولم يعد يحقّ لي أن أتحدث مع امرأة عجوز مقعدة. كيف تفهم مثل هذه الحالة؟

- كيف لي أن أعرف؟ أجاب نادار وهو ينفث دخان سيجاره. الحقيقة أني لا أعرف جان بشكل جيد، وهذا منذ فترة طويلة..

- في تلك الفترة كانت تحبك. ألا تعرف هذا؟

- في تلك الفترة كنت غير وفي.

- وأنا، كنت أغار منك.. أما الآن، فلم تعد سوى ظل تلك المرأة التي كانتها ذات يوم. لقد أثر المرض حتى على عقلها. أو ربما حصل هذا بسبب الأدوية أو الكحول...

Twitter: @ketab_n

– آه! جان... قال نادار بحسرة. هل تذكر فندق بيمودان؟ حينما أعدت قراءة النسخ التجريبية التي أرسلتها إلي، وقعت على هذه القصيدة التي كتبتها لها. نسيتها تماماً... ماذا جاء فيها؟

«أعبدك كما أعبد القبة الليلية، ياوعاء الحزن، أيتها الصامتة العظيمة..»

– نعم... قال بودلير بشكل آلي وقد غمره الانفعال.

بعدها رفع رأسه مضيفاً:

– هل تعرف إلام يأخذني الحنين بشكل خاص، في هذه الأيام؟ إلى تلك الشهور التي كنا فيها ثوريين.. إلى هذا الشغف بالفعل وتلك الفوضى العارمة... كنا نبني الطوباويات كما نبني قصوراً وهمية... هل تتذكر بدايات تكوّني السياسي، والغضب الذي انتابني حين وقوع الانقلاب؟ يوم صرخت: بونابرت آخر!. يا للعار! ثم بعدها، فوق المتاريس... كم عيار ناري أطلق نحوي!

– عفواً، بودلير. لكني لست ميالاً للحنين. ينبغي أن نستمر في الحياة، يا صديقي. ما يزال أمامك الكثير من الأشياء التي عليك أن تبدأ العمل فيها وتنجزها.

غادر بودلير نادار حوالي الساعة 15، وسار في شوارع باريس، لايكف عن التفكير بديونه (التي بلغت ألفاً وست مائة فرنك في بداية تلك السنة)، ولاوسيلة لديه لتسديدها مباشرة. لاسيما وأنه كان السبب وراء العجز في حسابات المكتبة والذي بلغ حوالي خمسة آلاف فرنك مما وضع الناشر على حافة الإفلاس. كان على بودلير أن يرى كريبيه بخصوص مختاراته، وكذلك هوساي في مكاتب صحيفة لارتيست. لكنه أقلع عن زيارة الاثنين. فحياته اليومية غمٌ قاتل، وجرح أليم، وبئر لا قرار له، وأمل ضائع. حينما كان المرض يعوده، تراه متفاجئاً بنفسه، وهو يتلو الصلوات، فيظن أنه على

Twitter: @ketab_n

حافة الجنون. فيؤجل القيام بواجباته، التي خطط لها خلال يومه، إلى وقت آخر.

كان يهيم في الشوارع على غير هدى، متجهاً نحو التخوم الشمالية للعاصمة، التي عاد إليها الضباب والطين، وفوضى أعياد نهاية السنة، و عهر الحليّ والطيبات وهي تباع عند زوايا الشوارع، والمصابيح والزينات اللامعة. كان بودلير يرى في هذا كله، آثار معركة مدينية، حيث جثث المتنافسين في كل مكان. صنوبريات عيد الميلاد المنزوعة عنها إبرها، تعيق الحركة فوق الأرصفة، والنفايات المتناثرة تنتظر من يلمها ليتاجر بها، وشهود آخرون بلا حراك على المذبحة، يغطون الشوارع. كانت العربات تمر دون أن تتمكن فعلاً من اختراق طبقة الصمت الذي كان يغلف هذا كله بجو غير واقعي.

كان الموت يهيء سريره في قلب الشاعر Urbi et Orbi (لنا وللعالم)، الذي لم يعد يرى سواه حيثما وقع بصره. الموت يسكنه، زارعاً في داخله جذورا تختلط بمكونات الجسد والروح. جذور يصعب تفكيك سيقانها المتعرشة، وهي تتشبث بالحياة التي ما فتئت تبعث فيه القليل مما تبقى لديه من طاقة. اختلفت مزاجاته الانتحاريه عما كانت عليه، يوم كان دانديا شاباً يتحدى الحياة. لم يعد يؤمن بالخلاص ولا بوعود العلم. ولم يعد الانتحار غاية جموحات كبريائه، بل تحول إلى وسيلة تسمح له بالهروب من الآلام والانهيارات. غير أن بودلير، لم يحقق أي تقدم على صعيد الشجاعة، فظل جباناً لعجزإرادته عن وضع حد لوجوده المشؤوم. لكن كان هناك الأمل، الذي صَعُبَ عليه التخلص منه. فقد حبا الخالق النفسَ البشرية أحسن صورها، لدرجة يبدو معها أن كل شيء ضائع إلى الأبد، وشعلة الأمل الصغيرة المضيئة من أعماق الأغوار، التي تحاول ابتلاعه بلا كلل أو ملل، تأتي لتضيء الهوة وتقول: «لا تنس أني هنا.» فتلهيه عن أفكاره

Twitter: @ketab_n

السوداء، ولحن كمان آتٍ من بعيد يستأثر باهتمامه. كانت أنغام الموسيقي تتماوج منذ فترة، لكنها لم تكن تتبدى له إلا بمقدار ما كان يقترب منها. كانت موسيقا تثير الشجن، فأراد شارل أن يعرف عازفها. فتبع مصدر الموسيقى بأذنيه، إلى أن حطت به قدماه في ساحة صغيرة، عند زاوية أحد الشوارع، فرأى ثلاثة موسيقيين يعزفون صراخاً وبكاءً وحباً.

كانوا بوهيميين، عظماء، مزهوّين بأنفسهم. وجوههم تناوش السواد، وألوان ملابسهم البالية، لم تشوه تناسق اللوحة التي كان يشكلها ثلاثتهم. عيونهم الواسعة القاتمة، لم تكن تر شيئاً، اللهم إلا ذلك السحر الجوّاني الصادر عن آلاتهم. أنغامهم كانت تبعث الحزن والفرح في آنٍ معاً، بطريقة لا مثيل لها. أول العازفين، وهو أكبرهم، بدا وكأن الموت يعانقه كلما حفّزت أوتار كمانه بعلامة موسيقية. يغمض عيناه كلما داعب القوس آلته غدواً ورواحاً. أما العازف الثاني، فكان يهز ما يشبه درّة الأطفال فوق أوتار مشدودة فوق بيانو صغير يتوشحه بحمالتين، وكان يبتسم كلما خبط الأرض بقدمه. أما ثالثهم، فتراه يخفض بصره تارة، وطوراً يتيه في الغيوم، وهو يطرق الصنجين النحاسيين بعنف رهيب، وبطريقة غيرمألوفة. كان شارل ينظر إليهما بإعجاب. إنهم غاية في الجمال، وموسيقاهم شديدة الغرابة تمزق القلب، فلم يستطع كبح انهمار الدمع من عينيه، غير قادر على فهم السبب. بعد فترة، نزع أحد العازفين طاقيته، وراح يجمع القروش التي قد يتبرع بها أفراد الجمع المحتشد حولهم. بعدها، رتب الموسيقيون آلاتهم في حقائب كبيرة، أشكالها غريبة، وحملوها فوق ظهورهم، قبل أن يحيوا مبتسمين أولئك الفضوليين الذين راحوا يتفرقون من حولهم.

بقي بودلير وحيداً في الساحة الصغيرة، يشيّعهم بنظراته وهم يبتعدون، بمشيتهم الغريبة الجذابة. تصورهم يجوبون العالم، لاتفارقهم ابتساماتهم أبداً، وهذه الموسيقى التي كانت تمنحهم الحياة أكثر مما

Twitter: @ketab_n

تمنحهم إياها الدماء. حلم بذلك المصَر الغامضَ الذي يخلّفوه وراءهم، بغاباته القاتمة، وجباله العذراء، التي لن يعودوا لرؤيتها أبداً، لأن الزمن لم يبقِ لهم إلى تلك العودة سبيلا. لكنهم أحبوها واحتفظوا بها في أعماق قلوبهم. تمنى لو استمع إلى ما حملوه من قصصٍ تلك البلدان التي مروا بها، ويشاركهم ضحكهم في أحضان الطبيعة، عند زاوية تشتعل فيها نار جميلة، تنير عتمة الليل قبل الخلود إلى النوم. مرّ زمن طويل، بعد أن تواروا عن الأنظار. أما شارل فقد بقي، بلا حراك، في الساحة، متخيلاً أنه يشارك أولئك البوهيميين أسفارهم. وبينما كان ينسل، شيئاً فشيئاً خلل الضباب الملون المعطر حيث قاده خياله، انتبه إلى أنه كان قريباً من مَرسَم صديقه إدوار مانيه E. Manet. استوى مزاجه بعد أن أدخل الموسيقيون الفرحَ إلى قلبه، فقرر زيارة الرسام. أطل مانيه الجميل، بوجهه المربع، المزين بلحية شقراء كثيفة، من خلال باب مَرسَمه، قبل أن يفتح الباب لزائره مبتسماً. هذا الزائر الذي ربطت بينهما، قبل عامين، صداقة عميقة مع أنه كان أكبر منه بخمسة عشر عاماً.

ادوار مانيه

Twitter: @ketab_n

- سأجهز قدحين من الأبسنت، قال الرسام، تاركاً بودلير لوحده وهو يتنقل أمام اللوحات وينظر إليها بإعجاب.

- لم أر هذا الرسم قبلاً، قال الشاعر، حينما عاد الرسام بالقدحين.

- الحقيقة أنه ليس رسماً، بل مشروع تخطيطي للوحة. وعليّ أن أعترف لك بأني استوحيت موضوعها من ديوانك (أزهار الشر). لكني لست مقتنعاً بعد من تكوينها.

لوحة أوليمبيا لمانيه

- ماذا ستسمي هذه اللوحة؟

- فكرت باسم «أوليمبيا»، والدة الاسكندر، أما طريقة رسمها، فمستوحاة من لوحة «فينوس»، للرسام الإيطالي تيتيان.

- هذه الـ«أوليمبيا» المستلقية عارية فوق السرير، أليست عشيقتك الجميلة؟

- إنها فعلاً فيكتورين. لقد نصحني أنطونان بروست وآخرون بأن أرسم امرأة عارية، فرسمتها. لكن بدلاً من وضع الأزهار هنا، تخيلت أن مكانها سيكون أفضل بين يدي خادمة تقف هناك، وهي تنظر إلى المرأة العارية المستلقية أمامها، لكي أُضيف نقطة شهوانية، من شأنها التذكير

Twitter: @ketab_n

بقصيدتك الموسومة «السحاقيات»، لكن دون أن تكون صادمة. ما رأيك لو لعبت جان دوفال هذا الدور؟ إذ من غير المناسب أن تكون الخادمة زنجية.

- جسم جان ليس أسوداً تماماً لتقوم بهذا الدور، هذا بالإضافة إلى أنها لم تعد قادرة على الوقوف. في المقابل، أعرف امرأة شابة، فائقة الجمال، وصلت مؤخراً من بلد أفريقي، وجلدها أكثر قتامة، وهي تفي تماماً بالغرض. لقد عاشرتها مرة أو مرتين. سنذهب للقائها معاً إذا شئت. اسمها لور وتسكن شارع فانتيميل، في الدائرة الثالثة. إذا أردت أن يكون استلهامك للوحتي كاملاً، عليك إضافة قطة سوداء هنا، على سبيل المثال، إلى يسار السرير...

- لمَ لا... أجاب مانيه، إذاً فأنت غير راغب في أن أرسم لوحة لجان؟

- بلى، لكن ليست هذه. جان ديفال تستحق أن تخصها بلوحة لوحدها. دون أن يكون هناك صراعاً بين العشيقتين!

- حسناً، ليكن! دعني أرسم هذه اللوحة.

- لكن هذا يبدو صعباً. فأنت تعرف أن صحتها ليست على مايرام... وهي بالكاد تستطيع أن تتنقل.

- إذا اصطحبتها إلى هنا(سأدفع أجرة العربة)، عليّ أن أرسم لوحة لها. إنها نموذج هام، وهو بالتأكيد حديث، على طريقتها ...

تابع بودلير تجواله في المَرسَم باهتمام، متوقفاً عند كل لوحة يراها للمرة الأولى، وتلك التي كانت تثير فيه المزيد من الإعجاب.

- قل لي، إدوار، الطفل الذي نراه في هذه اللوحة وهو يأكل الكرز، وفي تلك، حاملاً كمان المتشردين، وفي الثالثة عند قاعدة الصليب...

- هذا هو الطفل نفسه. قال الرسام. ألم تكن تعرف هذا؟

- لا. أما زلت تستخدمه كموديل؟

Twitter: @ketab_n

– مع الأسف، مستحيل. لكن دعني أسرد عليك قصته. لا سيما وأنك تتمتع بنظر ثاقب لا يجامل الطبيعة البشرية، أنا واثق من أنك ستجد درساً في هذه الحماقة الحقيقية، مع الأسف.

«هذا الطفل، الذي لا بد وأنه بلغ السابعة من عمره الآن، كنت أراه كل يوم يلعب في الشارع أو يتسول. أهله كانوا أناساً شديدي الفقر، لا يجدون ما يأكلونه إلا ببالغ الصعوبة. وباعتباري رساماً، لم أستطع إلا أن أهتم بسحنات البشر وبالوجوه، وقد استلهمت وجه هذا الطفل، الذي تتراوح تعابيره، بين أشد أنواع الوقار قتامة، وبين أكثر أنواع الفرح الضاحك. لذلك طلبت منه أن يجلس أمامي لرسم عدة لوحات، كما رأيت قبل قليل، وكنت أدفع له بضعة قروش لقاء أتعابه، فتعلقت به بعد هذه الجلسات الطويلة، لدرجة أني طلبت من والديه، أن يتخليا عنه لي لأخلصهما من هذا العبء، وأقدم لهذا الصغير الكساء والسكن النظيف والتعليم. بقي عندي فترة من الزمن، أكلفه بمهام متنوعة مثل العناية بالبيت، وتنظيف ريش الرسم، لكني سرعان ما لاحظت أنه كان ذا طبيعة كئيبة، وأكثر اضطراباً وعذاباً مما لا ينبغي توفره لدى طفل في عمره. لكن قلقي لم يتجاوز هذه الحدود.

«ذات يوم، اضطررت للغياب طيلة النهار. وحينما عدت في المساء، اكتشفت بهلع، أن الصغير قد شنق نفسه إلى عمود هذه الخزانة التي تراها هناك، بحبل وجده في المستودع!. خلصته بصعوبة، لأنه كان متصلباً. كان في عينيه جمود ما يزال يثير الرعب في نفسي. طلبت المساعدة من سكان البناء، لكن أحداً لم يستجب لطلبي، لاعتقادهم أن التدخل في شأن المشنوقين، يجلب الشؤم. نجحت بصعوبة في فك الحبل عن رقبته (وقد اخترق لحمه، فكانت آثاره مؤلمة وفظيعة)، بعدها قررت، أخيراً، إعلام الوالدين، مع ما في هذا من قلق يمكنك تصوره. لدى دخول الأم إلى المَرسَم،

Twitter: @ketab_n

ومشاهدة صغيرها ميتاً في هذه الوضعية الكريهة، لم تقل شيئاً، ولم يعبّروجههـا الغبي عن أي ألم. فكرت في نفسي أن الآلام الصامتة هي بالتأكيد أحد أنواع الآلام، وهي دلالة على الاعتداد بالكرامة التي غالباً مايتصف بها الفقراء. شعرت بأني مذنب، بطبيعة الحال... ثم، بعد أن نظرت إلى قدمي، وأنا عاجز عن العثور على الكلمات التي ينبغي قولها في مثل هذه الظروف، رأيت نظر المرأة، كما لو كان مهووساً بطرف الحبل الذي بقي مثبتاً على الخزانة، وطرفه الآخر ملقى على الأرض. ذهبت لفكه حتى أجنبها رؤية هذا الشيء، الذي كان سبباً في موت ابنها، فبادرتني بالقول: «أتوسل إليك ياسيدي! أعطني إياه!». فكرت بادىء الأمر، بأنها تريد الاحتفاظ بالحبل، كشاهد حزين على آخر اللحظات التي عاشها ابنها. لكني كنت مخطئاً في ظني قطعاً. إذ ما أن أعطيتها الحبل، وغادرت بيتي، حتى جاء مستأجرو المبنى، يقرعون باب بيتي للحصول على قطعة من الحبل الذي شنق به الطفل نفسه. هل تعرف لماذا؟ لأن حبل المشنوق، يجلب الحظ، وبالتالي يمكن بيعه بسعر الذهب! وفي اليوم التالي اكتشفت أن أم الصغير، لم تكن راغبة بالاحتفاظ بالحبل، بل قامت بتقطيعه إلى عدة قطع صغيرة، وباعته بسعر مرتفع إلى كل شخص من الجوار!»

كان بودلير مندهشاً لهذه الحكاية، التي تأمل فيها زمناً طويلاً. وبعد فترة صمت، قال:

- يقال أن حب الأم خاص بالإنسان، إلا أن قصتك تبرهن على أن هذا القول باطل، وعلى أننا لسنا أفضل من أحقر الحيوانات!

في صباح اليوم التالي، استيقظ شارل باكراً، والعرق يتصبب من جبهته. نهض بصعوبة، وهو يتمعن الفجر الشاحب وقبة الغيوم الرمادية، المنبعثة من المباني الكئيبة، وهي تختلط بألوان البيتون. بحر من الحديد والصفائح والأنقاض، التي كانت تضيع في الأفق بلا فرح. بعد وقت لابأس

Twitter: @ketab_n

به، تمكن من تمييز رذاذ المطر السيء الذي كان ينزل فوق هذا كله، فقال في نفسه: «ها هنا روح الكآبة spleen الحقيقية». ثم عاد إلى سريره ليرى جثة جان. هذا الجسد الناحل الطويل، يذكره بأسوأ أشعار الطبعة الجديدة من **أزهار الشر**. ساقها وذراعها اليمنيين، يتخذ كل منهما اتجاهاً مُرعباً، ، كما لو كانا قطعتين منفصلتين وصلتا بجسم غير راغب فيهما. بدا له فجأة أنها لم تكن تتنفس. اقترب منها وهزها ببطء. عندها فتحت جان عينيها.

- ما هذا؟ قالت وكأنها خارجة من حلم.

- لا شيء ياعزيزتي. ظننت فقط أنك ميتة. يمكنك العودة إلى النوم.

ابتسمت له ثم أطبقت جفنيها.

أنهى شارل زينته الصباحية، وارتدى ملابسه، ثم غادر الغرفة نحو الصالون. كان الأخ قد نهض من نومه وهو بصدد تناول قهوته بمفرده. لم يعد بودلير قادراً على تحمل رؤيته في شقته. وصار لابد من التخلص من هذا المتطفل بأقصى سرعة. استجمع شجاعته وعرض عليه حقائقه الأربع.

- اسمع، أعتقد أن هذه المسرحية قد طالت بما فيه الكفاية! وعلى عكس ما تعتقده، فأنا لست غنياً، بل فقير. فإذا كنت تحب أختك وتنوي الإقامة هنا، عليك أن تشارك في النفقات، لأني لا أسمح بأن أصرف عليك إلى الأبد.

شرب الرجل جرعة من القهوة دون أن ينظر إلى بودلير، ربما لأنه لم يسمعه.

- هل اتفقنا؟ ألح بودلير الذي كان ينتظر منه جواباً.

نهض الرجل بعد أن رمقه بنظرة فيها شيء من التحدي، لاسيما وأن له جسماً صلباً يتناسب مع عمره. أما شارل، لاسيما في حالته هذه، فلن يكون قادراً على مواجهته.

Twitter: @ketab_n

- لا . أجاب الأخ.

- ماذا تعني بقولك، لا؟ ألا تريد أن تدفع؟

- لن أدفع. يعني لن أدفع. لا الآن، ولا في المستقبل. فلا تعد إلى هذا الحديث مرة أخرى.

- هنا ظهرت جان عند باب الغرفة، مستندة إلى عكازتيها

- هذه مهزلة حقيقية! قال شارل وهو يستدير نحوها متوسلاً إليها . ساعديني، لأني لم أعد أحتمل! قولي لهذا الأخ بأن يخرج من هنا، أو أن يشارك في النفقات اليومية. أنت تعرفين بأني أنهار تحت ثقل الديون.. هذه الحالة لم تعد تطاق!

كانت نظرات جان تبدو تائهة، بعد أن أصبحت شبه عمياء، بسبب الأدوية والكحول والمورفين، وبدت وكأنها لا تفهم شيئاً مما يجري.

- عليك أن ترحل ياجان.. شارل يطلب منك ذلك. قالت بلا اقتناع.

فأجاب الرجل بوقاحة:

- وأنا لن أرحل. فماذا بوسعه أن يفعل؟

انفجر بودلير عندئذٍ قائلاً:

- سأجبرك على الدفع أيها اللزج

- لن أدفع، إلا إذا فوضتني بثروتك الشخصية. أقول لك هذا من أجل مصلحتي، ومن أجل مصلحة جان أيضاً .

تناول بودلير سترته واتجه نحو الباب:

- بما أن الأمر كذلك سأترككما معاً! فلم يعد لي عمل هنا .

ثم توجه إلى جان، التي بقيت بلا حراك، بعينيها المحملقتين الغبيتين، قائلاً:

- لقد قرر أخوك أن يهتم بشؤونك. بارك الله لك فيه! من الآن فصاعداً، لم أعد جزءاً من اللعبة! ولا تعتمدي علي لدفع نفقاتك!

Twitter: @ketab_n

فتح الباب ورحل بعد أن أغلقه بعنف. ما حدث أشبه بمسرحية هزلية فاشلة، لا تبعث فصولها على الضحك.

عاد بودلير إلى غرفته التي سبق وأن استأجرها في الفندق الواقع في شارع أمستردام. انكبَّ على الكتابة، لكن دون أن ينتج شيئاً يُذكَر. الإقياء يعاوده صباحاً ومساءً، حارماً إياه من النوم. وحينما ألح النوم عليه، في نهاية المطاف، بعد عدة ليال بيضاء قضاها بانتظاره، متمدداً في سريره وعيناه مفتوحتان، كان نومه عبارة عن كوابيس وتعرق. حينما كان ينهض في الصباح، غالبا ما كان فاقداً لتوازنه، بل ينهار أحياناً على الأرض، نصف واع، فيبقى في حالة من السبات. بعد ذلك، هجم عليه السيفليس ليضاف إلى حالته البائسة، فلا يستطيع معه مغادرة الغرفة. في هذه الفترة تقريباً، وقبل أسبوع من بلوغ بودلير سن الأربعين، وبعد انقطاع أخبار جان عنه مدة شهرين، قُرع بابه بخجل. فتح الباب، فرآها واقفة على العتبة مستندة إلى عكازتيها:

- ماذا تفعلين هنا؟ سأل بودلير.

- خرجت من الملجأ، أجابت جان.

- هل تريدين الدخول؟

فتح شارل الباب بكامله، ليفسح لها في المجال كي تتمكن من دخول الغرفة.

- هل عاودتك الأزمة؟

- لا. أرسلني جان إلى الملجأ ليتخلص مني. كانت أفكاري مشوشة، وأنت تعلم هذا... لذا تركته يفعل ما فعله.

- أين هو الآن؟

- لا أعرف. حينما تركت المصح أمس، وعدت إلى نويّي، لم يكن هناك، واختفى معه الآثاث وكذلك ملابسي.

Twitter: @ketab_n

- قذر! لكن أي نوع من الأخوة هذا الأخ؟

جلست جان بصعوبة عند حافة السرير، وهي تغطي وجهها بيديها، كعادتها حين تنهمر دموعها.

- لم أجرؤ على أن أقول لك بأنه ليس أخي.

- من هو إذاً؟

- إنه الرجل الذي كنت أعيش معه في مدينة نانت، قبل أن أتعرف عليك بفترة طويلة... كنا مازلت صبية. هربت من بيته، بعد أن سرقت ماله، رداً على تصرفاته السيئة معي... لكن هذه النقود كانت ثمرة... هي ما كسبته! بطرق سيئة حتماً، ولست فخورة بهذا... لكن، شارل، أنا خجلة من نفسي كثيراً. لقد عاد لينتقم مني، ويستولي على ما أملك، بما في ذلك أنت! كان يهددني بأن يقول لك كل شيء... كنت تحت رحمته... يا للعار، فاستسلمت.

- إذاً، حينما فاجأتكما في شهر كانون الثاني، لم يكن حلماً؟

- لا، مع الأسف، كان حقيقة. أنا أيضاً اعتقدت بأني كنت أحلم. كنت ضائعة وفي منتهى الغباء... كان ذلك بمثابة العودة إلى الجحيم الذي كنت أعيشه في نانت، بعد أن فقدت القدرة على الحكم الصحيح، بل وفقدت عقلي.

لم يجد شارل من القوة ما يمكنه من التلطف أو الغضب. جلس إلى جانبها ممسكاً بيدها اليسرى، أي تلك اليد غير المشلولة وقال:

- أنا وإياك محكومان بالجحيم يا جان. العالم مكان قذر، من الأفضل مغادرته. ساعتنا قريبة ياطفلتي..

- هل ما زلت تريد الموت؟

- الآن، أريد الزحيل. الهرب بعيداً عن باريس. لم أعد قادراً على تحمل فرنسا والفرنسيين. إنهم ينهكونني ويبعثون القرف في نفسي...

Twitter: @ketab_n

مالاسي يعاني صعوبات مع العدالة. وسيخسر القضية التي رفعت ضده، ومن المحتمل أن يقتادوه إلى السجن... لكن حينما ستنقضي هذه المرحلة، سيرحل إلى بروكسل، وسأذهب لموافاته هناك. فهو يعرف هناك مكتبة كبيرة، يمكن أن تشتري أعمالي كلها. أنا لا أقول أن البلجيكيين أفضل من الفرنسيين، لكن... لكن حماقتهم لا تُقاس بعجرفة الباريسيين وشرورهم.

- هل ستأخذني معك؟

- إنه حلم جميل، وأنت في هذه الحالة. لكني سأمدك بالمال، وسأكتب إليك في الغالب.

في شهر كانون الثاني من عام 1861، كان بودلير يشتمُّ رائحة اقتراب النهاية. فكر بتخليد ذكراه، فسعى للحصول على أحد مقاعد الأكاديمية الفرنسية الشاغرة. لاشك في أن ما كان يفكر فيه ضرب من الجنون، فالمعروف عنه في عالم الأدب، كما في بقية عوالم باريس، أنه إنسان ذؤوب (إنسان في النهار وذئب في الليل) أو شبق، وليس كاتباً. وشعر عندها أن ريح «الحماقة» تهب عليه، فتخلى، في شهر كانون الثاني من عام 1862 عن مشروعه الواهي المهور بخاتم اللاجدوى.

في شهر تموز، انتهز فرصة تحسن صحة جان مؤقتاً، بعد فترة أصيبت خلالها بأزمات من الشلل، لم تكن خلالها قادرة على الحركة، فاصطحبها إلى مرسم مانيه، ليرسم لوحة لها. كان المشهد جنائزياً كريهاً. جان التي أرادت أن تجمّل نفسها، ارتدت أغرب الأثواب. ثوب أبيض، يتكون من قطع محبوكة ببعضها من الخراطات القصيرة التي تصدر نوعاً من الصرير، أشبه بثوب العروس. فوقه صدرة (جيليه) مقوّرة تظهر صدرها ورقبتها، مخططة بأشرطة زرقاء. وخلف هذا القناع، كانت العروسة التي لم

Twitter: @ketab_n

تعد في العشرين من عمرها، امرأة ميتة. وضع مانيه سريراً في مرسمه، جعلها تستلقي عليه، فوق مخدة خضراء وهي ترتدي ثوب الأميرات. كانت ساقها اليمنى تعيق الغطاء، كما لو كانت قطعة خشبية ضائعة، وذراعها الأيمن فوق رأس السرير وكأنها المزهرية. رسمها الفنان كما كان يراها، أي كشبح، أو كهيكل عظمي، وجهها الغائر بسبب عاديات الزمن، ونظرتها جامدة وسحنتها بيضاء وفمها قاس، غيّب الشلل عنه أي نوع من أنواع التعابير. بعد أن أنجز اللوحة أطلق عليها اسم: **عشيقة بودلير مستلقية.**

جان ديفال (عشيقة بودلير مستلقية) لمانيه

أما بوليه- مالاسي، فقد تراكمت عليه الديون، وخسر فعلاً قضيته وحكم عليه بالسجن لمدة شهر في سجن مادلونيت. وما أن تم الإفراج عن الناشر حتى هرب إلى بلجيكاواستقر هناك هرباً من دائنيه. في السنة التالية، غادر بودلير باريس ليوافيه في بروكسل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

٧

مع بداية شهر تموز من عام 1865، وبعد عام قضاه بودلير في المنفى البلجيكي، عاد إلى باريس ليبقى فيها خمسة عشر يوماً. أسولينو، أحد أوفى أصدقاء بودلير، عرف متأخراً، بأن إقامة صديقه في بروكسل، ليست سوى سلسلة من الكوابيس، وكان يكتب إليه كل شهر، باحثاً عن وسيلة لإقناعه بالتخلي عن هذا المنفى الذي فرضه على نفسه. بعد وصول شارل إلى بروكسل، في نيسان من عام 1864، لإحياء بعض الأمسيات الشعرية، وإلقاء بعض المحاضرات العامة، اكتشف هذه الأرض المجهولة على الرغم من قربها، بحماسة شاب يحلم بشهرة جديدة، وبالمكاسب الاستثنائية التي استفاد منها كتّاب، مثل ديكنز ولونفيلو وحتى إدغار بو في انكلترا وأمريكا، من خلال مثل هذا المشروع. كان يعتمد على بوليه- مالاسي لبيع أعماله الكاملة إلى ألبير لاكروا، أحد أهم صاحب مكتبات في بروكسل. ألقى بودلير خمس محاضرات في الساحة الكبرى لحلقة الفنون. الأولى، دراسة حول صديقه تيوفيل غوتييه، لكنها لم تحقق النجاح الكافي. مالاسي، الذي كان يحضر كل محاضرة، بهرته سلاسة الشاعر اللغوية، وعبقريته الخطابية وتأثيره، علماً بأنه لم يسبق له وأن قدم قراءات عامة قبل هذا التاريخ. في نهاية المحاضرة، كثير من النساء والشبان جاؤو للقاء الشاعر تعبيراً عن إعجابهم به. كان الجمهور كبيراً خلال محاضرته الثانية، التي قرأ أو تلا خلالها أجمل قصائده. لكن الأمور بدأت تسوء مع المحاضرة الثالثة. اعتقد

Twitter: @ketab_n

الشاعر أن دولاكروا قد يكون موجوداً في القاعة، فيقتنع هذا الناشر بشراء كامل **الفراديس المصطنعة**. وكرر هذه التجربة المملة خلال المحاضرتن اللاحقتين. لكن لاكروا لم يحضر أي محاضرة من تلك المحاضرات، لاسيما وأن عدد الحضور في آخر محاضرة لم يتجاوز الثمانية أشخاص، ففهم مالاسي. وبينما كان بودلير يغادر المنصة، قال للناشر، بما عهد عنه من تهكم، جملة كانت لاذعة بالنسبة للبلجيكيين:

– هنا، فقدت عذريتي كخطيب، وهي عذرية لا أندم عليها أكثر من الأخرى.

بعد أن انتهى الأمر بمحاضراته، وبعملية بيع أعماله إلى الفشل الذريع، كان يمكن لبودلير أن يعود إلى بلده، وبين أصحابه الذين اشتاقوا إليه، وكانوا يعبرون له عن ذلك عبر رسائلهم. لكنه تشبث بالبقاء هناك، ورد على أسولينو، بشكل خاص، بأنه يكن لبلجيكا وللبلجيكيين كراهية لا حدود لها، لكنها أوحت إليه بكتابة ملاحظات وتفكرات، من شأنها أن تشكل موضوعاً جديداً للهجاء.

كان ما يزال متردداً حول العنوان، الذي وضعه بشكل مؤقت «مسكينة بلجيكا!». أرسل بودلير إلى صديقه بعض الخلاصات والملاحظات التي أدهشت قسوتها وفظاظتها كل من قرأها، وأثارت غضبهم، مع أنهم كانوا أشد المعجبين به. كانت تلك الكتابات عبارة عن أكوام من الكتابة المتناثرة، وسلسلة من الجمل الخالية من الأفعال، تبدأ كلها تقريباً باسم، وتبرز الضغينة في كل سطر منها. في مايلي بعض العينات العشوائية: «**غلاظة في أخلاق الشارع. العامل الفرنسي يبدو أرستقراطيا إذا قورن بأمير من هذه البلاد، غلاظة عامة تتميز بها كل الطبقات**»؛ «**الدماغ البلجيكي. المحادثة البلجيكية. من الصعب تحديد صفة البلجيكي على سلم الكائنات. إنه قرد، لكنه رخوي. إنه دودة نسينا أن نسحقها**»؛ «**عفن**

Twitter: @ketab_n

النساء. حكايات المراحيض وزوايا الشوارع. إناث، نعم، أما نساء، فلا. خضار مزروعة في المستنقعات»، الخ. في هذه الظروف، ظروف اليأس المطلق حول كل ما يتعلق بالبلجيكيين وببلجيكا، لم يفهم أحد السبب الذي جعل بودلير يرفض مغادرتها. خلال هذه الفترة، ظهر في فرنسا آخر جزء من ترجمته لأعمال بو في دار نشر ليفي، والحطام، الذي أعيد فيه نشر القصائد المُدانة عام 1857.

على الرغم من الإشاعات المثيرة حول صحة بودلير، فقد رأى أسولينو أن هيئته كانت معقولة حينما جاء لزيارته في باريس، التي وصلها مساء، عبر محطة الشمال، وقضى ليلته عند كاتول مينديس Catulle Mendès. قسمات وجهه كانت ثقيلة، عزاها الشاعر إلى («نظام الطعام البغيض في هذا البلد»، لكن نظره ما يزال ثاقباً، ومزاجه مرحاً. وكان الشاعر يمزح، ويثرثر لدرجة يحسد عليها. عثر كل من بودلير وأسولينو على بانفيّ في حديقة اللكسمبور، فتعانق الصديقان، بعد ذلك سار الأصدقاء الثلاثة تلفهم مظاهر سعادة اللقاء، وراحوا يتمازحون، كما كانوا يفعلون في فترة معرض 1846. كان الطقس رائعاً، وبودلير ما يزال يرزح تحت وطأة الديون، لكنه كان يؤكد بأنه لم يعد يهتم بأمرها، وبدا كل شيء وكأنه يسير نحو الأفضل. بل ظن كل من بانفيّ وأسولينو، أنه شفي من مرضه. لم نكن نعرف شيئاً عن آلامه العصبية، ونوبات الدوار والإسهالات، التي تعرض لها طيلة الشهر الماضي. بعد نقاش، تناول هذا الشخص أو ذاك، وتقلبات الثروة والفن والشهرة، استطرد بودلير في حديثه عن بلجيكا التي كانت تشكل هاجساً له.

– كما نقيس العبقرية الفرنسية حينما نعيش في بلجيكا! سعيد ذلك الذي يمكنه حمل وطنه فوق نعل حذائه! لأن فرنسا تُعدُ جنة إذا قيست بسجين في شرح الغرب!

Twitter: @ketab_n

– تيوفيل غوتييه، قال أسولينو، أسر إلي شيئاً حولك (استشهد به مقلداً صوته): «هذا البودلير، إنه مدهش! هل يمكن تصور هذا الهوس في الخلود في بلد يتألم الإنسان فيه؟ أما، حينما ذهبت إلى اسبانيا، والبندقية والقسطنطينية كنت أعرف بأن تلك البلدان ستعجبني، وأنني لدى عودتي، سأكتب كتاباً جميلاً. أما بودلير، فقد بقي في بروكسل لكي يستمتع بالقول أنه كان يضجر منها!». ألا يسجل نقطة لصالحه هذا الصديق تيو؟

انفجر بودلير ضاحكاً وأجاب بذكاء:

– من غير الملائم، فعلاً. وربما لم يكن تيو مخطئاً في العمق. لكن إذا كنت تعيساً في بلجيكا، فإني سأكون كذلك في باريس. على الأقل هناك، أعمل على دراستي الهجائية، وأقلل من مصاريفي، وأكوّن رأياً أفضل حول فرنسا!

لقد بدا لكل من أسولينو وبانفي من غير المعقول أن يقضي إنسان عدة سنوات في بلد يكرهه، لكي يكتب دراسة هجائية لا يمكن نشرها، وهي لم تكتب أصلاً.

– عليك أن تبقى في باريس. ألح بانفيّ. مع أنها كئيبة ومتواضعة، لاتملك الروح التي تملكها.

– بدلاً من التحامل على بلجيكا، أضاف آسولينو، استكمل بالأحرى قصائدك النثرية لدار نشر منديس، لقد قرأناها جميعاً في صحيفة لارتيست. إنك في قصائدك الموسومة «كآبات باريس» لايشق لك غبار، وليس في هجومك على أولئك البلجيكيين المساكين الذين لايؤذون أحداً!

– الخنازير لا تؤذي أحداً، لكن هذا لا يمنع أن تكون قذرة ووضيعة. فما العيب في أن أتحدث عن هذا؟ أنتما صديقاي، صرح بودلير بجدية. لكني سأعود إلى هناك خلال عشرة أيام.. هكذا، ولن أمنع نفسي عن ذلك.

Twitter: @ketab_n

غداة اليوم التالي، ذهب شارل إلى حي الباتينيول، حيث تقيم الآن جان في سكن متواضع. وكان يرسل إليها من بروكسل مرتبها شهرياً. وحينما لا يكون معه مال يرسله إليها، كان يقترضه أو يطلب سلفة من آنسيل، الذي كان يتذمر كعادته، لكنه كان يستجيب لطلبه في نهاية الأمر. أحياناً كان شارل يرسل إلى جان، أشياء غريبة يشتريها من أسواق بعض المدن البلجيكية، بعد أن قرر مضاعفة كراهيتها لهذا البلد، مدينة فمدينة وقرية إثر قرية.

كان دائم الشوق لها، إلى هذه الجميلة جان. جان الخيالية هذه، كانت تستحوذ على ذاكرته، لكنه لم يكن قادراً على (أو لم يكن يريد) الإتيان بها. لقد عبّر لها في رسائله، عن أنها تحتاج إلى أفضل الأطباء، ممن لا يتوفرون في بروكسل إذا ما أرادت استشارتهم. كان مفعماً بحبها، مكتفياً به طالما ظلّ ساكناً في ذاكرته. الحب جهد مستمرٌ يبذله الإنسان. لكن بودلير صار يفتقر إلى المصادر اللازمة لتغذيته، مثلما لم يعد لديه ما يكفيه منه ليستمر في حياته.

في شهر شباط، وبينما كان منزوياً وحيداً في غرفة الفندق لايفعل شيئاً – وهو أصلاً لم يفعل شيئاً في بلجيكا في أغلب الأحيان-، أراد أن يحييها في ناظريه كما عرفها. طالما كان بودلير موهوباً إلى حد ما، في رسم (الكروكي)، فقام برسمها كما تذكرها زمن لقاءاتهما: عينان مخمليتان، عنقها المدور، قدها المياس المزنّر، وكفها الواسع، وغرتها السوداء الملمومة في شبكة خيطية. في الرسائل التي كتبتها جان إلى بودلير، كانت دائماً تعبر فيها عن رغبتها في الالتحاق به أو في عودته إلى باريس. أحياناً حينما يكون شارل في أسوأ لحظات وهنه الجسدي، أو الفكري يتردد في البداية حول طلبها، لكنه كان دائماً ينتهي إلى رفضه. لأن عبء وجود عشيقته العاجزة إلى جانبه، من شأنه أن يمنعه من

Twitter: @ketab_n

العمل، إضافة إلى أنه لم يعد قادراً على رعايتها. لاسيما وأن صحته، هو بالذات، أصبحت تشغل وقته كله. ومع هذا، كان سعيداً بقدرته على أن يؤمن لها الرعاية، ودفع أجرة شقتها في باريس، وتسديد نفقات الأدوية وأجور الطبيب بيوجي، أحد كبار الأخصائيين في مرض السيفليس، الذي كان يسترد أتعابه من بودلير ومن عشيقته بالتقسيط المريح، لصداقته الوثيقة بالشاعر.

فتحت جان الباب بنفسها، وبادرته بابتسامة عريضة:

- كنت أعرف أنك الطارق! قالت بصوت عال.

كانت صحتها قد تحسنت بشكل مدهش، بعد أن تلاشى الشلل من وجهها. وحينما تكون في بيتها، فهي تستطيع التنقل وهي تعرج بدون الاتكاء على العكازتين. وحينما تكون وحيدة، كانت تضع نظارتين لكي تريح عينيها، ولكي ترى بشكل أفضل. لكن، خلال النهار، وحينما تكون بصحبة أحد ما، كانت تعيدهما إلى أحدالأدراج، حرصاً منها على أن تبقى مصدراً للغواية، على الرغم من انهيار صحتها. ضمها شارل بين ذراعيه وعانقها. وانتابته الرعشة ذاتها التي تنتابه في كل مرة يلتقي بها.

- اغفر لي، فقد أثقلت عليك بحاجاتي المالية. لكني تأخرت عن دفع إيجار شهرين.

- كنت مفلساً، ولم يكن لدي ما أرسله إليك. كان عليك أن تطلبي النقود من آنسيل.

- لم أجرؤ على ذلك.. أعتقد بأنه لا يحبني.

كانت الشقة صغيرة (تتألف من صالون وغرفة، إضافة إلى المطبخ)، لكنها كانت مزينة بذوق (طالما كانت جان صاحبة ذوق في هذا المجال). فضلاً عن هذا، كانت نظيفة، إذ كانت ناطورة المبنى تقوم بالتنظيفات ثلاث مرات في الأسبوع، تبعاً لما كان يرسله إليها بودلير من نقود.

Twitter: @ketab_n

- كيف حالك، ياطفلتي؟ سألها بعد أن جلسا في الصالون. إن لك إطلالة الملكة! يالهي كم تحسنت صحتك!

- هوذا الحال دائماً.. يروح المرض ثم يعود، ولا أفهم لذلك سببا!

- الطبيب بيوجي ساحر، هذا هو السبب! وقد يستمر غياب المرض وعودته فترة طويلة. وبانتظار ذلك، فأنت على قيد الحياة.

- أنت أيضاً، ياعزيزي، تبدو صحتك أفضل بكثير. رسائلك الأخيرة أرعبتني. لقد سمعت هنا، عدة مرات، إشاعة تقول بأنك قد متّ. انظر إلى نفسك، فقد سمنت بعض الشيء. هل تعتقد أنه يمكن أن نشفى؟ وأن نقضي شيخوختنا معاً بعد أن تكون قد أنهيت هذا الكتاب اللعين؟

- لمَ لا؟ أجاب بودلير. كل شيء ممكن مع هذه العلوم الحديثة اليوم...

- كم من الوقت ستبقى؟

- سأبقى معك يومين أو ثلاثة أيام، بعدها سأذهب لزيارة أمي في هونفلور. سأبقى عندها ليلة، ثم أعود لرؤيتك وأقضي بضع أيام إضافية بصحبتك، قبل أن أستقلّ القطار إلى بروكسل.

قلقت جان لعودته إلى السفر، لكنها لم تقل شيئاً. فهو سيدها الذي لايناقش

- لم أسألك أبداً في رسائلي، عما إذا كان لديك عشاق أم لا؟ سألها شارل.

راحت جان تضحك من كل قلبها

- بودلير، صار عمري أربعين سنة! لكني أفضّل بأن تستمر في اعتقادك بأني أخونك،

بقي العاشقان بضعة أيام معاً بعد عودته من هونفلور. ونظراً

Twitter: @ketab_n

لتحسن صحة جان، فقد ذهبا ذات مساء إلى الأوبرا في عربة. وانتهز بودلير فرصة وجوده في باريس خلال الأيام التالية، لكي يرتب أموره مع ناشري أعماله. وفي 15 تموز استقلّ القطار من محطة الشمال ليصل بروكسل في منتصف الليل.

مرت شهور دون أن نتلقى أي خبر من بودلير. ذات مساء من شتاء عام 1865، ربما خلال الأيام الأخيرة من شهر كانون الثاني، وبينما كنت مدعواً على العشاء عند مانيي Magny نناقش أشياء مختلفة، أصبح سانت- بوف فجأة جدياً، وقال لنا بصوت خفيض تقريباً:

- هذا المسكين بودلير مريض جداً... نعم إنه مريض جداً...

بدا التأثر على المدعوين جميعاً. سَألنا أحدُهم عن طبيعة المرض، فأجبنا، سانت- بوف وأنا، بمواربة وباستعارات دون أن نذكر اسم المرض. لكن الجميع فهموا طبيعته، وخيم صمت حزين منعنا، للحظة، من استكمال عشاءنا.

- لقد أنهى «غواية القديس أنطوان» الخاص به، قال سانت- بوف، وهو يبتسم ابتسامة كئيبة، موجهاً كلامه إلى فلوبير الذي كان يجري التصحيحات الأخيرة على مخطوطته التي تحمل هذا الإسم.

- نعم. أجاب بودلير، لكن صاحبنا ربما استخف بالشيطان.

بعد بضعة أيام، تلقى أسولينو رسالة من بودلير، كل ما فيها يدل على طلب الإغاثة. ذات مساء، وبينما لم يكن قد تناول أي طعام (كان يزعم أنه يريد انتهاز فرصة إقامته في بلجيكا ليعيد تنظيم حياته، ويعالج نفسه من الإدمان على المخدرات والكحول) سقط في غرفة الفندق، وكان يتلوى فوق أرضها، كما لو كان قد شرب ليتراً من ماء الحياة (الكحول). كان يتشبث بقطع الأثاث ويجرها خلفه. بعد أن خرج، بصعوبة، من هذه الأزمة التي استمرت وقتاً لا بأس فيه، أصيب بإقياءات صفراوية، وراح الزبد

Twitter: @ketab_n

الأبيض ينتشر حول شفتيه، ولم يكن قادراً على منع سيلانه. بعد هذا بقليل، وبينما كان يمشي في أحد شوارع بروكسل الضيقة، عاودته الأزمة، التي سبقها تعرق وألم فظيع في الرأس. راح يسير على غير هدى كالمجنون في وسط الزقاق، ويتشقلب تحت أنظار المارة المذعورين. وما أن عاد إلى الفندق، حتى عاودته الإقياءات.

بعد الظهر، وما أن أصبح في حالة تسمح له بالخروج، ذهب لرؤية الطبيب الذي كان يستشيره في بروكسل. فوصف له أقراصاً مركبة من مادة الكينين والديجيتالين والبيلادون والمورفين، إضافة إلى استخدام منتظم لماء مسكن مع التربنتين. ولمعالجة حالات الدوار، وصف له: ماء فيشي، وماء بولنا والإتير. لكن هذا العلاج الفعال لم يكن لها أي تأثير على المريض إذا سرعان ما عاودته النوبات على نحو أشد. أضاف الطبيب أكسيد الزنك والأسا فوتيدا إلى تركيب الأقراص، كما أمره بالقيام بنزهات يومية طويلة. اعترض بودلير، متذرعاً بأنه غير قادر على السير منتصباً، وأن حالة الطرق البلجيكية لا تسهل له إجراء مثل هذه التمارين. ، فرد عليه الطبيب: «عليك أن تجبر نفسك!». هذه الوصفة الأخيرة، التي رأى بودلير أنها عبثية، فهمها أيضاً على انها اعتراف بالعجز. في ختام رسالته، طلب بودلير من أسولينو أن يذهب لزيارة الطبيب الرائع بيوجي، المتخصص الأهم في أمراض الحمى القرمزية، وبالداء الذي كان يعاني منه، لكي يحيط بكل الملاحظات الطبية. أخذ أسولينو الرسالة إلى بيوجي، وراح يقرأها باهتمام، بينما كان يعرك حاجبيه. وقال:

- الأعراض خطيرة
- خطيرة، بأي معنى؟
- بالغة الخطوزة.
- هل يمكنك القيام بأي شيء، وصفة لم توصف له من قبل؟

Twitter: @ketab_n

– لا أستطيع اتخاذ قرار دون أن أعاين المريض، أجاب بيوجي. قل لبودلير أن عليه العودة إلى باريس باقصى سرعة.

خلال هذه الفترة، بقي بودلير على اتصال دائم مع كاتبه بالعدل، الذي ثارت ثائرته وهو يقرأ أعراض مرضه والوصف التفصيلي لنوباته المتتالية. ولكي يلهيه، كان آنسيل الذي زار بلجيكا عدة مرات، يضطر إلى ألا يكتب له إلا عن جمال هندستها المعمارية، متجنباً بذلك الموضوع الصحي. في إحدى رسائل الأسبوع الثاني من شهر آذار، نصح بودلير، الذي كان مدعواً من قبل الزوجين روبز، ليرتاح بضعة أيام في مدينة نامير Namur، ويقوم بزيارة كنيسة سان لو Saint-Loup التي بناها اليسوعيون في القرن السابع عشر. ولم يعد آنسيل يتردد، من الآن فصاعداً، في أن يمتدح له روعة المسيحية، بعد أن نما فيه الإيمان وهو في طريق آلام العذاب الذي كان يعانيه جراء مرضه. في 15 آذار، وبناء على نصيحة الوكيل القانوني، قام بودلير بزيارة رواق كنيسة سان لو، ليرى جمالها المزعوم، بصحبة فنان الحفر، فيليسيان روبس «الرجل الوحيد في بلجيكا الذي كان يعرف اللغة اللاتينية ويشبه الفرنسيين». رخام مازي الأسود، كان يتوحد مع رخام روشفور الأحمر، في قبة فخمة، رأى بودلير أنها مثقلة بما لا يلزم. لكن، ما أن قدم هذه الملاحظة، حتى هجم عليه وحش غير مرئي، فأطلق صرخة تتمزق لها الأحشاء، قبل أن يقع غائباً عن الوعي، بين ذراعي صديقه. نقل إلى بيت روبس، حيث انتابته نوبة أخرى، بينما كان يستعيد وعيه. أخطرت والدته بالموضوع. وتم نقل بودلير بالقطار إلى بروكسل.

خلال الطريق، لاحظ الحفار، الذي أصر على مرافقته، أن الشاعر لم يتوقف عن توجيه طلبات خارجة عن إرادته. فعلى سبيل المثال، كان يطلب فتح النافذة، في الوقت الذي كان يتمنى فيه أن تُغلق. هذه التناقضات بين التفكير والكلام كان، يمكن أن تعد عادية، لولا أنها كانت

Twitter: @ketab_n

تسبق اضطرابات لغوية تسبق الحبسة الكلامية. ما أن وصل بودلير إلى محطة بروكسل، حتى سارع مالاسي ليكون فوق رأس المريض، محيطاً إياه برعايته وصداقته. في صباح 20 من الشهر نفسه، استيقظ بودلير، لكنه كان عاجزاً عن النهوض، بل عن الإتيان بأي حركة. ولم يكن أي عضو سليم في جسمه سوى ساعده الأيسر. قدم أحد الطباء إلى الفندق، فشخص حالته بأنه مصاب بالشلل النصفي. بعد رحيل الطبيب بقليل، قرع الباب. مالاسي، الذي بقي بالقرب من شارل في الغرفة، نهض ليفتح الباب. وظهرت السيدة لوباج، المرأة الشرسة التي كانت تدير فندق لوغران-ميروار.

- هل السيد بودلير موجود؟ سألت بطريقة سيئة.

- نعم، أجاب مالاسي، لكنه غير قادر على استقبالك.

- وأنا أيضاً، لم أعد قادرة على إبقائه هنا، لأنه لم يدفع أجرة غرفته منذ شهور!

بودلير كان ما يزال بوسعه التعبير، لكن بصعوبة. فأملى على مالاسي رسالة إلى وكيله القانوني، يرجوه فيها تسديد فاتورة الفندق. ما أن تلقى نارسيس آنسيل الطيب، الرسالة حتى سارع بإرسال 246 فرنكاً التي يدين بها موكله لصاحبة الفندق، ثم ركب أول قطار إلى بروكسل، ليقف إلى جانب المريض. بعد بضعة أيام، نقل بودلير إلى إحدى البيوت الدينية. في مساء 19 نيسان، أي بعد عدة أسابيع على عيد ميلاده (الخامس والأربعين)، وصلت السيدة اوبيك إلى بروكسل، وتوجهت فوراً إلى (معهد) جان إيه سانت إليزابيت، حيث دلوها على الغرفة التي كان يقيم فيها ابنها. وجدته نائماً، فجلست إلى جانبه في العتمة. لم تكن تعرف شيئاً بعد عن خطورة حالته. كانت كارولين تطبع قبلة فوق جبينه حينما دخلت الأم العليا، وهي امرأة بين الكهولة والشيخوخة، بوجهها الناشف، والمسؤولة عن إدارة المؤسسة، إلى

Twitter: @ketab_n

الغرفة وطلبت أن تتحدث معها على عجل. نهضت السيدة أوبيك، وتبعت الراهبة في ممرات المشفى بخطى جامدة مستعجلة.

لماذا لم يكتب لي بنفسه؟ سألت السيدة أوبيك، بعد بعد أن جلست في مكتب المسؤولة.

- ابنك ياسيدتي مصاب بعسر الكتابة، أي أنه لم يعد يتذكر الحركات اللازمة للكتابة.

- غريب هذا الأمر... أنا لا أعرف مثل هذه الحالة المرضية... هل هذا هو الشيء الوحيد الذي يعاني منه؟ ما هو تشخيص حالته بالضبط؟

- لقد انكب عدة أطباء على دراسة حالته، وطرحوا عدة فرضيات: شلل متدرج، التهاب سحايا الجانب الأيسرمن الدماغ، شلل نصفي مترافق بحبسة كلامية...

- ألن يتمكن من التكلم؟

- سآتي إلى هذا الموضوع، أجابت الأم الرئيسة بلهجةسلطوية. برأي البروفسور جان كروك، إصابته بالجنون الشللي أمر ممكن... أما بالنسبة للحبسة (وهذا هو موضوع حديثي معك)، فلم نعد قادرين على العناية بابنك، ونحن مضطرون، مع الأسف، إلى طرده من المؤسسة.

- لماذا؟... ما علاقة هذا بالحبسة؟

- ابنك، سيدتي، ينقصه الإيمان حتماً. إيماني وشرفي لايسمحان لي بأن أعيد عليك الكلمات المبهمة التي تلفظ بها! السيد بودلير لا يعبر الآن، إلا بجمل تجديفية وكلمات مهينة، تثير الرعب في نفوس أخواتنا. ويتصرف أحياناً بعنف، وأصبح يشكل خطراً على مؤسستنا. صدقيني بأني حزينة، لكننا غير قادرين على العناية به فترة أطول.

الأم الرئيسة كانت مخطئة، لأن لا علاقة للأمر هنا بقلة الإيمان، أو قصد الإساءة إلى الراهبات، وهو ما ينسجم مع سمعته السيئة، بل الأمر

Twitter: @ketab_n

مجرد عيب كلامي. كلما أراد بودلير التعبير، فإن الجمل التي يبنيها في فكره لاتخرج، رغماً عنه، إلا على شكل شتائم أو كلام فظ. فكلمة «Crénom» (سحقاً، تباً) التي طالما ترددت على لسانه، كان أول المتفاجئين بها شارل نفسه، وكانت تثور ثائرته لعدم قدرته على إفهام ما يريد قوله. فلم يكن يفهم سبب خروج هذه الكلمة الحمقاء، التي مع ذلك لم يتلفظ بها إلا قليلاً طيلة حياته. ردود فعله اليائسة، التي كانت تظهر خلال تجليات عنيفة، قادت بعض الأطباء إلى تشخيص مرضه على أنه ضرب من الجنون. علماً أن بودلير، (مع الأسف!)، لم يكن في حياته أبدا، أصفى ذهناً مما هو عليه. قررت السيدة أوبيك أن تعيد ابنها إلى باريس، لتتم معالجته هناك بشكل صحيح، بعد أن تخلت عن فكرة اصطحابه معها إلى هونفلور. وحينما مرت لأخذ حاجياته من الفندق، سلمتها السيدة لوباج حزمة من الرسائل المرسلة إلى ابنها، والتي تكدست خلال غيابه. فتعرفت كارولين على الخط الذي كتبت به آخر الرسائل (أرسلت من باريس قبل أسبوع من هذا التاريخ)؛ وهي رسالة من جان.. فتحتها، وهي تحس بالحقد والغضب يصعدان في رأسها، وقرأتها. يبدو أن أحداً لم يبلغ جان بما آلت إليه حالة عشيقها الصحيّة.. في رسالتها هذه، لم تعبر عن أي قلق خاص، وتطلب فيها المال من شارل. وفي لحظة غضب، مزقت السيدة أوبيك الرسالة، وهي تخبط بقدمها الأرض، وقررت ألا تخبر بودلير بمضمونها. ثم عادت بصحبة آنسيل إلى المؤسسة وتسلمت ابنها.

أسولينو الوديع، كان قد جاء إلى رصيف الخط الحديدي ليستقبل بودلير لدى عودته من بروكسل. حينما دخل القطار المحطة، وتوارت الغيوم البيضاء، لمح صديقه القديم وهو ينزل من القطار، يحيط به كل من آنسيل وأمه وبائع اللوحات أرثر ستيفنس، الذي بدا بودلير وكأنه كان ممدداً عليه بشكل عمودي. كانت عصاه مثبتة إلى زر سترته، ويده اليسرى تشد على

Twitter: @ketab_n

كتف ستيفنس، الذي كان يسنده بطرف ذراعه. انقبض قلب أسولينو حينما رآى صديقه على هذه الحالة، لاسيما وأنه لم يكن يعرف بعد طبيعة المرض الذي كان بودلير يعاني منه (قيل له أنه كان مجنوناً). فقد كان كالحطام وهو ينزل بمساعدة ستيفنس، فوق سلم عربة القطار، ولم يستطع منع دموعه من الانهمار. حينما رآه بودلير وهو فوق سلم العربة، انطلق في ضحك مخيف، قوي وحاد وصل دويه إلى قاعة المحطة وترك أثراً في ذاكرة أسولينو، لم يستطع نسيانه أبداً، فقال في نفسه «إنه الجنون إذاً!». لكن بعد أن أمضى ربع ساعة معه، صحح أسولينو انطباعه الأول. بودلير لم يكن مجنوناً، بل على العكس تماماً. اكتشف أن عقله كان نقياً كالزجاج الصافي (الكريستال) وتركيزه الذهني مايزال حاداً كما كان عليه في الماضي. سمع ما كان يدور من أحاديث حوله، وكانت تعابير نظرته أفصح من الكلام الذي كان يفهم كل كلمة منه. كان لا يستطيع الكلام أو الإجابة على الأسئلة التي كانت تطرح عليه، إلا أنه كان قادراً على الابتسام أو هز رأسه أو رفع كتفيه، مما كان يعني إما «لماذا؟» أو «لا أعرف» أو «هكذا!». وبما أنه كان عاجزاً عن التنقل، حتى في عربة، لاسيما بعد الساعات المضنية التي قضاها في القطار، فقد حجزت له غرفة في فندق يقع على بعد خطوتين من المحطة. رافق أسولينو المريض مع الوصية عليه. في اليوم التالي، أدخل بودلير مشفى الدكتور ديفال في شارع دوم، وأودع غرفة تطل على قوس النصر. ثم بدأ الأطباء يتوافدون عليه. أولهم، بطبيعة الحال، الدكتور بيوجي، ثم الدكاترة لاسيغ Lassègue وبلانش، اللذان وصفا له العلاج بالماء Hydrothérapique، إضافة إلى كل أنواع الأقراص ذات التأثير السريع والمفيد. لكن شفاءه التام كان أمراً مستحيلاً. زاره مانيه ليقوم شخصياً بتعليق اثنتين من لوحاته على جدران الغرفة. عبّر له شارل عن شعوره بالعرفان من خلال ما تبقى لديه من نعومة النظر.

Twitter: @ketab_n

إيميه، المكلفة بالعناية بالشاعر كانت خادمة حمقاء قليلاً. من الآن فصاعداً، راح آنسيل يوزع النقود بلا حساب، بل لم يعد يهتم بما بقي عنده من رأس مال بودلير. لم يكن بودلير قادراً على تحمل إيميه، فيحملها كل ما يعانيه من آلام، ويعاقبها لسوء تدبيرها، أو بسبب صعوبة إفهامها، فينفجر غضباً مخيفاً. بفضل العلاج الذي قدمه الأطباء، استطاع أن يستعيد قدرته على استخدام يده اليسرى لفترة قصيرة، لكنه ظل استخداماً متردداً. كانت يده ترتجف، لكنه استطاع خلال أيام، أن يرسم بالطبشور بعض الحروف الخرقاء فوق لوح من الأردواز. ذات صباح، وبعد أن بذل جهداً بالغاً، توصل إلى كتابة كلمة. حينما دخلت إيميه الغرفة، وجدت بودلير جالساً فوق الكنبة التي أُجلس فوقها ولم يتحرك أبداً عنها، ولوح الأردواز إلى جانبه. استطاع أن يلفت انتباه إيميه، وأفهمها أن عليها قراءة ما كتبه. أمسكت إيميه بلوح الأردواز، وحاولت فك رموز الحروف التي يظن المرء بأن طفلاً صغيراً، لاعلم له بقواعد الكتابة، هو من كتبها. وبعد لحظة، سألته:

- جان؟ هل كتبت «جان»؟

عندها ضرب بودلير الأرض بكل ما يملك من قوة، محاولاً إفهامها بهذه الطريقة، أنه يريد لوح الأردواز. سلمته إيميه اللوح وبقيت إلى جانبه منتظرة أن ينهي كتابة الاسم الذي كان بصدد كتابته. كانت كتابة كل حرف تأخذ منه وقتاً طويلاً قبل أن يشكله. وبعد فترة، أعاد بودلير اللوح إلى الخادمة من جديد فقرأت ما كتبه فوقه:

- جان... دي.. ديفال؟

انفجرت ضاحكة لعلمها بأنه يخلط الأحرف ببعضها، وأن تفكيره لم يكن قادراً على التعبير عما يريد قوله بشكل صحيح، سواء شفهياً أم كتابيا. مثلاً، حينما كان يطلب رؤية أحد ما كان يقول: «ناوليني الخردل!».

Twitter: @ketab_n

– فهمت! تريد رؤية الدكتور ديفال! لكنك لم تكتب اسمه الأول بشكل صحيح سيد بودلير!.

ثم ينتابها ضحك شديد. أخذ شارل اللوح من يدها ورماه في وجهها. ثم، بعد أن أعياه التعب لكثرة ما ضرب الأرض بقدمه والاختلاجات التي انتابته، تدحرج فوق الكنبة وهو يصرخ بكل قواه، ويلوح بقدميه في الهواء، مثل سلحفاة مقلوبة على ظهرها، مردداً كلمات غير مترابطة مثل «نعم!»، «جيد جداً»، «بيوجي» الخ. هربت إيميه من الغرفة باكية. في اليوم التالي عاد الشلل إلى بودلير، فأصبح عاجزاً عن الكتابة فوق لوح الأردواز.

اعتنى كل من أسولينو وبانفيّ ونادار ومانيه بصديقهم بسخاء منقطع النظير. لم يكن يمر أسبوع واحد دون أن يكون أحدهم إلى جانبه في المشفى. وكل يوم اثنين، حينما لا يعارض الدكتور ديفال، كان أسولينو ونادار يصطحبان بودلير للعشاء، فيضعانه في عربة، ويطلبانِ من الحوذي الذهاب إلى نادار سالكين أطول الطرق، حتى يتمكن العاجز من الاستمتاع برؤية شوارع العاصمة. قبل أن يقدموا لاصطحابه، كان شارل يسبب أزمة لإيميه. فقد بقي متطلباً بالنسبة لما يريد ارتداءه من ملابس، وهو ما لم يكن قادراً على إفهامه للخادمة، فيوبخها بعنف، ويبصق في وجهها. بقي بودلير داندياً حتى نهاية حياته. لم يكن يقبل على الإطلاق، أن يستقبل الناس في غرفته، أوأن يغادرها بلباس غير أنيق. خلال الطريق وهو في العربة، كان أسولينو ونادار يتنافسان في المزاح وإلقاء النكات للترويح عنه، وانتزاع ما يشبه الابتسامة من بين شفتيه. في بيت نادار، كان بودلير يري يديه للمصور، فيرفع كميه ويغسلهما بالصابون ثم يقلم له أظافره. ولم يكن بودلير يهمه، إن كان هذا العمل قد قامت به الخادمة قبل نصف ساعة: الطقس كان دائماً ضرورياً وإلا فإنه كان يثور غضباً. ولم يكن مسموحاً لغير نادار بأن يقوم بهذا التطريف (قص الأظافر وتنعيمها..)، إذ لابد من الاعتراف بأنه

Twitter: @ketab_n

كان مؤهلاً لهذا العمل. حينما ينتهي التطريف، كان بودلير يرفع يديه بمقدار ما يستطيع، فينظر بإعجاب، إلى لمعان أظافره تحت النور، فيصيح قائلاً «تباً! آه! تباً!» ثم يروح نادار وأسولينو يتحدثان أثناء الوجبة المعدة حسب ما يشتهي بودلير، عن أناس يحبهم بودلير، وكانا يستمتعان برؤيته فرحاً. ذات مساء، استطاعا أن يفهما أن شارل كان يتمنى رؤية جان، لكن لا نادار ولا أسولينو، كانا يعرفان أين يعثران عليها. كما كانا يجهلان تحت أي اسم كانت تستأجر سكنها، إذ لم يكونا يعرفان لها سوى اسمين هما ديفال و لومير، ويجهلان أنها كانت تسكن في شقة شارع باتينيول تحت اسم جان بروسبير. قصدا ليلاً نارسيس آنسيل، ظناً منهما أن الوكيل القانوني قد يعرف مكان إقامتها. لكن لسوء حظهما، كان آنسيل غائباً عن البيت ولن يعود قبل الشهر القادم.

– تباً! آه، لا، تباً! صاح بودلير، والدمع يفيض من عينيه.

الأحد التالي، من حزيران عام 1867، ذهب أسولينو لاصطحاب بودلير من المشفى والقيام بنزهة عبر خضرة [غابة] بولونيا. توقفا لتناول الغداء في أحد المطاعم، حاول أسولينو الترويح عنه بالحديث، ويقسم قطعة اللحم له كما لو كان طفلاً. لكن بودلير كان أكثر حزناً مما هو عليه عادة. نظرته لا تغش المراقب، حتى لو كان أحد أطبائه قد علمه أن يقول: «مساء الخير»، و«القمر جميل»، ظناً منه أنه يحرز بعض التقدم في ما يفعل. شجعه أسولينو على العمل مع الطبيب لكي يوسع أيضاً من مجال مفرداته. ، ثم رافقه إلى المشفى. بدا بودلير مسروراً من نهاره هذا، وزال الحزن عن وجهه لفترة قصيرة. وحينما كانا على وشك أن يفترقا، عبر عن عرفانه بالجميل لصديقه من خلال نظرة طويلة وعميقة، شاكراً له بذلك كرمه. في نهاية شهر تموز، تدهورت حالة بودلير الصحية. حينما زاره نادار للمرة الأخيرة (إذ لم يعد بالإمكان اصطحابه إلى بيته لتناول العشاء)، كان شارل قد

Twitter: @ketab_n

أصيب بنحول فظيع، وبانت عظام وجهه، الذي بدت عليه آثار المرض واليأس. دخل نادار إلى الغرفة فوجده منهاراً فوق مسند السرير، وعيناه ترمقان السماء بموازاة قوس النصر، وحزن لا حدود له يغشى عينيه. نظره التائه في تأمل الغيوم، كان كما لو أنه مُضاء بنور النبوءة. فهم المصور، وهو يفك لغز وضعية صديقه، بأن الموت كان يقترب منه، وأنه كان مشغولاً الآن بخلود روحه.

- ما هذا! كيف يمكنك أن تؤمن بالله؟

وبحركة من ذقنه، أشار بودلير إلى السماء المتوهجة كالجمر، والشمس تنحو للمغيب، غارقة في مستنقع من الدماء، وكأنها تستسلم لانتحار طقوسي. صخبُ وأبهةُ الاتساع المحيط بساحة النجمة، كان فيهما شيء من جزالة التعبير.

- لا يمكنك أن تؤمن بالله يابودلير! ليس أنت!

- تباً! أوه! تباً! احتج شارل، وقد استعاد قوته ليشير بقبضته نحو السماء.

انساب ضوء مأساوي عبرَ نظرته. أنهكه هذا الجهد الأخير الذي بذله، فترك نفسه يقع فوق الأرض بتثاقل. ساعده نادار لكي ينام قائلاً له قبل مغادرة الغرفة:

- آنسيل ما يزال يقضي إجازته في تلك المحطة الحرارية اللعينة، وسيعود إلى نويي بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع. عندئذٍ سأذهب للبحث عن جان وستأتي لرؤيتك. أعدك بهذا.

في اليوم التالي، كان بودلير عاجزاً عن الحركة، بعد أن استولى الشلل على جسمه كاملاً. بقي شديد الهدوء، ممداً على ظهره، وعيناه محملقتان طيلة يومين. كان يحاول أحياناً التلفظ بكلمة. لكن تلك الكلمة الكريهة «تباً!» كانت تطمئن عالمه، ولم يعد فمه يصدرُ أي صوت. فهم الدكتور

Twitter: @ketab_n

ديفال، أن بودلير يحتضر، فأخبر السيدة أوبيك، التي سارعت بالحضور لرؤيته. قضت الليل ساهرة إلى جانبه. أخذته بين ذراعيها، وضمته بقوة إلى صدرها، فبدا لها أن ابنها كان على وشك أن يقول شيئاً ما، لكنها لم تلتقط سوى نفسه الأخير.

في 31 تموز من عام 1867، وفي تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً، تم الإعلان عن وفاة بودلير رسمياً.

عاد آنسيل إلى نويي. وما أن علم بالخبر، حتى هرع إلى دار البلدية، ليصرح عن الوفاة، ثم تكفل بإجراءات الجنازة. فأنهاها، بسرعة عجيبة، خلال يومين من العمل الدؤوب.

بعد الدفن في مقبرة مونبارناس، وبعد أن انتهى كل شيء، استقل الوكيل القانوني عربة، و جلس بوقار فوق المقعد الجلدي الأسود، وهو ينظر إلى الخارج مستسلماً لحزنه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

خاتمة

في عام 1878، أي بعد مرور إحدى عشرة سنة على وفاة بودلير، تلقيت وأنا في كوخي في منطقة البيكاردي، رسالة من امرأة شابة، تعبر فيها عن رغبتها في لقاء جان ديفال. كانت تريد القدوم إلى باريس لدراسة الموسيقا والغناء، لكنها لم تكن تعرف أحداً في تلك المدينة. وطلبت نصيحتي حول رغبتها في زيارة تلك «العشيقة الجميلة، صديقة بودلير» التي ملأ ذكرها خيالها وهي تقرأ **أزهار الشر**. هذه الفتاة الأفيرونية [من منطقة أفيرون]، والتي كانت في العشرين من عمرها، تدعى إيما كالفيه Emma Valvé، ستصبح خلال فترة قصيرة، أشهر مغنية أوبرا في زمانها .. علمت إيما بعلاقتي بجان بعد موت الشاعر، وكانت تعرف بمراسلاتي معها. وبما أنها خططت للإقامة في باريس لمدة قصيرة (وهي إقامة ستكون إحدى آخر إقاماتي في العاصمة)، فقد حددت لها موعداً في باريس عند نهاية الشهر التالي، وتعهدت بأن أجمعها بـ«فينوس السوداء»، التي كانت في حوالي الستين من العمر.

إيما فتاة سمراء جميلة، متحمسة وباسمة الثغر، ما أن رأيتها حتى تكونت لها في نفسي مودة حادة. وبدا من بساطة ملبسها، وسذاجتها التي تشبه سذاجة الأطفال، أنها كانت غريبة عن العادات الدنيوية الباريسية.

Twitter: @ketab_n

إيما كالفيه

في العربة التي كانت تقلنا إلى حارة الباتينيول، شرحت لها أن جان، التي مازالت تعاني عجزاً في طرفها الأيمن، أصبحت بمنأى عن الحاجة. إذ أن تأنيب الضمير الذي عاشته كارولين بعد موت ابنها، جعلها ترسل إليها مرتباً تقتطعه من فوائد عائدات مبيع أعمال الشاعر. وكان نارسيس آنسيل قد رافع لصالح قضية جان، واهتم شخصياً بهذا الإجراء والذي يمكن عده بمثابة الوصية، بسبب طلبات بودلير المتكررة في مراسلاته إليه.

فتحت لنا خادمة عجوز باب المسكن المتواضع. انتظرنا بضع ثوان في الصالون المفروش بقماش أصفر. انتهزت هذه الفرصة للنظر في وجه إيما. كانت عيناها تلمعان من شدة الإثارة، والسحر ينثال من فمها، نصف المفتوح، تعبيراً عن بعض القلق. ظهرت جان مستندة إلى عكازين. متميزة في أناقتها التي طالما حرصت عليها خلال فترة شبابها. فوق رأسها مدراس مزركش، تنفر منه خصلتان شاردتان شائبتان مجعودتان، وفي أذنيها

Twitter: @ketab_n

قرطان ذهبيان يصطدمان، على وقع كل خطوة من خطواتها، بقلادتين غريبتين تصدرعنهما طقة معدنية. استعاد جلدها سحنته الذهبية، التي كانت لهاخلال أيامها المباركة، التي التقيت بها خلالها، وعيناها السوداوان الرائعتان المفعمتان بالعذوبة والحنين، لم تتأثرا بعقابيل الشيخوخة والكحول. كانت تبتسم لكلينا، وأعلنت أنها سعيدة للتعرف على مغنية، لا سيما وأنها أحبت الفنون والأوبرا أقصى درجات المحبة. جلست في مقابل إيما وطلبت منها بصوتها الممزوج بالزأزأة:

- هل يمكنك أن تغني لي شيئاً ما؟. لقد استمعت مع شارل إلى لاباتي La Patti وإلى كبريات المغنيات في تلك الفترة. غالباً ما كنت أذهب إلى الأوبرا، لأنها كانت التسلية الوحيدة التي كان شاعري يسمح لي بها. كان غيوراً كالنمر، ولا يسمح لي بالخروج نهاراً، ويقول لي بأني خلقتُ لليل فقط.

نهضت إيما، وقوفاً عند رغبة جان، وأنشدت لحناً من تاليف باخ، وجان تستمع إليها بهدوء، وابتسامة حزينة ترتسم فوق شفتيها الشاحبتين. وبدت عيناها تائهتين في ذكريات بعيدة.

حينما انتهت إيما من الغناء، عادت إلى الجلوس، صارت وجنتاها قرمزيتين بسبب الخجل والمتعة التي تقاسمتها معنا، ثم سألت جان بتلك السذاجة التي تحدثت عنها قبل قليل:

- لا بد وأنك تشعرين بالفخر لأن كاتباً كبيراً كان يحبك...

- نعم، أجابت جان، وهي تسوّي جلستها. كان عاشقاً جميلاً... أحبني وأحببته. كان وديعاً معي، لكنه لم يكن مريحاً دائماً. جميلي شارل، كان في أغلب الأحيان حزيناً، وله نزوات العالم الآخر... وأضافت بعد أن ندّت عنها تنهيدة:

- لا أتمنى لك ياجميلتي أن تكوني محبوبة شاعر، حتى لو كان أعظم

Twitter: @ketab_n

الشعراء. لأن الحياة معهم عذاب تلوح منه، في أغلب الأحيان، سعادة فائقة يضفيها الحب.

عند هذه الكلمات، نهضت جان، وتناولت عكازيها وسارت بضع خطوات. فتحت صندوقاً كان فوق طاولة مرتفعة، وأخرجت منه رسائل أطلعتنا عليها.

– هوذا كنزي! اضطرتني الحاجة لبيع بعضها، لكن هذه الرسائل هي الأولى والأخيرة التي كتبها إلي. لن أبيعها مهما كان سعرها، لأنها ستلحق بي إلى قبري.

بعد جلسة ذلك العصر التي بقيت في ذاكرتي بمثابة التعويذة الصغيرة، عدت إلى بيكاردي، بلدي الأصلي، ولم أر جان بعدها أبداً. بعد بضع سنوات، علمت بأنها توفيت على أثر نزلة برد شددة، وما زلت أجهل المكان الذي دفنت فيه.

غالباً ما أطرح على نفسي سؤالاً يتعلق بتلك الرسائل، هذا الكنز الذي انتزع من حميميته: ترى أين أصبحت؟ لمن باعتها؟. ربما يأتي يوم تظهر فيه، لتستكمل مراسلات الشاعر الغزيرة. أما الان، فلم يبق لي من ذكريات، سوى هذه اللحظات التي قضيتها معها ومع تلك المغنية الشابة إيما كالفيه. غير أني أرى، في بعض الأحيان، وأنا أخلد إلى النوم مساء، عينيّ تلك الجميلة، جان ديفال، اللتان حفرهما شعر بودلير في غرانيت الأجيال القادمة. يطيب لي أن أفكر بأن هاتين العينين جاءتا لتضيئان روح بودلير في اللحظة التي كانت هذه الروح تلفظ أنفاسها الأخيرة، لأنهما كانتا، بلا شك، أجمل تصريح للسفر إلى الجنة.

❖ ❖ ❖

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عشيقة شارل بودلير

عليَّ أن أقول لك بأني لم أخترع شيئاً. لم أروِ، عن علاقة هذين العاشقين الملعونين، إلا قصة ناقصة مما أعرفه عنهما، كما لم أسرد شيئاً أجهله. لقد شهدتُ بعض مضمون هذه القصة مباشرة، أو كتبته وفقاً لشهاداتٍ أكّدت صدقها الرسائل والجلسات الخاصة. لكن الأساسي من هذه القصة روته لي جان نفسها ، التي أعدتُ وصلي بها بعد موت شارل، وبقيت على هذا التواصل معها حتى خبت روحها منذ زمن بعيد.

أعرف، عزيزي القارئ، ما عندك من طبيعةٍ حذرة إزاء ما سأرويه لك لأن الناس آنذاك ،لاسيما الفنانين وجماعة الأدب الذين كنا نختلط بهم ، كانوا ينتقصون من قيمة بعضهم بعضا ، ولم يكن بالأمر السهل أن تميز الغث من سمين المقول أو المكتوب عن جان أو عن بودلير. في نهاية المطاف، لكَ أن تعتقد كما يحلو لك. لكن اعلم فقط أني عملت هنا بكل أمانة ووفاء ممكنين. أي ما أسعفتني قدرتي على القيام به. الآن وقد انتهى هذا القرن الفظيع، واضعاً آماله في التوجهات التقدمية والجهود المشتركة بين العلم والاشتراكية لما هو قادم، والذي ربما سيتمخض عن إنسانية أكثر تعقلاً ، عليّ عزيزي القارئ ، أن أدعك لأن شفق العمر(الشيخوخة) يجتاحني وقواي تخونني.

ISBN 978-9933-456-13-9

9 789933 456139

نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com